

التفسير الموضوعي لمصطلحات القرآن

التَّائِبِينَ وَالْمُتَّوِّبِينَ فِي الْقُرْآنِ

د. صلاح عبد الفتاح الخالدي



دار النفائس

مستشار وفوز مباح - الرياض ١٤١٠ هـ

النَّفْسَيْنِ وَالسَّائِرَاتِ فِي الْقُرْآنِ

د. صلاح عبدالفتاح الحادي



دار الفائقس
مكتبة و مطبعة
الاردن

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م



للنشر والتوزيع

العبدلي - مقابل عمارة جوهرية القدس

هاتف: ٦٩٣٩٤٠ - فاكس: ٦٩٣٩٤١

ص.ب: ٢١١٥١١ عمان ١١١٢١

الأردن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدرة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونتوبُ إليه ونستغفره ، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا ، وسيئاتِ أعمالنا ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فلا مضلَّ له ، وَمَنْ يَضِللْ فلا هاديَ له ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ ، وحده لا شريكَ له ، وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله ، صلواتُ اللهُ وسلامُهُ عليه ، وعلى آله وصحبه .
أما بعد :

فقد أوجبَ اللهُ على المسلمين تدبیرَ آياتِ القرآن ، فقال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ﴾^(٢)

وتدبیرُ القرآن عن طريقِ إسماعيلِ النظرِ في سورِهِ وآياته ، وجمله وكلماته ، وتركيبه ومفرداته ، والوقوفِ أمامها طويلاً ، ونفاذِ النظرِ إلى مضامينها ومراميتها وأغراضها ، وملاحظةِ حقائقها ودقائقها ، والأنسِ والسعادةِ والاستمتاعِ بالحياةِ معها ، والاسترواحِ في ظلالها ، وقضاءِ أسعدِ الأوقاتِ معها .

والمؤمنُ يفعل ذلك ليشعرَ على معالمِ الحياةِ التي يريدُ القرآنُ إيجادها ، ومناهجِ الإصلاحِ التي يقررها ، يفعلُ ذلك ليعرفَ ماذا يريدُ اللهُ منه أن

(١) سورة النساء : ٨٢ .

(٢) سورة محمد : ٢٤ .

يكون، ليكون، ليعرف الأحكام التي يقرؤها القرآن، والواجبات التي أوجبه الله عليه في القرآن ليتزمتها، والمنهيات التي نهى الله عنها في القرآن ليتجنبها.

المؤمنُ يفعل ذلك ليتعرف على أسس الدعوة في القرآن ، لينطلق من خلال القرآن داعياً إلى الله، ناصحاً للمسلمين ، ناشراً لهدى القرآن ، بشيراً ونذيراً ، أمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، متحدياً للباطل ، مواجهاً للكفار ، مجاهداً للأعداء ، جندياً من جنود القرآن .

وإذا كان هذا المؤمنُ صاحبَ علم وفقه، وطالبَ فائدةٍ وبحث ، فإنه في تدبره للقرآن ، ونظره في سورة وآياته ، يحقق ما سبق ذكره ، ويؤدبه ويلتزمه، ويجعل حياته وقفاً على تحقيقه ، ثم يضيفُ إليه أهدافاً أخرى سامية ، وأغراضاً رفيعةً عالية .

إنه يتدبر القرآن ، ويُعمق النظر فيه ، ليتعرف على أسلوبه وبيانه ، ويتذوق بلاغته وفصاحته ، ويقف على أسرار ومظاهر إعجازه ، وأساليب بيانه ، وروعة كلماته وتعبيراته .

إنه يعيشُ مع بيان القرآن ، وأسلوب القرآن ، وحدث القرآن ، ومفردات القرآن ، ومصطلحات القرآن ، وموضوعات القرآن ، ومعاني القرآن ، وحقائق القرآن .

إنه مع القرآن في أوقاته وساعاته ، في ليله ونهاره ، في مشاعره وتطلعاته، في نظراته وعباراته .

والقرآن الكريمُ كتابُ الله العظيم ، وكلامه المعجز ، أنفسُ ما تنفقُ فيه الأوقات ، وتوجهُ له النظرات ، ويُقضى فيه الأعمار ، وتدورُ معه الأفكار .

رحمَ اللهُ الاستاذ سيد قطب حيث يقول في أولِ جملةٍ من «الظلال»: «الحياةُ في ظلال القرآن نعمة ، نعمةٌ لا يعرفها إلا مَنْ ذاقها ، نعمةٌ ترفعُ

العمرَ وتباركهُ وتزكِيه ، ولقد مَنَّ اللهُ عليَّ بالحياةِ في ظلالِ القرآن ، فذقتُ منها ما لم أذُقْ قط في حياتي .^١

وأحمدُ اللهُ وأشكرهُ على ما أنعمَ عليَّ من نعمةِ التوجُّهِ إلى القرآن ، والإقبالِ عليه ، والتخصُّصِ فيه ، لقد يسرَّنِي لهذا الميدانِ المبارك ، « ميدانِ القرآن وتأويله وتدبره ، و « كلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خُلِقَ له » .

يا لها من نعمةٍ ربانيةٍ مباركة ، أن أعيشَ مع القرآنِ قارئاً وثالياً ، ومتدبراً متفكراً ، ومفسراً مؤولاً ، ومحاضراً متكلماً ، ومدرساً موجهاً ، وكاتباً مؤلفاً ، وكم أشعرُ بالسعادةِ والانشراحِ لهذا الخيرِ الجزيلِ الجميلِ ، الذي ساقه اللهُ إليَّ، وجعلني مع كتابه الكريم .

ومهما أشكرُ اللهُ على هذه النعمة - وعلى غيرها من النعمِ الغامرة - فلنْ أوفيه سبحانه حقُّهُ من الشكر ، وسأبقى عاجزاً مقصراً ، وإنْ مِن كرمِ اللهُ العظيمِ الكريمِ أنكَ كلما شكرته أنعمَ عليك ، وكلما ازدددت له شكراً - وشكركَ قليلٌ عاجزٌ ناقص - تقبَّله منك ، وزادَ عليك إنعاماً وعطاءً وفضلاً - وإنعامه جزيلٌ وفير - هذه هي إرادتهُ الحكيمة ، وسنتهُ النافذة المطردة: ﴿وإذ تآذنَ ريسكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾^(١) .

عليَّ أن أشكرَ اللهُ - بوسائلي العاجزةِ المقصرة - بالإكثارِ من الإقبالِ على كتابه ، والزيادةِ من النظرِ فيه وتدبره ، والتسَمُّعِ في تفسيره وتأويله ، والاتِّصافِ إلى لطائفه ، ودلالاته ، وحقائقه ، وموضوعاته ، ونشرِ علومه ومناهجه ، وإعدادِ الأبحاثِ والدراساتِ حوله ، وعرضِ بعضِ ما أجدهُ منه في الدروسِ والمحاضراتِ ، والأبحاثِ والمقالاتِ ، والكتبِ والمؤلفاتِ ، قياماً بالحقِّ المطلوبِ مِنِّي ، وأداءً لبعضِ الواجبِ الذي أوجبه اللهُ عليَّ ، وأداءً لبعضِ الشكرِ الذي تعيَّنَ عليَّ .

(١) سورة إبراهيم: ٧ .

وهذا كتابٌ جديدٌ من المؤلفات والكتب المتعلقة بالقرآن ، شاء الله أن
أبحث في موضوعاته ومباحثه ، وأعانتني على السير فيه وعرض أفكاره ،
ووفقتني لكتابته وصياغته ، فله الحمد والشكر .

أقدمُ هذا الكتاب « التفسير والتأويل في القرآن » ليكون أساساً لسلسلةٍ
جديدةٍ أنوي إصدارها ، وتتعلقُ بالتفسير الموضوعي للقرآن ، وتتوجّه نحو
لونٍ خاص من ألوان التفسير الموضوعي ، وهو « مصطلحات قرآنية » ،
أخصصُ كلُّ مصطلح أو مصطلحين في كتاب ، وأعرضُ فيه كلامَ القرآن
عنه ، وأقدمُ للقراء الكرام ، راجياً منهم الدعاء لي بظهور الغيب ، والنظرة
الفاحصّة في الكتاب ، وإرشادي إلى ما يروونه من ملاحظاتٍ أو استدركاتٍ
أو مؤاخذات ، لأنتفعُ بها ، شاكراً لهم كريمٍ نصحبهم :

فصول البحث الأربعة

جاء هذا البحثُ في أربعة فصول :

الأول: التفسيرُ والتأويلُ في اللغة والاصطلاح: سيرنا فيه مع معنى «التفسير
في اللغة والاصطلاح» ، ثم معنى « التأويل في اللغة والاصطلاح» .
واستشهدنا على معناه بكلام علماء اللغة والتفسير .

الثاني: التفسيرُ والتأويلُ في الأسلوب القرآني: وقفنا فيه مع التفسير في
سورة الفرقان . ثم انتقلنا إلى بحثِ مصطلح « التأويل » في السياق
القرآني .

وجدنا أن « التأويل » لم يرد في القرآن إلا على هذه الصيغة المصدرية
فقط « تأويل » . وأنه ورد في سبع سور .

وقفنا مع كل سورة ، ننظرُ في سياق ورود التأويل فيها:

مع التأويل في سورة يوسف ، ثم في سورة الكهف ، ثم في سورة
الأعراف ، ثم في سورة يونس ، ثم في سورة الإسراء ، ثم في سورة

النساء ، وأخيراً في سورة آل عمران .

وأطلقنا الرقفة مع آية التاويل في سورة آل عمران ، لحديثها عن المحكم والمتشابه والتاويل ، وإشارتها إلى اللاموم من التاويل .

الثالث: التاويلُ في كلام الرسول ﷺ وأصحابه: عرضنا فيه أمثلةً من الأحاديث النبوية ، وكلام الصحابة يظهرُ منها استعمالهم للتاويل ، والمعنى الذي استعملوه فيه . ولاحظنا أنهم استعملوه بمعنى فعلُ نفس الشيء أو ردهُ إلى غايته العملية، وبمعنى الفهم والتفسير والبيان .

الرابع: الفرقُ بين التفسير والتاويل: سجّلنا فيه أهم ما قاله السابقون من فروقٍ بين التفسير والتاويل ، وبالذات ما قاله كلُّ من الراغب الأصفهاني، وأبي البقاء الكفوي، والدكتور أحمد حسن فرحات .

ثم عرضنا الراجعَ في الفرق بين التفسير والتاويل عندنا ، حيثُ لاحظنا أنهما مرحلتان في فهم القرآن وتدبره ، مرحلة التفسير أولاً ، ثم مرحلة التاويل التي تليها وتُبنى عليها . وأوردنا الأدلة على هذا الفهم والترجيح ، من حديث الرسول ﷺ وكلام أصحابه ، وبيّنا أن الأصل أن يكون كلُّ مؤولٍ مفسراً ، ولا يشترط أن يكون كلُّ مفسرٍ مؤولاً .

ثم لاحظنا ورودَ معنى ثالثٍ للتاويل ، استعمله المتأخرون ، وهو الصرفُ والتحويل ، وبيّنا أن منه ما هو مقبول ، ومنه ما هو مردود ، ورأينا رفضَ الردود ، وأكثرنا عدمَ استعماله بهذا المعنى أصلاً ، لأنَّ المقبولَ منه يدخلُ ضمنَ المعنى الثاني .

الأول: بيانُ العاقبة والمآل ، وتحديدُ ما يؤولُ إليه النص ، وملاحظة صورته للمادية النهائية ، وفعلُ المأمور به عملياً أو الانتهاءُ عن النهيِّ عنه فعلياً .

وهذا هو معناه في القرآن ، ومعظم الأحاديث ، وكلام الصحابة .

الثاني: الفهم والتفسير ، والاستنباط والاستدلال ، وبهذا وردَ في بعض الحديثِ وكلام الصحابة .

ولا مانعَ أن نستخدمه بالمعنى الثاني ، أن بمعنى الفهم والتفسير والبيان ، طالما وردَ في السنَّةِ وكلام الصحابة ، واستعمله بهذا أئمة التفسير ورواد التأويل، وفي طلبعتهم الامامُ محمد بن جرير الطبري .

وأخيراً هاهو البحث بين أيدي القارئ والباحثين ، فما فيه من صوابٍ فهو من الله، والحمد لله ، وما فيه من خطأٍ وقصور فهو من النفس ومن الشيطان، ونعوذُ بالله ونستغفره ونسئبُ إليه ، ونرجو منه الأجرَ والثواب والرفعة والجنة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

صويلح

الخميس ٢٥/٥/١٤١٥ هـ

٣/١١/١٩٩٤ م

تمهيد
والتفسير الموضوعي
أولادنا، وخطوات السير فيه

التفسير الموضوعي

تفاسير القرآن أربعة أنواع:

الأول: التفسيرُ الإجمالي: وهو الذي يكتفي المفسرُ فيه بعرض المعنى للآيةِ أو الآياتِ عرضاً إجمالياً موجزاً ، دون توسُّع أو تفصيل ، ويكونُ التفسيرُ ثلاثة أضعاف القرآن تقريباً .

من التفاسير الإجمالية: تفسير الجلالين ، وصفوة البيان لمعاني القرآن لحسين مخلوف .

الثاني: التفسيرُ التفصيلي: وهو الذي يَسِيرُ فيه المفسرُ مع سور القرآن سورةً سورة ، ومع آياته آيةً آيةً، ويتوسَّعُ في تفسيرها وتاويلها ، ويفصِّلُ في كلامه، ويستطرد، ويعرض موضوعاتٍ ، ومباحثٍ ، ومسائل عديدة . ومعظمُ التفاسير هي من هذا النوع ، مثل: تفسير الطبري ، وتفسير الزمخشري ، وتفسير الرازي ، وتفسير الألوסי .

وهذه التفاسيرُ المفصلة منها ماهو وجيز ، ومنها ما هو بسيط ، ومنها ما هو مطوَّل ، لكنها تبقى تفاسيرَ تفصيليةً تحليليةً .

الثالث: التفسيرُ المقارن: بحيث يدرسُ الباحثُ تفسيرَ السورة أو الموضوع القرآني في أكثر من تفسير ، ثم يستخلصُ منهجَ وطريقة كلِّ مفسرٍ فيها ، وبعد ذلك يعقدُ مقارناتٍ بين مناهج وطرائق هؤلاء المفسرين ، ليرى مافي

تفاسيرهم من جدّة وإضافة، وما فيها من تقليدٍ زمتابعة ، وما فيها من تكرارٍ أو إبداع، ثم يتعرفُ على مالها من إيجابيات ، وما عليها من مأخذ وسلبيات ، ويفعلُ ذلك بعد مقارنته بين هذه التفاسير .

الرابع: التفسير الموضوعي: وهو تفسيرُ هذا العصر ، ولم يشتهرَ هذا النوعُ عند المفسرين السابقين في القرون الماضية ، وإنما اشتهرَ بين الباحثين والمفكرين والمتدبرين في عصرنا ، ونرى أن المستقبلَ إنما هو لهذا النوع من التفسير ، وله أهمية خاصة ، ورسالة عظيمة يؤذيها .

وليس كلامي هنا عن الدراسة المنهجية للتفسير الموضوعي، فإنّ هذه المعالجة لا تكفي له ، وأعدُّ بإصدارِ دراسةٍ منهجيةٍ خاصةٍ عن « التفسير الموضوعي: أهميته ، ألوانه ، متاعجه » ، وقد تكونُ هذه الدراسة قربيةً إن شاء الله .

ألوان التفسير الموضوعي الثلاثة :

أريدُ في هذه الوقفة السريعة أن أشيرَ إلى « ألوان التفسير الموضوعي » .

إن ألوان التفسير الموضوعي ثلاثة :

اللون الأول: التفسير الموضوعي للمصطلحات القرآنية: بحيثُ يختارُ الباحثُ مصطلحاً من مصطلحات القرآن ، ويُفرد له دراسة خاصة ، يتابعُ فيها هذا المصطلحَ في القرآن ، في اشتقاقاته وتصريفاته وحالاته العديدة ، ثم يتدبرُ الآيات التي وردَ فيها هذا المصطلح ، ويستخلصُ منها اللطائف والمعاني ، والدلالات والإشارات .

من أجدود الأمثلة على هذا اللون من التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني: رسالة « الأمة في دلالتها العربية والقرآنية » لأستاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات، و « العهد واليشاق في القرآن » لزميلنا - في الدراسة - الأستاذ الدكتور ناصر العمر .

ومنها - بشيء من التساهل - كتاب « الضالون كما يصورهم القرآن »
لعبد المتعال الجبري ، و « الصبر في القرآن » للدكتور يوسف القرضاوي .
وقد صحح عزمي - بعون الله - على إصدار سلسلة لهذا اللون من التفسير
الموضوعي ، وهي « التفسير الموضوعي للمصطلحات القرآنية » وهذه
الرسالة: « التفسير والتأويل في القرآن » هي باكورة هذه السلسلة إن شاء
الله .

اللون الثاني: التفسير الموضوعي للموضوعات القرآنية ، بحيث يبقى
الباحث مع موضوع من موضوعات القرآن ، يجمع الآيات حوله ، بمختلف
صيغها ومفرداتها، وكلماتها ومصطلحاتها .

وهذا الموضوع أشمل من المصطلحات القرآنية ، لأن القرآن يتحدث عن
الموضوع الواحد بمفردات ومصطلحات مختلفة ، وعلى الباحث أن يجمعها
وأن ينظر فيها ، وأن يستخرج دلالاتها وحقائقها .

مثل: الصلاة في القرآن . الجهاد في القرآن . العقيدة في القرآن . الرسول
في القرآن . المناقون في القرآن .

وقد حاولت في بعض ما كتبت أن أسلك هذا الميدان ، وأن تكون تلك
الدراسة قريبة من هذا اللون من التفسير الموضوعي بكتاب « مع قصص
السابقين في القرآن » بحلقاته الثلاث ، الذي خصصته للحديث عن قصص
غير الأنبياء في القرآن .

كما أمثل له بكتاب « الشخصية اليهودية من خلال القرآن: تاريخ
وسمات ومصير » ، وبالكتاب الآخر المتفرع منه وهو: « حقائق قرآنية
حول القضية الفلسطينية » .

اللون الثالث: التفسير الموضوعي للسور القرآنية: يُفرد الباحث في السورة
القرآنية بدراسة خاصة ، ويمعن النظر فيها ، ويبين الوحدة الموضوعية
للسورة، ويلحظ أهدافها ومقاصدها ، ويقف على وحدتها ودروسها ، ثم

يحللها تحليلاً موضوعياً ، ويقدمها للقارئين وحدةً موضوعية متكاملة .
من أجود الدراسات القرآنية التي تمثلُ هذا اللونَ من التفسير الموضوعي ،
كتاب « سورة الحجرات: دراسة تحليلية موضوعية » للأستاذ الدكتور ناصر
العمر .

ومنها كتاب « تدبرُ سورة الفرقان » لعبد الرحمن حبنكة الميداني .
ومنها - مع التساهل - دراساتُ الدكتور علي عبد الحليم محمود التريوية
لبعض سور القرآن . مثل: تفسير سورة النور . وتفسير سورة المائدة .
ومنها - مع التساهل أيضاً - سلسلة الأستاذ عبد الحميد طهماز . « من
موضوعات سور القرآن » . والتي أصدرَ منها حوالي عشرين رسالة .
وفي النية إصلاحُ بعض الدراسات لهذا اللون من التفسير الموضوعي ،
أردُّ فيه كلُّ سورة برسالةٍ خاصة ، وأرجو من الله التوفيقَ والعون .
ولا يفوتني التذكيرُ بالبدايةِ الناجحة ، التي بدأها سيد قطب - وهي بداية
- في تعريفه بالسورِ القرآنية ، في الطبعةِ المنقحة من الظلال ، من سورة
الفاتحة حتى سورة الحجر ، وكلامه في ذلك التعريف والتقديم يصلحُ أن
يكون « نواة » لمن بعثه في هذا اللونِ من التفسير الموضوعي .

خطوات السير في التفسير الموضوعي :

كيفَ نبحثُ في المصطلح القرآني الواحد ؟ وكيفَ نفسرُ هذا المصطلحَ
تفسيراً موضوعياً ، وما هي الخطوات التي نتبناها في ذلك ؟
فيما يلي عجالةٌ سريعةٌ لهذه الخطوات ، وُرجى التفصيل فيها إلى
دراسةٍ منهجيةٍ قادمة عن التفسير الموضوعي إن شاء الله .
نريدُ أن نفسرَ « الجهاد في القرآن » تفسيراً موضوعياً - على سبيل المثال
- فما هي الخطوات التي نسلكها في ذلك ؟

١ - نُعيدُ الكلمةَ إلى جَدِّها الثلاثي. فالجذرُ الثلاثي لمصطلح الجهاد هو «جهد».

٢ - نبحثُ عن المعنى اللغويّ الاشتقائيّ لهذا الجذر الثلاثي في أمهاتِ كتب اللغة ، ومن أهمّ المعاجم في ذلك « معجم مقاييس اللغة » لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . ونراجع في هذا كتبَ المعاجم الموسعة ، ومن أفضلها «لسان العرب» لابن منظور الأفرغي .

٣ - ننظرُ في معنى الكلمة - جهد - في الكتب التي تبيّن معاني ألفاظِ وكلماتِ القرآن . وفي مقدمتها كتابُ « مفردات ألفاظ القرآن » للإمام الراغب الأصفهاني . ومنها كتابُ « التصاريف » ليحيى بن سلام البصري ، وكتابُ « عمدة الحفاظ في تفسير اشرف الألفاظ » للسعدي الحلبي . ويجبُ أن لا يفوتنا الاطلاعُ على الكلمة في معجم «الكليات» لأبي البقاء أيوب الحسيني الكفوي .

٤ - ننظرُ في اشتقاقاتٍ وتصريفاتِ الكلمة - جهد - في القرآنِ الكريم ، ونطلعُ على هذه التصريفات والحالات في الكتابِ القيمِ النافع: «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن» لمحمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله . ونُعيدُ قائمةً بهذه الاشتقاقات والصيغ .

٥ - نتابعُ كلَّ صيغةٍ أو تصريفٍ منها في آياتِ القرآن ، ونسجّلُ هذه الآيات ، ونرتّبها ، وننظرُ في بعض دلالاتها وإيحاءاتها .

٦ - نربطُ بين الأصلِ الاشتقائي اللغوي للكلمة ، الذي أخذناه من مقاييس اللغة ولسان العرب والمفردات والكليات ، وبين الاستعمالِ القرآني ، ونرى توترَ المعنى اللغوي ، والأصلِ الاشتقائي في الآياتِ القرآنية ، ونُترّلُ ذلك الأصلَ اللغويّ على التصريفاتِ القرآنية .

٧ - نطلعُ على تفسير الآيات التي استخدمتُ ذلك المصطلحَ القرآني في أمهاتِ كتب التفسير ، لتعرفَ ماذا قال المفسرون في تفسيرها ، وحتى لا نخطئ في نظراتنا وتحليلاتنا .

ونرى أن من أمهاتِ كتب التفسير القديمة والحديثة: جامعَ البيان للطبري، والكشافَ للزمخشري ، والتفسيرَ الكبير للرازي ، والجامعَ لأحكام القرآن للقرطبي ، والمحررَ الوجيز لابن عطية ، وتفسيرَ القرآن العظيم لابن كثير، ونظمَ الدرر للبقاعي ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ، والتحريرَ والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور .

٨ - نسجلُ ما نلاحظه في الآيات من دلالاتٍ ولطائف ، وإشاراتٍ وحقائق، وننقلُ ما نراه مناسباً من أمهاتِ التفاسير ، ونركزُ على الدلالات التي فيها جدٌ وإضافة ، أو فيها ارتباطٌ واتصالٌ مع واقعٍ وحياةٍ وحاضر الناس ، ونحرصُ على أن تكونَ هذه اللطائف منوعةً مختلفة .

٩ - نذهبُ إلى أحاديثِ رسولِ الله ﷺ، وكلامِ الصحابة والتابعين ، لنطلعَ على ما في هذه المصادر من كلامٍ يتعلق بالمصطلح الذي نبهتُ ، فإن الأحاديثِ الصحيحة التي استخدمتُ ، تُضفي عليه مزيداً من الإشاراتِ والفوائد والحقائق .

١٠ - نستخلصُ بعضَ ما وجدناه في رحلتنا مع هذا المصطلحِ القرآني ، ونختُمُ البحثَ بخاتمةٍ نسجلُ فيها خلاصةً نالعةً في ذلك .

هذه عشرُ خطواتٍ مرحليةٍ متدرجةٍ تراها ضروريةً لمتابعةِ أيِّ مصطلحٍ قرآني، ليكونَ البحثُ علمياً موضوعياً ، وليكونَ النظرُ سليماً صائباً ، وليكونَ الاستنتاجُ صحيحاً مقبولاً .

البدء بالتفسير والتأويل في القرآن :

وعلى هدي هذا المنهج بحثنا في « التفسير والتأويل في القرآن » في هذا البحث .

لقد أردنا أن يكون أول مصطلح نتابعه في القرآن ، ونفسره تفسيراً موضوعياً هو « التأويل » . لأن عملنا وجهدنا ما هو إلا نوعٌ من أنواع تفسير القرآن ، ولونٌ من ألوانِ تأويله .

لقد اختلفَ العلماءُ قديماً وحديثاً في معنى « التأويل » وفي بيانِ أنواعه، ونشأتْ عن ذلك مدارسٌ ، ومذاهبٌ، وتيارات فكرية مختلفة . وادخل بعضهم موضوعَ التأويل في العقيدة، وفي مباحثها الغيبية ، وبالذاتِ في صفات الله .

كما اختلفَ العلماءُ كثيراً في نظرهم في آية المحكم والتشابه والتأويل في سورة آل عمران ، هل يمكنُ تأويل التشابه أو لا يمكن ؟ وما هو التشابه الذي يمكنُ تأويله ، والذي لا يُمكن ؟ وما هو المرادُ بالتأويل إن كان ممكناً ؟ وما هي ضوابط هذا التأويل الممكن ليكون صواباً ؟ وما هو المرادُ بالتأويل غير الممكن الذي اختصَّ اللهُ به ؟

كما اختلفوا كثيراً في بيانِ الفروق بين التفسير والتأويل ، وأوردوا في هذا أقوالاً عديدة .

هذا كله دفعتنا إلى أن نبحثَ في مصطلح « التأويل » في القرآن ، لنحاولَ معرفة إجاباتٍ عن هذه التساؤلات ، ولتقدمَ للقارئ خلاصةً وصورةً عن هذا الموضوع ، ولتعالجته معالجةً قرآنيةً حديثة .

وبما أن « التفسير » ملازمٌ للتأويل ، ومقتربٌ به ، فقد بحثنا فيه أيضاً ، لاسيما أن « التفسير » لم يرد في القرآن إلا مرةً واحدة ، في سورة الفرقان .

الفصل الأول

التفسير والتأويل

في

اللغة وولده اصطلاح

البحث الأول

التفسير في اللغة والاصطلاح

التفسير في اللغة:

التفسير مصدر ، على وزن « ثعليل » .
وفعله الثلاثي « فسر » . يقال: فسر الشيء فسراً .
والفعل الماضي من التفسير، هو الرباعي « فسر » ، يقال: فسر الشيء تفسيراً .

والجذر الثلاثي للكلمة هو الفسر .

قال الإمام أحمد بن فارس عن الفسر: الفسر كلمة تدلُّ على بيان الشيء وإيضاحه .

تقول: فسرتُ الشيء ، وفسرته^(١) .

وقال الإمام الراغب الأصفهاني في المفردات: الفسر: إظهارُ المعنى المعقول . ومنه قيل لما يُسبىءُ عنه البول: تفسرته . [أي أن البول ينسبُ ويكشفُ ويظهرُ المرضَ الموجودَ في الجسم ، فالبولُ تفسرٌ وإظهارٌ للمرض] .
والتفسيرُ في المبالغة كالفسر^(٢) .

أي أن الراغب يرى اتفاقَ التفسير والفسر في أصل المعنى ، فهما يدلان

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٥٠٤/٤

(٢) مفردات الفاظ القرآن: ٦٣٦ .

على إظهار المعنى . لكن في التفسير مبالغاً أكثر من الفسر .
ويلتقي كلام ابن فارس مع كلام الراغب على أن معنى التفسير يقوم
على: بيان الشيء وإظهاره وإيضاحه .

وقال ابن منظور في « لسان العرب » عن الفسر:

الفسر: البيان . يقال فسّر الشيء وفسره ، أي: أبانه .

والفسر: كشف المغطى . والثمسة: البرؤ الذي يُستدلُّ به على المرض،
حيث ينظر فيه الأطباء ، فيستدلون به على علة المريض .

وكلُّ شيء يُعرفُ به تفسيرُ الشيء ، ومعناه ، فهو تفسرته .

والتفسير: البيان . وهو: كشفُ المرادِ عن اللفظِ المشكَلِ^(١) .

إنَّ كلَّ اشتقاقٍ وتصريفاتِ مادةٍ « فسر » تدلُّ على معناها الأصلي ،
الذي لا يخرج عن: البيانِ والكشفِ والتوضيحِ والإظهارِ .

فتفسيرُ الكلامِ هو: بيانُ معناه . وإظهاره وتوضيحه ، وإزالةُ إشكاله،
والكشفُ عن المرادِ منه .

قال الإمام أبو البقاء الكفوي في « الكليات » عن هذا المعنى الجامع
للتفسير:

« التفسير: الاستبانة والكشفُ، والعبارة عن الشيء بلفظٍ أيسرَ وأسهلَ
من لفظِ الأصل .

قال أهلُ البيان: التفسيرُ هو أن يكونَ في الكلامِ لبسٌ وخفاءٌ ، فيؤتى
بما يزيله ويفسره^(٢) .

(١) لسان العرب لابن منظور ٥٥/٥ .

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي: ٢٦٠ .

بين القسْر والقسْر :

لاحظنا أن التفسير مشتق من القسْر .

والاشتقاق الأصغر من هذه المادة « القسْر » يدل على معناها الأصلي ، وهو البيان والتوضيح ، والكشف والإظهار .

والاشتقاق الأصغر هو: كل التصريفات من هذا الجذر الثلاثي « قسر » مثل قسّر ، يقسّر ، فسراً ، وقسّر ، يقسّر ، تفسيراً .

كذلك الاشتقاق الأكبر لهذه المادة يدل على هذا المعنى .

والاشتقاق الأكبر هنا مشاركة مادة أخرى مادة « قسْر » في الحروف الثلاثية لها ، لكن مع تقديم وتأخير .

من الاشتقاق الأكبر لهذه المادة كلمة « قسّر » ، فكلمتا « قسّر » و« قسّر » متقاربتان في اللفظ والمعنى ، ومشتقتان من الحروف الثلاثة: القاء والسين والراء ، اشتقاقاً أكبر .

إن أساس معنى « قسر » قريب من معنى « قسّر » .

قال أحمد بن فارس عن « قسّر » : هو يدل على الانكشاف والجلد .

وكل المشتقات اشتقاقاً أصغر من هذه المادة ، تدل على هذه المعنى .

فالقسْر سمي بذلك ، لأن الناس عندما يسافرون ينكشفون عن أمانتهم ، ويظهرون للآخرين .

ويقال: قسرت المرأة عن وجهها: إذا كشفت وأظهرته .

ويقال: أسفر الصبح: إذا انكشف الظلام وظهر الضياء .

ويقال: وجّه مسقِر: إذا كان مشرقاً مسروراً .

وسميت الكتابة « قسراً » ، وسمي الكتاب « سقراً » : لأن الكتابة

سفر عن ما يحتاجُ إليه صاحبها ، وتكشفُ مرادَه ، وتُظهره^(١) .

وقال الراغب في المفردات: السُّفرُ كشفُ الغطاء .

ويختصُّ ذلك بالأعيان . يُقال: سفرَ العمامة عن الرأس . وسفرَ الخمارَ عن الوجه . أي: كسَّته .

والإسفارُ يختصُّ باللون . يُقال: أسفرَ الصبح: إذا أشرقَ لونه .

وسافرَ الرجل: لأنه يتكشفُ عن المكان . والفُ المفاعلة في « سافرَ » لأنه هو قد سَفَرَ عن المكان ، والمكان أيضاً سَفَرَ عنه^(٢) .

فبينَ القسْرِ والسُّفرِ تقاربٌ في اللفظ ، لأنهما مشتقان اشتقاقاً أكبر .

وبينهما تقاربٌ في المعنى - ولأقول: ترادف - لأنَّ أساسَ معنى القسْرِ هو: البيانُ والتوضيح . وأساسَ معنى السُّفرِ هو: الانكشافُ والظهور .

تعريف « تفسير القرآن »

بعدَ أن عرفنا معنى « التفسير » في اللغة ، واشتقاقه من « القسْرِ » ، والصلة بين القسْرِ والسُّفرِ ، نتقلُ الآن إلى تعريفِ هذا المصطلحِ «التفسير»، بعد أن صارَ علماً يُطلق على بيانِ معاني القرآن .

للعلماءِ المُفسِّرين عدَّةُ إقوالٍ في تعريفِ « تفسير القرآن » ، أوردها الإمام السيوطي في « الاتقان » ، تختارُ منها ما يلي:

١ - قال بعضهم: التفسيرُ في الاصطلاح: هو علمُ نزولِ الآيات ، وشؤونها وأقاصيصها ، والأسبابِ النازلةِ فيها ، ومكيَّتها ومدنيَّتها ، ومحكميَّتها ومتشابهيَّتها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصَّتها وعامَّتها ، ومطلقها ومقيَّدتها ، ومجملها ومفسَّرها ، وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها ،

(١) مجمع مقاييس اللغة: ٨٢/٣ .

(٢) المفردات: ٤١٢ .

وأمرها ونهيها ، وغيرها وأمثالها .

٢ - وقال أبو حيان: التفسيرُ علمٌ يُبحثُ فيه عن كيفيةِ النطقِ بالفاظِ القرآنِ ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفراديةِ والتركيبيةِ ، ومعانيها التي تُحملُ عليها حالة التركيب ، وتتمت ذلك .

٣ - وقال الزركشي: التفسير: علمٌ يُفهمُ به كتابُ الله ، المنزَّلُ على نبيِّ محمد ﷺ ، وبيانُ معانيه ، واستخراجُ أحكامه وحِكَمِهِ . واستمدادُ ذلك من علمِ اللغةِ والتحرُّ والتصرفِ ، وعلمِ البيانِ ، وأصولِ الفقهِ والقراءاتِ ، ويحتاجُ لمعرفةِ أسبابِ النزولِ ، والتأنيخِ والنسخِ^(١) .

ونلاحظُ أنَّ هذه التعاريفَ - تتحدثُ عن تفصيلاتٍ ومباحثِ علمِ التفسيرِ ، وعن موارده ومصادره ، أكثرَ مما تتحدثُ عن تعريفه تعريفاً موجزاً ، يدلُّ على طبيعته .

وقد مالَ أبو البقاء الكتفوي في الكلياتِ إلى تعريفِ أبي حيان للتفسيرِ ، فُقال في تعريفه: هو علمٌ يُبحثُ فيه عن كيفيةِ النطقِ بالفاظِ القرآنِ ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفراديةِ ، ومعانيها التركيبية^(٢) .

أما الدكتورُ محمد حسين الذهبي ، فقد أوردَ في « التفسيرِ والمفسرون » التعاريفَ الثلاثةَ للتفسيرِ ، التي نقلناها من كتابِ « الاتقان » .

ثم أضافَ لها تعريفاً رابعاً ، هو تعريفُ الشيخِ محمد أبو سلامة في كتابه «منهج الفرقان» ، فقال:

٤ - « وعرفه بعضهم: بأنه علمٌ يُبحثُ فيه عن أحوالِ القرآنِ المجيدِ ، من حيثُ دلالاته على مُرادِ الله ، بقدرِ الطاقة البشريةِ »

وعلقَ الشيخُ الذهبيُّ على هذه التعاريفِ بقوله: « وهذه التعاريفُ الأربعةُ

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي: بتحقيق الدكتور مصطفى البنا: ١١٩١/٢ .

(٢) الكليات: ٢٦٠ .

تفتقُّ كلها على أن علمَ التفسير: علمٌ يَحْتُ عن مُرادِ الله تعالى ، بقدرِ
الطاقة البشرية . فهو شاملٌ لكلِّ ما يتوقفُ عليه فهمُ المعنى ، وبيانُ
المُرادِ^(١) .

والذي أميلُ إليه من التعاريفِ السابقة هو القسمُ الأولُ من التعريفِ الذي
ذكره الإمامُ الزركشي .

فأقول: التفسيرُ هو: علمٌ يُفهمُ به كتابُ الله ، المنزَّلُ على محمدٍ ﷺ ،
وبيانُ معانيه ، واستخراجُ أحكامه وحِكَمِهِ .

وكم يعجِبُنِي التعريفُ المختصرُ للتفسير ، الذي اختاره الأمامُ محمد
الطاهر بن عاشور في مقدمة تفسيره: « التحرير والتنوير »:

٥ - قال: « التفسير: اسمٌ للعلمِ الباحثِ عن بيانِ معاني ألفاظِ القرآن ،
وما يُستفادُ منها ، باختصارٍ أو توسُّعٍ^(٢) .

ثم قال ابن عاشور: وموضوعُ التفسير: ألفاظُ القرآن ، من حيثُ البحثُ
عن مغانيه ، وما يُستنبطُ منه^(٣) .

(١) التفسير والمفسرون لللحبي: ١٥/١

(٢) للتحرير والتنوير لابن عاشور: ١١/١ .

(٣) المرجع السابق: ١٢/٤ .

المبحث الثاني

التأويل في اللغة وولاد اصطلاح

التأويل في اللغة :

التأويل مصدرٌ على وزن « ثَعْمِيل » وفعله الماضي رُبَاعِي ، وهو «أوّل» ، تقول: «أوّل يُؤوّلُ ، تأويل» .

وجذرُ الكلمة الثلاثي هو: أوّل .

قال الإمامُ ابنُ فارس عن « أوّل » :

« أوّل » أصلان ، هما: ابتداءُ الأمر ، وانتهاءه .

من استعماله في الابتداء قولك: الأوّل ، وهو مبتدأ الشيء . ومؤنثه:

أولى . وجمعه: أوائل .

ومن استعماله في انتهاء الأمر: الأيّل . وهو الذكرُ من الوعول .

وسُمي أيلاً لأنه يُؤوّل إلى الجبل ، وينتهي إليه ، ليتحصّن به .

وقولهم: آلٌ بمعنى: رجع . ولهذا قالوا: أوّل الحكم إلى أهله . أي

أرجعته ، ورُدّه إلى أهله .

و: الإيالة هي السياسة . لأنّ الرعية تُرجعُ الأمورَ وتُعيدها وتردّها إلى

راعياها . وقولهم: آلُ الحاكم رعيته: إذا أحسن سياستها .

و: آلُ الرجل: أهلُ بيته . وسُمّوا بذلك لأنّ مرجعهم ومآلهم في

الانتهاء إليه ، كما أن مرجعه ومآله إليهم لأنهم ابتداءه 11

ومن هذا الباب - الأول بمعنى الانتهاء والمرجع - قولهم: تأويلُ الكلام .
وهو عاقبته ، وما يُؤوّل ويتهي إليه ^(١) .

إن ابن فارس يرى أن « الأول » أصل في الابتداء والانتهاء .

وفي الحقيقة نرى أن هذين الأصلين متقاربان جداً ، وكانهما أصل واحد . لأنّ كلياً منهما طرفٌ في الأمر ، فالأول بدايته ، والآخرُ نهايته ،
وهو موصولٌ بين نقطتي البداية والنهاية !

إنّ الأوّلَ يتهي إلى الأخير . وإنّ الأخيرَ متصلٌ بالأوّل . فالابتداء
والانتهاء يلتقيان على هذا الأساس ، ويدلان على المرجع والانتهاء .

وقال الامامُ الراغبُ الأصفهاني في المفردات عن « الأوّل » :

الأوّل: الرجوعُ إلى الأصل .

ومنه « المُرْتَل » : وهو الموضعُ الذي يُرجعُ إليه .

والتأويلُ هو: ردُّ الشيءِ إلى الغايةِ المرادَةِ منه ، علماً كان أو فعلاً .

ومن ردُّ الشيءِ إلى غايته في العلم قوله تعالى: ﴿ وما يعلم تأويله إلا
الله ، والراسخون في العلم ﴾ ^(٢) .

ومن ردُّ الشيءِ إلى غايته في الفعل قوله تعالى: ﴿ هل ينظرون إلا
تأويله ، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل ، قد جاء رسلنا
بالحق ﴾ ^(٣) .

وقوله تعالى: ﴿ فإن تنازعتم في شئ ، فردوه إلى الله والرسول ، إن
كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ ^(٤) .

(١) مقاييس اللغة: ١/١٥٨ - ١٦٢ . باختصار .

(٢) سورة آل عمران: ٧ .

(٣) سورة الأعراف: ٥٣ .

(٤) سورة النساء: ٥٩ .

قيل إنَّ معناه: أحسنُ معنى وترجمة .

وقيل: أحسنُ ثواباً في الآخرة .

و الأول: السياسة التي تُراعي مآلها . وتلاحظُ نهايتها^(١) .

عبارةُ الراغب في معنى « الأول » أكثرُ دقةً وضبطاً . وهو: الرجوعُ إلى الأصل .

وعبارته في معنى التاويل أيضاً جامعةٌ ودالةٌ على المطلوب ، فهو: ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه ، علماً كان أو فِعلاً .

أما كلامُ ابن منظور في لسان العرب عن التاويل والأول ، فإننا ننتقي منه هذه العباراتِ المرجزة:

الأول: الرجوع . و: آله الشيء يُؤول مآلاً: إذا رجَعَ وعاد . وأولُ الكلام وتأويله: إذا دبره وقنَّره وفسَّره .

ويقال: آلتُ الشيء: إذا جمَعته وأصلحته ، فكانَ التاويلُ هو: جمع معاني الفاظ أشكلت ، بلفظٍ واضح لا إشكالٍ فيه .

والتاويل: المرجعُ والمصير . مأخوذاً من: آله إلى كذا: أي: صارَ إليه^(٢) .

بين الأول والوأل:

عرلنا أنَّ التاويل في اللغة يدلُّ على معنى: الرجوع والانتهاه والعاقبة .

وكلُّ تصريفاتٍ واشتقاقاتِ الكلمة ، يظهرُ فيها هذا المعنى .

وهذا هو الاشتقاقُ الأصغرُ لمادة « أول » ، التي تدلُّ على معنى الرجوع والانتهاه .

(١) المفردات: ٩٩ بتصرف يسير .

(٢) لسان العرب لابن منظور: ٣٢/١١ - ٤٠ .

أما الاشتقاقُ الأكبرُ لهذه الحروف الثلاثة: الهمزة والواو واللام ، فهو يقومُ على هذا المعنى .

وكما سبقَ أن لاحظنا الصلة الاشتقاقية والمعنوية بين القسْر وبين السَّر ، نلاحظُ هنا الصلة الاشتقاقية والمعنوية بين الأوّل والوَال .

الأوّل: الرجوعُ والانتهاؤ .

والوَال: المرجعُ والمنجى والملجأ .

قال ابنُ فارس عن الوَال: هي كلمةٌ تدلُّ على تجمعٍ والنجاء^(١) .

قال تعالى: ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ، لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لمن يجدوا من دونه موثلاً ﴾^(٢) .

أي: عندما يحينُ موعدُ عذابِ الله للكفار ، فسيقعُ بهم لا محالة ، ولن يجدوا موثلاً يثقلون إليه ، ولا ملجأً يلجئون إليه ، ولا مرجعاً يرجعون إليه .

قال التميميُّ الحلبيُّ في « عمدة الحفاظ » عن الموثل: « قيل هو: المرجع . وقال الفراء: الموثل: المنجى . يقال: وآلٌ زيدٌ من العذر . إذا نجا منه .

وقيل: هو الملجأ . يقال: وآلٌ فلانٌ إلى فلان . إذا لجأ إليه^(٣) .

وبين الأصلين: أوّلٌ و: وآلٌ تقاربٌ في المعنى .

فالأوّل هو: الرجوعُ إلى الأصل والانتهاؤُ إليه .

والوَال هو: الرجوعُ إلى الملجأ والنجاءُ إليه والاحتماءُ به ||

(١) مقاييس اللغة: ٧٩/٦ .

(٢) الكهف: ٥٨ .

(٣) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للميمن الحلبي: ٣١٨/١ .

التأويل في الاصطلاح:

من أدقّ التعاريف للتأويل في الاصطلاح وأكثرها ضبطاً، ما ذكره الإمام
الراغب الأصفهاني في المفردات .
قال: التأويل هو « ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه ، علماً كان أو
فعلًا^(١) .

فتأويلُ الكلام هو ردهُ إلى الغاية المرادة منه ، وإرجاعه إلى أصله ،
وإعادته إلى حقيقته التي هي عينُ المقصودِ منه .
أو بعبارة أخرى: تأويلُ الكلام هو: ردُّ معانيه وإرجاعها إلى أصلها
الذي تُحملُ عليه ، وتنتهي هي إليه .

الأصلُ أن يكون للكلام الصادقِ حقيقةً ، مرادةً منه ، وغايةً ينتهي
إليها، ومرجعٌ ومآلٌ يرجعُ إليه ، وإلا كان كذباً لا رصيدهُ له من الحقيقة .
وهذه الحقيقة التي لا بدَّ أن يُؤوَّلَ ويرجعُ إليها الكلامُ الصادقُ ، هي
عينُ المقصودِ به ، والغايةُ المرادة منه - كما قال الإمام الراغب .
والكلام إما أن يكون طلباً ، وإما أن يكون خبيراً .
فإن كان طلباً ، فقد يتضمَّنُ فعلَ شيءٍ ، وقد يتضمَّنُ تركه .

فتأويلُ الطلب هو تحقيقُ المقصودِ منه بالفعل أو الترك ، وبهذا يكونُ قد
أعادَ الكلامَ وأرجعه إلي غايته المرادة منه ، فنقُذ المطلوب منه .
وإن كان الكلامُ خبيراً ، كانت حقيقتهُ وغايته المرادة منه هي وقوعه
وحدوثه فعلاً وفق ما ورد في الكلام . ويكون تأويل هذا الخبر : تحقق
وقوعه في عالم الواقع ، وصدقُ انطباق هذا الوقوع على مضمون ذلك
الكلام .

فعندما يُؤوَّلُ الكلامُ الطلبي ، فإننا ننشدُه عملياً ، وبهذا نردهُ إلى الغايةِ

(١) المفردات: ٩٩

المرادة منه ، ونحقق حقيقته الفعلية ، فنضملُ أو نترك .
وعندما نُؤوِّكُ الكلامَ الخبري ، فإننا ننتظرُ وقوعَه فعلاً ، وبهذا نردُّه إلى
الغاية المرادة منه ، وهي حدوثه في عالم الواقع .
وهذا معنى كلام الراغب: « التاويل: هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة
منه، علماً كان أو فعلاً » .

معنيان للتاويل عند السلف:

للإمام ابن تيمية كلاً جيداً عن معنى التاويل عند السلف ، أورده في
رسالته « الإكليل في المشابه والتاويل » وما قال فيه:
« وأما التاويلُ في لفظ السلف ، فله معنيان:
أحدهما: تفسيرُ الكلامِ وبيانُ معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه .
فيكون التفسيرُ والتاويلُ عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً »^(١) .
وهذا - والله أعلم - هو الذي عناه مجاهد من أن العلماء يعلمون تاويلَ
القرآن .

ولهذا كان محمد بن جرير الطبري يقول في تفسيره: القولُ في تاويل
قوله كذا وكذا . واختلفَ أهلُ التاويل في هذه الآية . ونحو ذلك .
فإن الطبري كان مراده من التاويل التفسير .
والثاني من معاني التاويل عند السلف هو: نفسُ المرادِ بالكلام .
فإن كان الكلامُ طلباً كان تاويله: نفس الفعل المطلوب .
وإن كان الكلامُ خبراً ، كان تاويله: نفس الشيء المخبر به .

(١) انظر رسالة « الإكليل في المشابه والتاويل » لابن تيمية: ٢٦ - ٣٢ . وانظر
عرض أساتنا الدكتور أحمد حسن لرحات لكلام ابن تيمية في « التعريف بالقرآن
الكريم »: ١٠٤ - ١٠٧

الفرق بين هذين المعنيين :

وهناك فرقٌ بين هذين المعنيين:

فعلی المعنى الأول يكون التاویلُ من باب العلم ، فتاویلُ الكلام هو العلمُ بمعناه ، وهو كالتفسير والشرح والإيضاح :

ووجودُ التاویل يكون في القلب ، ودورُ اللسان في التاویل هو في التلقُّظِ والنطق .

وعلى المعنى الثاني يكونُ التاویلُ هو نفس الأمور الموجودة في الوجود والواقع . سواء كانت ماضيةً أو مستقبلية .

فعندما تقول: طلعت الشمس ، يكون تاویل قولك هو نفسَ طلوعِها .

وعلى هذا المعنى يكون تاویلُ الكلام هو وجودُ معناه وجوداً مادياً عينياً واقعياً^(١) .

وعلى هذين المعنيين للتاویل عند السلف - كما عرضهما الامام ابن تيمية - نرى أنَّ التاویل عند السلف يقسومُ على معنى الردِّ والرجوع والإعادة والانتهاؤ . وهذا هو معناه في اللغة والاصطلاح ، كما سبق أن أوردناه .

تاویلُ الكلام: ردهُ إلى حقيقته المادية وغايته الواقعية ، وهذا الردُّ نوعان:

الأول: ردُّ الكلام إلى حقيقته العلمية ، وذلك بإعادته إلى أصله ودلائله ، وحسن فهمه ، وهذا ردُّ علمي .

الثاني: ردُّ الكلام إلى حقيقته العملية ، وذلك بإدائه وفعله ، وهذا انتهاءٌ به إلى غايته الفعلية . وهذا ردُّ عملي .

وهذان النوعان داخلان في قول الراغب عن التاویل: « هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه ، علماً كان أو فعلاً » .

(١) الإكليل في المشابه والتاویل: ٢٥ - ٢٦ بتصرف في الصياغة للتوضيح .

وقد استخلصَ استاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات خلاصةً نافعةً موجزةً للتأويل ، فقال: « من كلِّ ما سبق يتبين لنا:

أنَّ الكلامَ إذا وقَّف به عند المعنى الظاهر ، كانت الغايةُ منه هذا المعنى الظاهر ، ويكون المرادُ بالتأويل هو التفسير .

وإذا كان المرادُ به تحقُّقه في عالم الواقع إن كان خبيراً ، أو تحقيقه إن كان طلباً ، كانت هذه هي الغايةُ المرادة منه . وهذا غيرُ التفسير .

وإذا تجاوزنا المعنى الظاهرَ إلى المعنى غير الظاهر ، كانت الغايةُ المرادة من الكلام ، المعنى غير الظاهر ، لدلالة القرينة على ذلك . وكان هذا تأويلاً وليس تفسيراً - باصطلاح المتأخرين - .

ويمكنُ أن يدخُل في التفسير حسب اصطلاح السلف .

وكما يجري التأويلُ في العلم والقول ، كذلك يجري في العمل ، كما وردَ في قصة موسى عليه السلام مع الرجل الصالح .

حيث رَدَّ الرجلُ الصالح الأعمالَ الثلاثة التي قام بها - خرقُ السفينة وقتل الغلام ، وإقامة الجدار - إلى الغايةِ المرادة منها ، وقال لموسى: «ذلك تأويل ما لم تطع عليه صبراً»^(١) .

(١) التعريف بالقرآن الكريم لأستاذنا الدكتور أحمد فرحات: ١٠٨ .

الفصل الثاني
التفسير ودلتا أول
في
الأسلوب القرآني

المبحث الأول التفسير والتأويل في أسلوب القرآن

لم يرذ في القرآن من اشتقاقات وتصريفات مادة « فسر » إلا كلمة واحدة ، هي « تفسير » .

و « تفسير » مصدرُ الفعل الماضي الرباعي « فسر » .

و « تفسير » لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة ، في سورة الفرقان .

قال تعالى: ﴿ وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً . وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ، وكفى بريك هادياً ونصيراً . وقال الذين كفروا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلاً . ولا ياتونك بمثل إلا جنتاك بالحق ، وأحسن تفسيراً ﴾^(١) .

ومع أن الشاهد في الآية الثالثة ، إلا أننا أوردنا الآيات الثلاثة لنعرف السياق الذي وردت فيه كلمة « تفسير » هنا .

تبيّن الآياتُ عداوة الكفار للحق ، ومحاربتهم للقرآن ، وتكذيبهم للرسول عليه الصلاة والسلام ، وإثارتهم للشبهات ضده .

الرسولُ عليه الصلاة والسلام يشكو إلى ربه كفرة قومه وهجرهم للقرآن ، فيواسيه الله عز وجل ، ويخبره أن هذه هي طريقُ الرسالات ، فكما أنه له

(١) سورة الفرقان: ٣٠ - ٣٣ .

اعداء من المجرمين ، كذلك كان للرسل السابقين أعداءً من المجرمين .
ثم تخيرُ الآياتُ عن بعض أساليب الكفار في محاربة الرسول والقرآن ،
وذلك يثارتهم للشبهات ضده . فلم يعجبهم نزول القرآن منجماً حسب
الحوادث، وطلبوا إنزاله جملةً ودفعة واحدة ، كما أنزل الله الكتب السابقة
على رسوله .

وتردُ الآية على هذه الشبهة بالإشارة إلى حكمتين من تفريق إنزال
القرآن: تثبيت قلب النبي عليه الصلاة والسلام ، والتدرج في إنزاله للتشريع
والترية .

ثم تعقبُ الآياتُ على ذلك بإيراد القاعدة العامة في مواجهة الحق
للباطل: ﴿ ولا ياتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ .

لقد تكفل الله بنصرة الحق ، ودحض الباطل ، ونقض شبهات الكفار
ضد الرسالة والرسول . ولهذا أخبر الله رسوله ﷺ بأنه معه ، فكلما يأتيه
الكفار بمثل أو شبهة أو إشكال ، فإن الله يتولى نقض ذلك ، حيث ينزل
عليه آيات من القرآن ، فيها الردُّ على اعتراضهم ، وحلُّ إشكاليهم .

والمراد بالمثل في قوله ﴿ ولا ياتونك بمثل ﴾: الاعتراضُ أو الشبهة .
فعندما طلبوا إنزال القرآن جملةً واحدة ، ضربوا التوراة والإنجيل مثلاً ،
فقالوا: لماذا لم يكن القرآن كالتوراة ، فلو كان القرآن كلامَ الله لأنزله الله
دفعاً واحدة ، كما أنزل التوراة .

﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾: ينزلُ الله آيات من القرآن ، فيها
دحضُ اعتراضهم ، ونقضُ مثلهم . وقد وصفَ الله هذه الآياتِ النازلة من
القرآن بصفتين: فهي الحقُّ ، وهي أحسنُ تفسيراً .

والحقُّ هنا في مقابلة الباطل . فالكفارُ ياتونك بمثل ، ونحنُ نأتيك
«بالحق» لنقضه ، وهذا يدلُّ على أنَّ المثل الذي ياتون به باطلٌ وداحضٌ .

وهذه الآيات النازلة في نقض مثل الكفار « أحسن تفسيراً » . أي: هي أحسنُ بياناً وتوضيحاً وكشفاً وعرضاً وحجاجاً وجدالاً .

وأفعلُ التفضيل هنا « أحسن » ليس على ظاهره . فهو لا يدلُّ على أنَّ آياتِ القرآنِ النازلة أحسنُ تفسيراً وبياناً من المثل الذي يأتي به الكفار . لأنه لا تجوزُ المقارنة أصلاً بين شبهة الكفار ، وبين نقض القرآن لها ، ولا تمدحُ القرآن عندما نقول إنه أحسنُ بياناً من كلام الكفار . وقد يَأْتِي قال الشاعر:

السَّمُ تَرَانُ السَّيْفَ يَنْقُصُ قُدْرَهُ إِذَا قِيلَ: هَذَا السَّيْفُ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا

إنَّ أفعلَ التفضيل هنا « وأحسن تفسيراً » للمبالغة في الثناء على آيات القرآن ، وبيان فضلها في ذاتها ، وحسنها في تفسيرها وبيانها .

إن كلمة التفسير في الجملة: « وأحسن تفسيراً » بمعنى: البيان والتوضيح والكشف والإظهار .

وهي تقررُ حقيقةً قرآنية قاطعة: إنَّ الأدلة والبراهين والحجج والحفائق القرآنية هي أحسنُ تفسيراً وبياناً وعرضاً وتوضيحاً ، وهي الكفيلة بدحض ونقض أباطيل وشبهات الكفار ، وعلى المسلمين فهمها واستيعابها . واستخداؤها في مواجهة أعدائهم ، ليتمكنوا من إفحامهم .

البحث الثاني التأويل في أسلوب القرآن

ورد في القرآن عدة اشتقاقات لمادة « أول » - التي سبق أن تحدثنا عن معناها .

ورد فيه من اشتقاقاتها: تأويل . آبل . أول . أولى . أوكون . أولات . أولوا .

وكل هذه الاشتقاقات يتركز فيها أساساً معنى الأول الذي ذكرناه . وهو ابتداء الشيء وانتهائه ، وإرجاعه إلى أصله ، وردّه إلى غايته .

ونريد في وقتنا هنا أن نتابع ورود كلمة « تأويل » في الأسلوب القرآني ، وأن نستخرج منها بعض اللطائف والدلالات .

وردت كلمة تأويل في القرآن سبع عشرة مرة .

وكانت لها أربع حالات:

- ١ - تأويلاً: مصدر منصوب على التمييز: مرتان .
- ٢ - تأويله: مضاف إلى الضمير الهاء: ثماني مرات .
- ٣ - تأويل الأحاديث والأحلام والرؤيا: مضاف للاسم الظاهر: خمس مرات .
- ٤ - تأويل: مجرد عن الإضافة: مرفوع أو مجرور: مرتان .

أما السورُ التي وردت فيها فكانت سبعَ سورٍ ، وهي :

- ١ - سورة يوسف: وردت فيها ثماني مرات .
- ٢ - سورة آل عمران: وردت فيها مرتين .
- ٣ - سورة الأعراف: وردت فيها مرتين .
- ٤ - سورة الكهف: مرتين .
- ٥ - سورة النساء: وردت فيها مرة واحدة .
- ٦ - سورة يونس: وردت فيها مرة واحدة .
- ٧ - سورة الإسراء: وردت فيها مرة واحدة .

المطلب الأول مع التأويل في سورة يوسف

قلنا إنَّ التأويل وردَ في سورة يوسفَ لعانيَ مراتٍ من عددٍ مراتٍ وروده السبع عشرة مرةً في القرآن . أي: نصفُ مراتٍ وروِدِ التأويلِ في القرآن تقريباً كان في سورة يوسف .

ولعلَّ الحكمة اللطيفة في هذا أنْ ، سورة يوسف ذكرتُ قصة يوسف عليه الصلاة والسلام من بدايتها إلى نهايتها . حيث بدأتُ بالحديث عن رؤيا رآها يوسفُ عليه الصلاة والسلام في المنام وهو صغير ، ثم تابعتُ أحداثُ قصته عشراتَ السنين ، مرَّ فيها يوسفُ عليه السلام بكثيرٍ من العقباتِ والمفاجآتِ والتطورات ، وخُتمتُ قصتهُ في آخر آياتِ السورة ، بتحقيقِ الرؤيا التي رآها وهو صغير ، ووجودها في عالم الواقع !

ثم إنَّ الله خصَّ يوسفَ عليه الصلاة والسلام بعلمِ « تأويل الأحاديث » ، وتعميرِ الرؤيا، وعرضتِ السورة أمثلةً لرؤى واحاديث أولها يوسفُ عليه السلام.

واللطيفُ في الأمر إنَّ آياتِ سورة يوسفَ ذكرتُ لنا ثلاث رؤى منامية ، وذكرتُ لنا تأويلها:

الرؤيا الأولى: رؤيا يوسف وهو صغيرٌ سجود الكواكب له .

الرؤيا الثانية: رؤيا كلِّ من الشخصين السجينين ، اللذين كانا مع يوسف عليه السلام ، وتأويله لرؤيا كلِّ منهما .

الرؤيا الثالثة: رؤيا الملك للبقرات السمان والعجاف، وتأويلُ يوسف لها .

فالسورة كلها تقومُ على تأويل الأحاديث ، وتعمير الرؤى والمنامات ، وتظهرُ علم يوسف الخاصُّ بهذا التأويل .

نص الآيات:

١ - لما رأى يوسفُ رؤياه وهو صغير، وأخبر أباه بها ، طلبَ أبوه منه
علمَ إخبارٍ أحدهُ بها .

قال تعالى: ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ،
ويتم نعمته عليك ﴾^(١) .

٢ - دخلَ يوسفُ عليه الصلاة والسلام مرحلةً جديدةً من أحداثِ قصته،
حيث اشتراه عزيزُ مصر ، وطلب من امرأته إكرامَ يوسف ، وهذا تمهيدٌ
لإظهارِ علمه بتأويل الأحاديث .

قال تعالى: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولتعلمه من تأويل
الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾^(٢)

٣ - عندما أدخل يوسف عليه السلام السجنَ ظلماً ، دخل معه السجنَ
سجيتان ، ولما كانا في السجن ، رأى كلُّ منهما رؤيا ، فطلبا من يوسف
تأويلها:

قال تعالى: ﴿ ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما: إني أراني
أعصر خمراً ، وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً ، تأكل
الطير منه ، نبأنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين ﴾^(٣) .

٤ - أظهرَ يوسفُ عليه السلام للمسجينين علمه بتأويل الأحاديث ،
واستشرافِ المستقبل ، وأخبرهما أن الله علمه ذلك .

قال تعالى: ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه ، إلا نبأكما بتأويله ، قبل
أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي ﴾^(٤) .

(١) سورة يوسف: ٦ .

(٢) سورة يوسف: ٢١ .

(٣) سورة يوسف: ٣٦ .

(٤) سورة يوسف: ٣٧ .

٥ - بينما كان يوسفُ سجيناً ، رأى ملكُ مصرَ رؤيا مزعجة ، فطلبَ من خبرائه ومستشاريه تعبيرَها وتأويلها ، فأخبروه أنها أضغاثُ أحلام ، ولاعلم لهم بتأويلها .

قال تعالى: ﴿ وقال الملك: إني أرى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وآخر يابسات . يا أيها الملا اقتوني لي رؤياي ، إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحكام بعالمين ﴾^(١) .

٦ - لما رأى الشخصُ الخارجُ من السجن - وهو أحدُ حاشية الملك - عجزَ الملا عن تعبير رؤيا الملك ، تذكّر علمَ يوسف بتأويل الرؤيا ، وطلبَ إرساله إلى يوسف ، فأخبره بها ، وأوكلها يوسف له .

قال تعالى: ﴿ وقال الذي نجا منهما ، وادكرّ بعد أمة ، أنا أنبئكم بتأويله فارسلون . يوسف أيها الصديق: أفنتا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر ، وآخر يابسات ﴾^(٢) .

٧ - في المشاهدِ الأخيرة من قصة يوسف عليه السلام ، تحققت رؤياه التي رآها وهو صغير ، وتأولت عملياً . فهو الآن عزيزُ مصر ، وقد دخل عليه أبواه وإخوته الأحد عشر ، وسجدوا كلهم له .

قال تعالى: ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل . قد جعلها ربي حقاً ﴾^(٣) .

٨ - ختم يوسفُ عليه الصلاة والسلام قصته التي تقومُ على علمه بتأويل الأحاديث ، بشكره لله الذي علمه ذلك ، وطلبه منه أن يبيته على الإسلام .

(١) سورة يوسف: ٤٣ - ٤٤ .

(٢) سورة يوسف: ٤٥ - ٤٦ .

(٣) سورة يوسف: ٩٩ - ١٠٠ .

قال تعالى: ﴿ رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توخيتني مسلماً ، والحقني بالصالحين ﴾^(١) .

خلاصة ذكر التأويل في سورة يوسف ، أن للمرأتِ الثمانية التي ذكرت فيها مقسمة على الرؤى الثلاثة:

رؤيا يوسف عليه السلام وعلمه بتأويل الأحاديث: أربع مرات .

رؤيا السجينين ، وتأويلُ يوسف لها: مرتان .

رؤيا الملك ، وتأويلُ يوسف لها: مرتان .

وتنظرُ في هذه الرؤى الثلاثة ، وتأويل يوسف لها ، كلُّ واحدة على حدة ، لتعرف المراد بالتأويل في هذه الرؤى .

تأويل رؤيا يوسف:

أراد الله إكرامَ يوسف عليه السلام وهو صغير ، فأراه رؤيا ذات دلالة ، رأى في منامه سجودَ أحدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر له ، ولم يفهم يوسفُ عليه السلام عن مغزى رؤياه شيئاً لصغر سنه ، ولكن والده يعقوب عليه السلام علمَ مغزى الرؤيا ، وإشارتها إلى مستقبل إيماني زاهر ليوسف ، فلفتَ نظره إلى هذا المستقبل ، ودعاهُ إلى استشرائه .

قال تعالى: ﴿ إذ قال يوسف لأبيه إني رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال: يا بني لا תקصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيداً . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتئيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك ، وعلى آلِ يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل لإبراهيم وإسحاق . إن ربك عليم حكيم ﴾^(٢) .

(١) سورة يوسف: ١٠١ .

(٢) سورة يوسف: ٤ - ٦ .

لقد استشفَّ يعقوبُ النبيُّ عليه السلام، من الرؤيا التي أراها الله لابنه الصغير، أنها دالةٌ على تخصيصِ الله ليوسف بعلمِ تعبِيرِ الرؤى، وتأويلِ الأحاديث.

والمرادُ بالأحاديث في قوله: ﴿ ويعلمك من تأويلِ الأحاديث ﴾ الرؤى التي يراها الرءاؤون في منامهم ، ولا أقولُ الأحلام التي يحلمُ بها النَّائمون، لأنَّ الأحلامَ قد لا تكون صادقة ، فقد تكون أضغاثَ أحلام ، قائمةً على الكوائيس والهلوسات . أما الرؤى فهي إشاراتٌ من الله ، لها إحياءات ودلالات ، ولها أبعادٌ واقعيةٌ حقيقية .

وسُميتْ هذه الرؤى « أحاديث » لأنَّ فيها معنى الحدوث .

قال الإمام الراغب في المفردات: « الحدوثُ: كون الشيء بعد أن لم يكن ، عَرَضاً كان ذلك أو جوهرأ ... ويقالُ لكلِّ ما قَرِبَ عهدُهُ مُحدَثٌ، فعلاً كان أو مقالاً .. والحديث: كلُّ كلامٍ يبلغُ الإنسان ويصلُ إليه ، من جهةِ السمع أو الوحي ، في يقظته أو منامه . . . ومعنى قوله: ﴿ وعلمتني من تأويلِ الأحاديث ﴾: ما يُحدَثُ به الإنسانُ في نومه...^(١) .

وهذه الأحاديثُ المناميةُ التي تحدثُ للنائم أثناء نومه ، ويحدثُ هو بها تحتاجُ إلى تعبِيرٍ وتأويلٍ .

وتعبيرُ الرويا هو تأويلها، أي: بيانُ بُغْيِها الواقعي ، وصورتها المادية الحسية في عالم الواقع .

وسُمي تفسِيرُ الرؤيا تعبيراً . قال تعالى: ﴿ يا أيها الملا اقتنوني في رؤياي ، إن كتمتم للرؤيا تعبرون ﴾^(٢) .

قال الراغبُ في معنى التعبير هنا: « أصلُ العبْر: تجاوُزٌ من حالٍ إلى

(١) للمفردات: ٢٢٢ - ٢٢٣ . باختصار .

(٢) سورة يوسف: ٤٣ .

حال . فاما العبورُ فيختصُّ بتجاوزِ الماء .

والتعبيرُ مختصُّ بتعبيرِ الرؤيا ، وهو العابرُ من ظاهرها إلى باطنها: ﴿وَإِنْ كَتَمَ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ .

والتعبيرُ أخصُّ من التأويل . لأنَّ التعبيرَ لا يُطلقُ إلا على تعبیرِ الرؤيا .
أما التأويلُ فيستعملُ في تعبیرِ الرؤيا وتأويلها ، ويُستعملُ في غيرها ^(١) .

إنَّ الذي يُؤوِّكُ الرؤيا ويُعبِّرُها ، كانه يُعبِّرُ من ظاهرها الذي يراه . النَّائمُ أثناءَ نومه ، إلى باطنها ، وهو صورتها الفعلية الواقعية ، التي ستتحققُ لها في ما بعد في الواقع .

وهذا عبورٌ وتجاوزٌ منه ، من ظاهرها النامي ، إلى باطنها الحقيقي الواقعي .

تعبيرُ الرؤيا: عبورٌ بها من الظاهر النامي إلى الباطن الواقعي .

وتأويلِ الرؤيا: ردُّ صورتها الظاهرية النامية ، إلى حقيقتها المادية الواقعية ، ورجوعُ بها إلى حقيقتها ، وانتهاءُ بها إلى نهايتها الحسية ، وبيانُ انطباقها على الواقع ، وذكرُ مآلها ومصيرها .

النائمُ في منامه يرى رؤيا ، وهذه الرؤيا وعدُّ أو وعيدٌ من الله ، أو إشارةٌ وتنبؤٌ وإرشادٌ منه .

وهذا الوعدُّ أو الوعيدُ نظري ، ولا بد أن يكون له غايةٌ مُرادَةٌ منه ، وواقعٌ يتحققُ فيه ، ونهايةٌ فعليةٌ ينتهي إليها .

فالتأويلُ عندما يُؤوِّكُ الرؤيا يفهمُ إشارتها ، ويعلمُ المراد منها ، وعند ذلك يردُّها إلى هذه الغاية الفعلية ، ويذكرُ لصاحبها ما سيحدثُ له في المستقبل .

وتأويله النظري لها ، وذكره لما ستكون عليه في المستقبل ، وعدُّ أو وعيدٌ بما سيقعُ لصاحبها من أحداث .

(١) الفردات: ٥٤٣

وبعد ذلك: تقع الأحداث حسب ما رأى الرائي في منامه ، وحسب ما عيَّرها له المعبر، وأولها له المأوئ . ويكون وقوع الأحداث فعلاً هو تأويل لها، أو هو ردُّ عمليٍّ للرؤيا من صورتها النظرية المتنامية إلى غايتها المادية العملية .

كيف أوَّلت رؤيا يوسف ؟

فهم يعقوبُ عليه السلام إيحاءً وإشارة رؤيا ابنه ، وعيَّرها له بأنَّ الله سيحييه، ويعلمه تأويل الأحاديث وتعبير الرؤى ، وردُّ هذه الرؤى المتنامية إلى غايتها المادية الواقعية الحقيقية .

لكن كيف سيكون ذلك ؟ ومتى سيكون ذلك ؟ وأين سيتمُّ تأويل رؤيا يوسف ؟ وما حقيقة سجود الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ؟

لم يقل يعقوبُ عليه السلام لابنه عن ذلك شيئاً ، ولعله لم يكن هو يعلمُ من تفاصيل ذلك شيئاً ، كما يبدو من تتابع مشاهدٍ ولقطاتٍ قصة يوسف !!

الله وحده هو الذي يعلمُ ذلك، وهو الذي يُقدِّر الأشياء، ويُرتب الأحداث، ويسوق الحوادث، لتصبُّ في هذا الميدان، ويتحقق بذلك مرادُه سبحانه .

سيسجدُ ليوسف عليه السلام أبواه وإخوانه الأحد عشر ا

لذلك قدَّرَ اللهُ أن يتأمر عليه إخوته ، وأن يُلقوه في البئر ، وأن تاتي القافلة إليه ، وأن تحمله معها إلى مصر ، وأن يشتريه عزيزُ مصر ، وأن يمتِّره فتى ورقيقاً عنده ، وأن يوصي به امراته . وأن تراوده تلك المرأة عن نفسه ، وأن يستعصم يوسفُ عليه السلام . وأن يتأمر عليه رجال الدولة . وأن يسجنوه مظلوماً بضع سنين .

قدَّرَ اللهُ أن يكون معه سجينان في السجن، وأرامهما اللهُ رؤيا ، وعلم

يوسفَ تأويلها . وقدئذَ اللهُ أن يتجوَّ أحدهما، وأن يعودَ إلى حاشيةِ الملك .
وقدئذَ اللهُ أن يعجزَ رجالُ الملك عن تفسيرِ وتأويلِ رؤياه ، وعلمَ يوسفَ
تعبيرَها، وقذفَ اللهُ في قلبِ الملك الإعجابِ بيوسفَ ، ومكَّن له عند
الملك ، وسلمه الملك خزائن الأرض بقدرِ اللهُ ، وحكم يوسفُ مصرَ
السنوات الخصبه والسنوات العجاف ا

وقدئذَ اللهُ أن يأتيَ إخوته إليه - وهم لا يعلمون أنه يوسف - طالين منه
الطعام، وكادَ اللهُ ليوسفَ، ورتب مع إخوته بَرْتِيَاتٍ خاصة، أدَّت بهم إلى
معرفة في النهاية ، وأن عزيزَ مصر الذي يقفون أمامه الآن بِلدَّة ومسكنه،
هو أخوهم الصغير الذي وضعوه في البئر قبلَ عشراتِ السنين!! .

رَبَّ اللهُ هذه الأحداث ، وساقَ هذه الحوادث، بحكمته وقلته سبحانه،
وأدَّت في النهاية إلى تأويلِ رؤيا يوسف، التي رآها قبلَ عشراتِ السنين .
وجاءَ اللهُ بإخوته وأبيه من بلدِ فلسطين إلى مقرِّه في عاصمةِ مصر،
ودخلوا عليه .

سجدَ ليوسف إخوته الأحد عشر ، وسجدَ له أبوه وأمه .

وبذلك تمَّ تأويلُ رؤيا يوسف: فالأحد عشر كوكباً الذين سجدوا له في
المنام هم إخوته الأحد عشر ، والشمسُ والقمرُ اللذان سجدوا له في المنام
هما أبوه وأمه .

لقد كان سجودُ أبويه وإخوته له ، بعد عشراتِ السنين من رؤياه تأويلاً
لتلك الرؤيا .

أي: كان تحقيقاً عملياً للوعدِ الذي ساقه اللهُ عن طريق تلك الرؤيا ،
وكان السجودُ الفعليُّ الواقعيُّ يساناً لنهايةٍ ومرجعٍ ومآلِ تلك الرؤيا ،
وإظهاراً لصورتها الفعليةِ العمليةِ الواقعيةِ التي انتهت إليها، واستقرت عليها .

أليس هذا هو معنى التاويل الذي ذكرناه ؟ ألم ينطبقَ على هذا قولُ
الراغبِ الأصفهاني في تعريفه للتاويل: « هو ردُّ الشيء إلى غايته المرادِةِ

منه ، علماً كان أو فعلاً ؟ .

لذلك أعلن يوسفُ لآبيه عليهما السلام ، عندما سجدا له فعلاً ، أن هذا هو تأويلُ رؤياه: ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ، وجاء بك من البدو ، من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي . إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم .. ﴾^(١) .

﴿ هذا تأويل رؤياي ﴾: هذا وقتُ بيانِ العاقبة والمآل والنهائية لرؤياي التي رأيتها قبل عشرات السنين. الآن تمَّ تأويلها، عندما تحققت صورتها العملية المادية !

﴿ قد جعلها ربي حقاً ﴾: قد حققَ لي ربي ما وعدني به في تلك الرؤيا، فقد وعدني فيها بإسجادِ أبيّ وإخوتي لي، ووعدُ الله نافذ، وخيرُ الله واقعٌ محقق، فالآن حققهُ اللهُ لي، ورأيتُ الصورة الفعلية النهائية لذلك الخبر النظري!!

يوسف يؤول رؤيا السجينين:

لما سُجن يوسفُ عليه السلام ظلماً ، دخلَ معه السجن رجلان من حاشية الملك ، غضبَ عليهما الملك فسجنهما ، وهناك في السجن أتسا بيوسف وأعجبا به ، ورأى كلَّ منهما رؤيا ، وطلبا من يوسف تأويلهما، فقدمَ لهما عقيدته ، وعرفهما على دينه وإيمانه ، ثم قامَ بتأويل لكل واحد منهما رؤياه ، وتحققت رؤياهما في عالم الواقع ، كما أولهما لهما .

قال تعالى: ﴿ ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما: إني أراني أعصر خمراً . وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نشنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين . قال: لا يأتيكما طعام ترزقانه

(١) سورة يوسف: ١٠٠ .

إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتیکما ، ذلكما مما علمني ربي ، إني تركت
ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كالفرون ﴿^(١)﴾ .

وقال تعالى: ﴿ يا صاحبي: أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ، وأما الآخر
فيصلب ، فتاكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان . وقال
للذي ظن أنه ناج منهما: اذكرني عند ربك . فأنساه الشيطان ذكر ربه ،
فلبت في السجن بضع سنين . ﴿^(٢)﴾ .

كانت رؤيا أحد السجينين: أنه رأى نفسه وهو يعصرُ خمراً .
وكانت رؤيا الآخر: أنه رأى نفسه يحملُ خبزاً فوقَ رأسه ، وإن الطيرَ
تأتي تاكلُ منه ، وهو على رأسه .

وكان تأويلُ رؤيا السجين الأول: أن الملكَ سيفرج عنه ، وسيخرجُه من
السجن ، وسيعيدهُ إلى خدمته ، وسيعصرُ خمراً فعلاً . ثم يسقيه الملك:
﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾ .

وكان تأويلُ رؤيا السجين الآخر: أن الملكَ سيغضبُ عليه ، ولن يعفوَ
عنه ، بل سيأمرُ بقتله وإعدامه ، وسيقتلُ فعلاً ، ويصلبُ ، وتأتي الطيرُ
فتاكلُ من لحم رأسه: ﴿ وأما الآخر: فيصلب ، فتاكل الطير من رأسه ﴾ .
وقد وردت كلمة « تأويل » مرتين في هذه الآيات:

فبعد أن أخبره السجينان بروايهما قالوا له: ﴿ نبئنا بتأويله ، إنا نراك من
المحسين ﴾ .

وردَ عليهما بالإشارة إلى علمه بالتأويل ، فقال: ﴿ لا يأتیکما طعام
ترزقانه إلا نباتكما بتأويله ، قبل أن يأتیکما ، ذلكما مما علمني ربي ﴾ .
وفي قولهما له: ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ وردَ التعبيرُ بالضمير المذكرُ « الهاء »

(١) سورة يوسف: ٣٦ - ٣٧ .

(٢) سورة يوسف: ٤١ - ٤٢ .

فقالا: « بتأويله » وليس: بتأويلها . مع أن الكلامَ عن الرؤيا ، ويكون الضميرُ العائدُ على الرؤيا مؤنثاً .

والمرادُ: نبثنا بتأويل المنام ، أو: نبثنا بتأويل الكلام الذي ذكرناه لك .

وتأويلُ الرؤيا هنا: هو ردُّ الرؤيا المنامية إلى حقيقتها الواقعية ، وبيانُ مصيرها ومآلها المادي ، وذكرُ ما تنتهي إليه هذه الرؤيا ، وتستقرُّ عليه ، في مستقبل حياة السجين ، وتحديدُ مدلولها العملي .

ولمآدُ عليهما يوسف عليه السلام أخبرهما بعلمه بتأويل الرؤيا ، وطمأنتهما إلى قيامه بذلك في أسرع وقت ، ولكنه أراد أن يُقدِّمَ لهما دعوته ، وأن يعرفهما على دينه ، وأن يذكِّرَ لهما كفرَ قومهما ، وأن يجعلَ هذا كله تمهيداً لتأويل الرؤيا .

فقال لهما: ﴿ لا يأتكما طعام ترزقانه إلا نبأكما بتأويله قبل أن يأتكما ، ذلكما مما علمني ربي ﴾ .

ليس الكلامُ عن تأويل أصنافِ الطعام - كما فهم كثيرٌ من المفسرين - فإن يتوقعُ أصنافاً معينةً للطعام ، ثم تأتي الأصنافُ كما توقعه وحده ، ليس تأويلاً للطعام ، لأنَّ المؤزَّوَر هو الذي يأتي بالطعام فعلاً ، وليس الذي توقعه ، إنَّ الذي يقدِّمُه ويأتي به هو الذي يحققُ صورته للمادية الحقيقية .

إنما أرادَ يوسفُ عليه السلام أن يطمئنهما على تأويله لرؤياهما، وأن يؤكدَ لهما ذلك ، فآخبرهما أنه سيقومُ به بأقرب وقت ، لكنه يريدُ أن يحدِّثهما قبل تأويل الرؤيا عن الإيمانِ والتوحيدِ والشرك .

قال لهما: لا يأتكما طعامٌ ترزقانه ، ولا تصلكما وجبة الطعام القادمة المحددة ، إلا آسوفٌ قد نبأكما بتأويل المنام والكلام والخبر ، قبل وصولِ ذلك الطعام إليكما .

والضميرُ في « بتأويله » يعودُ على ما عاذه عليه الضميرُ نفسه في قولهما له: « نبئنا بتأويله ». أي: نبأناكما بتأويل المنام والتخبر والكلام ، قبل أن يأتكما ذلك الطعام .

هذا هو المعنى ، والله أعلم .

يوسف يؤول رؤيا الملك :

الرؤيا الثالثة في سورة يوسف ، التي قام يوسف بتأويلها هي رؤيا الملك . فقد رأى الملكُ رؤيا ، ثم طلبَ من الذين حوله تعبيرها ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ، فتذكرَ أحدُ رجالِ حاشية الملك ، الذي كان سجيناً مع يوسف ، علمَ يوسف بتأويل الرؤيا ، لأنه أوكدَ له رؤياه ، فتحققت كما أوكدَها ، فطلبَ منهم إرساله إلى يوسف لتأويلها ، ولما أخبره بها ، قام يوسف بتأويلها .

قال تعالى: ﴿ وقال الملك: إني أرى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وآخر يابسات ، يا أيها الملا اقتوني في رؤياي ، إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا: أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذي نجا منهما ، وادكر بعد أمة ، أنا أنبئكم بتأويله فآرسلون . يوسف أيها الصديق: أفنتا في سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وآخر يابسات ، لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال: تزرعون سبع سنين داباً ، فما حصدتم فلروه في سنبله ، إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلاً مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام ، فيه يغاث الناس ، وفيه يعصرون ﴾^(١) .

أرادَ الملكُ تأويلَ رؤياه . فقد رأى في منامه رؤيا ، وهذه الرؤيا مُشيرٌ

(١) سورة يوسف: ٤٣- ٤٩ .

إلى أحداثٍ عمليةٍ فعليةٍ ستحدثُ له ولقومه في المستقبل ، فما هي هذه الأحداث ؟ ، ومن سيقدر على بيان انطباق المناظر النامية التي رآها الملك على الواقع ؟ ومن سيقدرُ على ردِّ هذه المناظر إلى صورتها المادية الفعلية النهائية ؟ .

وهذا هو معنى التأويل ، الذي يتحققُ في ردِّ الأمور النظرية إلى نهاياتها الواقعية ، وتحديدِ مآلها ومصيرها الفعلي .

عجزَ رجالُ الملك وكهنته وسحرته عن تأويل رؤياه . وقالوا له : أضغاث أحلام . وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

والأضغاثُ : جمع « ضيْث » . وهي الأمورُ المختلطة المتشابكة المتداخلة .

ومعنى قولهم للملك : أضغاثُ أحلام : أن ما رأيته من تلك المناظر النامية ، إنما هي صورٌ مختلطة ، ولقطاتٌ متداخلة ، وهي متشابكة في خيوطها وخطوطها والوانها ، بحيث يستحيلُ تحليلها وفصلها و « فرزها » وتفريتها ، وتحديدُ كلِّ صورةٍ منها وتمييزها عن أخواتها .

ونظراً لما بينَ هذه الأحلام من تشابكٍ واختلاط ، فنحن لا نقدرُ على فصلها ، ولا علمٌ لنا بتأويلها .

ومعنى قولهم : ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ : أننا عاجزون عن بيان حقيقة هذه الأحلام ، وعن تحديدِ مدلولها العملي ، وعن ردِّ مدلولها النظري إلى نهايته العملية ، ومآله الواقعي .

إننا عالمون بتعبير الأحلام ، ونقدرُ على تحديدِ بُعدها الفعلي ، عندما تكون أحلاماً بسيطةً ، صورُها ومناظرُها منفصلة . أما عندما تكونُ أضغاثَ أحلام متداخلةً مختلطةً متشابكةً ، فَعِلْمُنَا عاجزٌ عن تفريقها وفرزها وتفكيكها !!

ولما أقر الكهنة بعجزهم عن تأويل رؤيا الملك ، تذكر ذلك الرجل يوسف ، وتذكر علمه بتأويل الرؤيا ، ذلك العلم الذي علمه إياه ربه ﴿ذلكما مما علمني ربي﴾ ، وهذا معناه أنه لن يعجز عن تأويل رؤيا الملك ، وأن علمه الرباني سيقدّر على إزالة تداخلها ، والقضاء على اختلاطها ، وفرزها وتفكيكها ، وإدراك حقيقتها الفعلية ، وردّها إلى نهايتها العملية ، وتحديد بُعدها المادي الحسي !

لهذا خاطب قومه قائلاً: ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فارسلون ﴾ .

ودهب إلى يوسف في سجنه ، وقص عليه رؤيا الملك ، وقدر يوسف على إدراك حقيقة الرؤيا ، وأزال ما فيها من ضيق وتداخل وتشابك واختلاط . وتمكّن من فرزها وتفكيكها .

عند ذلك تمكّن يوسف من ردّ هذه المناظر إلى حقيقتها المادية ، وتحديد نهايتها الفعلية: إنها سبع سنوات غيب ورخاء وزرع وإنتاج ، تعقبها سبع سنوات من القحط والمحل وانحباس الأمطار وهلاك الزروع . وبعد ذلك تأتي سنة خصيب وغيث ، وهي السنة الخامسة عشر من هذا الزمن .

يوسف عالم بتأويل الأحاديث :

بعد ما عرفنا تأويل يوسف للرؤى الثلاثة: رؤياه ، ورؤيا السجينين ، ورؤيا الملك ، نقف على الحكمة من تكرار ﴿ تأويل الأحاديث ﴾ ثلاث مرات في سورة يوسف .

قال له أبوه يعقوب عن رؤياه: ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك ﴾^(١) .

وبعد ما استقر يوسف في بيت العزيز في مصر ، قال الله: ﴿ وكذلك

(١) سورة يوسف: ٦ .

«كنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون»^(١) .

ولما تحققت رؤيا يوسف بعدَ عشرات السنين، وصارَ عزيزَ مصر ، واجتمع شمله مع اخوته ، جاءت خاتمة قصته بتوجهه إلى ربه بالشكر: ﴿رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث ، لاطر السموات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً وأحقني بالصالحين﴾^(٢) .

لماذا كُتبت ﴿تأويل الأحاديث﴾ ثلاث مرات في السورة؟

لقد عاشَ يوسفُ في منطقتين: في البدو من أرض فلسطين. ثم في مصر.

وسيكون انتقاله القسريُّ إلى مصر تمهيداً لتدرُّجه في مكانته في مصر ، وسيبقى يرتقي بالتدرُّج ، حتى يصلَ إلى أعلى مركز ، وهو «العزيز» . وبهذا تُختَمُ حياته عليه الصلاة والسلام .

قول يعقوب له: ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ وعُدَّ نظرياً من الله - عن طريق أبيه عليه السلام - وعُدَّ بتحقيق شيء في المستقبل ، كانه قال له: وسوفَ يعلمك ربُّك من تأويل الأحاديث .

وكانت الخطوة الأولى من تحقيق هذا الوعدِ الرباني ، أن الله قدَّرَ أن يَجريَ له ما جرى ، حتى يصيرَ عبداً مملوكاً في بيت عزيز مصر ، وهناك يوصي به العزيزُ امرأته، ويقول لها ﴿أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا ، أو نتخذه ولداً﴾ .

إن الله هو الذي ألهمَ عزيزَ مصر الاهتمامَ الخاصَّ ، بهذا العبدِ الفتى

(١) سورة يوسف: ٢١ .

(٢) سورة يوسف: ١٠١ .

لماذا اللهم الله العزيز بذلك ؟ ولماذا مكّن الله ليوسف في بيت العزيز؟
لتتحقق المرحلة الأولى ، في الطريق التي سيقطعها يوسف ، من خلال
تأويل الأحاديث ، ولتحقق وعدّ الله له بذلك في النهاية: ﴿ وكذلك مكنا
ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ .

واللأم في « لتعلمه » للتعليل ، أي: لبيانِ حكمةِ الله في تقدير ما
جرى ليوسف ، حتى استقرّ في بيت العزيز

وكلمة « لتعلمه » وعدّ من الله بتعليم يوسف تأويل الأحاديث ، هذا
التأويل الذي سيصل به يوسف إلى أعلى مركز ، وهو « عزيز مصر » .

وفعلًا علم الله يوسف الرؤيا ، وقام بتأويل رؤيا السجينين ، الذي
أوصله إلى تأويل رؤيا الملك ، الذي قاده إلى مركز العزيز ، حيث أدى
ذلك - بعد أحداثٍ متتاليةٍ ومفاجآتٍ مشيرة - إلى قدوم أهله إليه ،
وسجودهم بين يديه ، وبذلك تحقّق وعدّ الله ، وتمّ تأويل رؤياه:

﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً ﴾ .

وفي آخر الأمر ، أعلن يوسف عليه السلام فضل الله عليه ، واعترف
بتعليم الله له ، وصرّح بعلمه بتأويل الأحاديث: ﴿ وعلمتني من تأويل
الأحاديث ﴾ . ولهذا كانت معجزة يوسف عليه الصلاة والسلام تقوم على
علمه بتأويل الأحاديث ، وتعبير الرؤى .

﴿ يعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ : وعدّ سيحقق في المستقبل .

﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ : خطوة أولى على طريق تحقيق الوعد .

﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديث ﴾ : اعتراف صريح بتحقيق ذلك الوعد .

وحقّق الله ليوسف ما وعد به ، لأن الله لا يخلف الميعاد: ﴿ والله
غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

المطلب الثاني مع التأويل في سورة الكهف

وردَ التأويلُ مرتين في سورة الكهف ، في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام .

فلما قابلَ موسى الخضرَ عليهما السلام ، طلبَ منه أن يصحبه ليتعلمَ منه ، فأخبره الخضر أنه لن يصبرَ على الرحلةِ معه ، ولن يسكتَ على ما سيُشاهدُ من أعمالٍ يعملها الخضر ، لأن ظاهرها يدعو إلى رفضها وإنكارها ، وموسى لا يعلم حقيقتها ولا خبرها ، فوعده موسى أن يصبرَ ويطيعَ الخضر ، فاشتراطَ الخضرُ عليه أن لا يسأله عن شيء ، وأن لا يعترض على ما سيرى ، وأن يتنظرَ ما سيُبَيِّنُه الخضرُ له .

فاتفقا على ذلك ، وانطلقا في الرحلة |

سارا على شاطئ البحر ، وأرادا ركوبه ، فمرت بهما سفينة ، فعرفا أصحابَ السفينة الخضر ، فأكرموهما ، وأركبوهما دون أجر . فلما ركبا السفينة ، أخذ الخضرُ لوحاً خشبياً منها فقلعه ، وخرقَ السفينة . فاعترضَ عليه موسى ، وقال له : إنهم أكرمونا وأركبونا بغير أجر ، أهكلنا تكافؤهم ونجازهم ؟ إنك بخرقتها ستفرقُ أهلها ، وإن ما فعلته شيءٌ كبيرٌ فظيعٌ |

أمامَ اعتراض موسى على فعل الخضر ، ذكره بشرطه عليه ، وإخباره أنه لن يستطيعَ الصبرَ معه ، ولا السكوتَ على أعماله ، فاعتذر موسى عن اعتراضه ، واعتبره من باب النسيان |

وسارا في الطريق . ولقيا غلاماً يلعبون ، فتوجه الخضرُ إلى أحدهم ، فاقطع رأسه بيده وقتله | فاستغرب موسى ، وتساءل : ما ذنبُ هذا الغلام الصغير؟ واعتراضَ على الخضر قائلاً : اقتلتَ نفساً زكيةً بغيرِ نفسٍ ؟ لقد

فعلتُ أمراً يدعو إلى الإنكار . فلذكَرَه الخضرُ بعهدِه معه ، عند ذلك أخبره موسى أنه إن اعترضَ على فعلِه بعدما فلا يصاحبه .

وسارا معاً ، حتى أتيا قرية ، أهلها بخلاء ، فطلبوا منهم الطعام ، فأبوا أن يطلعموهما أو يضيّفوهما . ورأى الخضرُ في القريةِ جداراً على وشك السقوط ، فأصلحه وأقامه وبنّته .

فاعترضَ عليه موسى بأنّ القوم لا يستحقون التكريمَ والخدمة لبخلهم ، والأولى أن يأخذ منهم أجرَةً مقابل إصلاحه الجدار .

وبعد هذه الاعتراضاتِ من موسى على أعماله الثلاثة ، أنهى الخضرُ الرحلة ، وقال له : هذا فراقُ بيني وبينك .

ولم يشأ الخضرُ أن يُبقي موسى في حيرته ودهشته من الأعمال الثلاثة ، التي لم يصبِرْ موسى عليها ، فاعترضَ على الخضر في فعلها .

فأولَ الخضرُ لموسى أعماله الثلاثة ، وأراه حقيقتها والحكمة منها ، وردّ له صورتها الظاهرية التي اعترض عليها موسى إلى باطنها الحقيقي الخفي ، الذي لا يدعو إلى الاعتراض والإنكار .

فخرقُ السفينة في ظاهره مرفوض يدعو للإنكار ، لكنّ حقيقته تدعوني إلى فعله ، فإنا ما خرقتها لأخرق أهلها ، إنما خرقتها لأحميها من المصادرة والغصب ، إن أصحابها مساكين محتاجون لا يملكون غيرها ، وكان أمانهم ملكٌ ظالمٌ منتصب ، يُصادر ويُستولي على كل سفينةٍ سالمة ، فأردتُ بهذا الخرقِ نجاتَ السفينة من المصادرة ، لأنه سيرها معيّةً مخروقةً هذه حقيقة فعلية ، وهذا هو تأويله !! .

وقتلُ الغلام في ظاهره مرفوض يدعو للإنكار ، لكن حقيقته تدعوني إلى فعله ، إنه صغيرٌ نعم ، ولكنه عندما يكبرُ سيكون كافراً ، وسيُعبأ ويُرهقُ أبويه المؤمنين ، فقتلته لأريحَ أبويه ، وإن الله سوف يعوضهما عنه ، ويرزقهما بغلام أفضلٍ وأبرّ منه هذه حقيقة فعلية وهذا هو تأويله !! .

وبناء الجدار مجاناً للقوم البخلاء ، في ظاهره مرلوض ، يدعو للإنكار ، لكن حقيقة تدعوني إلى فعله . إن الجدارَ للغلامين يتيمين في المدينة ، وكان أبوهما صالحاً ، وقد أخفى لهما كنزاً تحت الجدار قبل موته ، فلو تركتُ الجدار يسقط وينهار ، لظهر كنزُ الغلامين ، ولاستولى عليه أهل المدينة ، فبقيتُ إلى أن يكبرَ الغلامان ، ويسلغا أشدهما ، ويستخرجا كزهما . هذه حقيقة فعلية | هذا هو تأويله |

إن الله هو الذي أعلمني بحقيقة الأعمال الثلاثة ، تلك الحقيقة التي خفيت عليك ، فبقيت أنت عند ظاهر هذه الأعمال ، أما أنا فلاحظتُ حقيقتها ، وحملتُها عليها .

وبهذا التأويل من الخضر لأعماله الثلاثة ، وكشفتُه عن حقيقتها ، عرفَ موسى - وعرَّفنا معه - أن الخضر كان على صوابٍ فيما فعل ، وأن أفعاله الثلاثة لا تدعو إلى الاعتراض أو الإنكار |

نص الآيات :

تدبرُّ الآيات التي عرضت قصة موسى مع الخضر عليهما السلام ، لنعرفَ موقعَ التأويل فيها :

قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لفتهاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ، أو أمضي حقبا . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله في البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتهاه : أتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً . قال : أرايت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإني نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجبا . قال : ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا .

فوجدنا عبداً من عبادنا ، آتياه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً .

قال له موسى: هل، أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ؟
قال: إنك لن تستطيع معي صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به
خبراً ؟

قال: ستجفني إن شاء الله صابراً ، ولا أعصي لك أمراً .

قال: فإن أتبعني فلا تسألني عن شيء ، حتى أحدث لك منه ذكراً .

فانطلقا . حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ا

قال: أخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً ا

قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ؟

قال: لا تؤاخذني بما نسيتُ ، ولا ترهقني من أمري عسراً .

فانطلقا ، حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ا

قال: أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئاً نكراً .

قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً .

قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني . قد بلغت من لدني
علماً .

فانطلقا . حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فابوا أن يضيفوهما ،

فوجدوا فيها جداراً يريد أن ينقض ، فأقامه .

قال: لو شئت لاتخذت عليه أجراً .

قال: هذا فراق بيني وبينك ا سأنبتك بثأويل مالم تستطع عليه صبراً .

أما السفينة: فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فأردت أن أعيبها ،

وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ا

وأما الغلام: فكان أبواه مؤمنين ، فخشنا أن يرهقهما طغياناً وكفراً .

فأردنا أن يدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ا وأما الجدار: فكان

للغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كتز لهما ، وكان أبوهما صالحاً .
فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ، ويخرجنا كنزهما ، رحمةً من ربك ا وما
لعله عن امري ذلك تأويل مالم تستطع عليه صبراً ﴿١٠﴾ .

معنى تأويل أعمال الخضر:

لما عرضَ موسى على الخضر عليهما السلام أن يصحبه ليعلمُ منه ، قال
له: ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ .

وعلل الخضرُ كلامه بقوله ﴿ وكيف تصبر على مالم تحط به خبيراً ؟ ﴾
أي: سترى أمامك أعمالاً أقوم بها ، ظاهرها يدعو للإنكار ، وسوف
تنكرها أنتَ عليّ ، لأنك لا تعرفُ حقيقتها ، ولا الحكمة منها ، ولم
تُحِطْ بها خبيراً .

وفعلاً لم يصبر موسى عليه السلام على أعمال الخضر ، فانكرها عليه .

وقبل أن يفارقه الخضرُ أراد أن يكشفَ له عن حقيقة الأعمال الثلاثة ،
وقال له: ﴿ سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً ﴾ .

وبعد أن كشفَ له تلكَ الحقيقة ، وأوقفه على الحكمة منها ، قال له:
﴿ ذلك تأويل مالم تستطع عليه صبراً ﴾ .

إن أعمالَ الخضر الثلاثة: خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وبناء الجدار،
لها صورتان: صورةٌ ظاهريةٌ تبدو من الخارج ، فتكونُ فيها غير مقبولة ،
فيقومُ المشاهد بإنكارها ، كما فعل موسى عليه الصلاة والسلام ا

وصورةٌ باطنيةٌ حقيقيةٌ ، تبدو فيها على حقيقتها ، والذي يقفُ على هذه
الصورة الباطنية يعرفُ الحكمة الخفية منها ، ويعلم أنه على حقٍ في فعل ما
يخالفُ الظاهر، لأنه يتفقُ مع هذا الباطن، وهذا ما أدركهُ الخضر ، وفعله .

(١) سورة الكهف: ٦٠ - ٨٢ .

والربط بين ظاهر هذه الأعمال وباطنها مطلوب ، وحملُ الظاهر على الباطن مطلوب ، وهذا ما قامَ به الخضر ، وقلّمه لموسى .
واعتبرَ الخضرُ هذا العملَ تأويلاً ﴿سَأَتَبِكُ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ .

والتأويلُ هنا: هو ردُّ الشيء إلى غايته العملية المرادِ منه - كما قال الراجب في تعريف التأويل - فقد ردَّ الخضرُ أعماله الثلاثة إلى غايتها المقصودة ، وكشَفَ حقيقة هذه الأعمال ، والحكمة الخفية فيها ، وأرجعَ صورتها الظاهرية إلى حقيقتها الباطنية الخفية ، وأرى موسى مآلَ ومصير أعماله ، وانتهى بها إلى تلك المحطة الأخيرة ، التي عرف منها موسى صوابَ الخضر فيما فعل .

لقد أوَكَّ الخضرُ أعماله تأويلاً عملياً ، وأرى موسى الحقيقة العملية منها، وبهذا عرفَ موسى وجّه الحق والصواب فيها:

تأويلُ خرقِ الخضر للسفينة: أنه أرى موسى الملكَ ، يُصادرُ السفنَ الصالحة ، فالهدفُ من خرقه لها نجأتها من الملك .

فنجاةُ السفينة هي تأويلُ خرقها ، الذي يُحملُ عليها ، ويُردُّ إليها .

وتأويلُ قتلِ الغلام ، أن الخضرَ أرى موسى مستقبل الغلام الكفريّ عندما يكبر ، وإزعاجه لأبويه ، فالهدف من قتله إراحة أبويه من كفره ، واللهُ يعوضُهما عنه ، إن إراحة أبويه منه هي تأويلُ قتله ، الذي يُحملُ ، ويُردُّ إليها .

وتأويلُ بناء الجدار ، أن الخضرَ أرى موسى كثرَ اليتيمين تحته ، فالهدفُ من بنائه هو المحافظة على الكثر إلى أن يكبرَ الغلامان اليتيمان . إن المحافظة على الكثر هي تأويلُ بناء الجدار، الذي يجبُ أن يُحملَ عليها ، ويُردُّ إليها .

ونلاحظ أنّ الخضر عليه السلام لا ينسبُ معرفة حقيقة أعماله الثلاثة إلى نفسه، فما كان الخضرُ بنفسه ليرى الملكَ يصادرُ السفنَ ، وما كان الخضرُ بنفسه ليرى مستقبلَ الغلامِ ، وما سيكون عليه بعدَ عشرين سنة. وما كان الخضرُ بنفسه ليرى كترًا وضح تحت الجدارَ قبلَ سنين |

إنما أراه الله ذلك ، وعرفه الله تلك الحقائق ، وكشفَ له عن تلك البواطن الخفية ، وأمره الله أن يفعلَ ما فعل ، ليحقق تلك الحكمَ الخفية، أمره الله بخرقِ السفينةِ لتنجو من الملك ، وأمره الله بقتل الغلامِ ليستريح أبواه من كفره ، وأمره الله ببناء الجدارِ ليأخذ الغلامان الكثرَ عندما يكبران .
ولهذا قال موسى عليه السلام: ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ . أي: لم أفعلْ هذه الأفعالَ الثلاثةَ باجتهادٍ مني ، إنما فعلتها بأمر من الله .

شمول أعماله للماضي والحاضر والمستقبل :

وإذا نظرنا في أفعالِ الخضرِ الثلاثة ، وتأويله لها ، فإننا نراها قد استرعتْ أطرافَ الزمانِ كلها |

الزمانُ إمّا ماضٍ ، وإمّا واقعٌ حاضر ، وإمّا مستقبل .

ولقد أرى الله الخضرَ الحقيقةَ في أطرافِ الزمانِ الثلاثة ، فقام بتأويل الظاهرِ إليها ، وحمّله عليها |

وموقفُ الملكِ في موقعٍ متقدمٍ لمصادرة السفنِ الصالحة ، يمثّلُ فترةَ الزمانِ الحاضر ، فهو موجودٌ واقفٌ في نقطته وموقعه ، وإن لم يشاهده أصحابُ السفينة ، لأنهم في طريقهم إليه، إنهم لم يروه بعد ، ولكن الله أرى الخضرَ إياه مع عصابته |

وكونُ الغلامِ سيكون كافرًا عندما يكبر ، يمثّلُ المستقبل ، أو فترةَ الزمانِ القادمة، وهذا غيبٌ لا يعلمه بشر، وعلمه خاصٌ بالله، ولا يعرف الناسُ كيف سيكون مستقبلُ هذا الغلام، وقد أطلعَ الله الخضرَ على هذا المستقبلِ |

ووضعُ الكنز تحت الجدار يمثلُ فترةَ الزمانِ الماضية ، فالرجلُ الصالح
أخفى الكنز لابنه الصغيرين تحت الجدار ، قبل أن يموت ، ولا يعلمُ أحدٌ
بوجود الكنز تحت الجدار ، فاعلمَ اللهُ الخضرَ بهذا الكنز الموضوع من قبل 11

واختيارُ أمثلةٍ ثلاثةٍ لأفعالٍ عجيبةٍ مدهشة ، تتمثلُ فيها فتراتُ الزمانِ
الثلاثة: الماضية والحاضرة والقادمة - مقصود ، لادراكِ معنى التأويل
للأحداث ، التي مرّت ، أو تمرُّ الآن ، أو ستمرُّ فيما بعد .

وإنه ليس شرطاً أن تكون هذه الأحداث على صورتها الظاهرية الخارجية
التي وقعت من خلّالها ، فقد تكون لها صورةٌ باطنية خفية ، هي المرادةُ
منها ، وهي التي تنتهي وتؤوِّكُ إليها 11

لكن مَنْ يُؤوِّكُ هذه الأحداث ؟ وَمَنْ يَرُدُّ ظاهرها إلى باطنها ؟ وَمَنْ
يحملُ وجودها الواقعي على حقيقتها الخفية ، وغايتها المرادة ؟

المطلب الثالث مع التاويل في سورة الأعراف

وردة التاويل مرتين في سورة الأعراف ، والمرتان في آية واحدة ،
تحدث عن يوم القيامة ، الذي أخبر القرآن عن وقوعه وقدمه ، ولكن
الكفار أنكروا ذلك ، ولم يصدقوا بالآيات التي تخبر عنه .

قال تعالى: ﴿ ولقد جتنامهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة
لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله ؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه
من قبل: قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء ، فيشفعوا لنا ،
أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم ، وضل عنهم
ماكانوا يفترون ﴾^(١) .

المعنى الإجمالي للآيتين:

تحدث الآيتان عن القرآن ، وعن تفصيله ، وعن معانيه وأخباره
ووعوده .

لقد بعث الله محمداً ﷺ رسولا ، وأنزل عليه القرآن كتاباً ، ودعا
الناس إلى الإيمان بهذا القرآن ، وتصديق أخباره .

وأخبرت الآية الأولى أن الله جاء الناس بهذا القرآن ، وجعله كتاباً
مفصلاً ، تفصيلاً لفظياً ، وتفصيلاً موضوعياً .

تفصيله اللفظي^٤ تمثل في تقسيمه إلى سور ، وتقسيم السورة منه إلى
آيات ، وتقسيم الآية إلى جمل وكلمات .

(١) سورة الأعراف: ٥٢ - ٥٣ .

أما تفصيله الموضوعي فقد تمثل في الموضوعات التي عرضها والمعاني التي قَدَّمها ، والأخبار التي أخبر عنها ، والحقائق التي قرَّرها .

تفصيله الموضوعي في حديثه عن الدنيا والآخرة ، عن الحياة والموت والبعث ، وفي تقريره لحقائق العقيدة والشريعة والأخلاق ومناهج الحياة ، وفي عرضه لمسيرة التاريخ من خلال قصصه ، وفي ربطه لكل ما يجري في الكون والحياة والإنسان بقرآن الله وأمره ومشيئته سبحانه .

لقد فصل الله القرآن بعلمه ﴿ فصلناه على علم ﴾ ، وجعله هدى يستهدي به المؤمنون ، ورحمةً يرحم به المؤمنين ، عندما يؤمنون به ، ويتدبرونه ، ويلتزمون بتوجيهاته ، وينفذون أحكامه: ﴿ هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

هذا أثر القرآن في المؤمنين الذين صدقوا بأخباره ، وآمنوا بوعوده ، فسعدوا في الدنيا ، وفازوا وريحوا يوم القيامة .

أما الكفار فإِنَّهم لم يؤمنوا به ، ولم يصدقوا بأخباره ، التي تُخبر عن البعث بعد الموت ، وعن قدوم الساعة ، ومجيء يوم القيامة ، ولما سمعوا الآيات التي تتحدث عن ذلك كثبوا بها .

لقد أخبرت آيات القرآن عن مشاهد القيامة ، وتحدثت عن نفخة البعث ، وخروج الناس أحياءً من قبورهم ، وسوقهم إلى إرض الموقف للحساب والجزاء ، وعن الميزان والصحف والصراف ، وعن النار واللوان عذابها ، وأحوال الكفار فيها ، وعن الجنة وأصناف نعيمها وسعادة المؤمنين فيها .

وهذه المشاهد لم تقع الآن ، لأننا ما زلنا في الدنيا ، لكنها ستقع حتماً ، لأن الله أخبر عن وقوعها ، ولذلك آمن المؤمنون بذلك .

أما الكفار فقد استبدلوا وقوعها واستهجنوه واستغربوه ، ولذلك كفروا بها وأنكروها .

وهنا تهددُهم الآية الثانية ، وتبينُ لهم حالهم يوم القيامة ، عندما يتمُّ تأويلُ أخبار القرآن ووعوده التي تحدثُ عن يوم القيامة .

﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ :

« هل » : حرفٌ للاستفهام . والاستفهامُ هنا إنكاري ، إذ ينكر القرآنُ على الكفار عدمَ إيمانهم بالقرآن ، وعدمَ تصديقهم بوعده .

و « ينظرون » : بمعنى : ينتظرون . فهو من الانتظار وليس النظر .

والهاء في «تأويله» تعودُ على القرآن - وهو الكتابُ المذكور في الآية السابقة .

فمعنى ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ : لماذا لم يؤمن الكفارُ بالقرآن ؟ ولماذا لم يصدقوا بالآياتِ التي تحدثُ عن يوم القيامة ؟ ماذا ينتظرون ؟ إنهم ينتظرون تأويل آيات القرآن ، ومنتظرون وقوعَ الأحداثِ يوم القيامة ، التي تحدث عنها الآيات ، ومنتظرون رؤية هذه الأحداثِ بعينهم عندما يُعشرون من قبورهم .

هذا هو تأويلُ الآياتِ المخبرة عن يوم القيامة ، وهو وقوعُها فعلاً وجقيقة ، ومشاهدتهم لها .

والدليلُ على أن هذا هو معنى التأويل المذكور في الجملة ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ مجيءُ التفصيل بعد ذلك في الآية ، مبيناً لهذا الإجمال .

﴿ يوم يأتي تأويله : يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسلنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء ، فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ .

والمعنى : يومَ القيامة يأتي تأويلُ آياتِ القرآن ، التي تخبرُ عن مشاهد القيامة ، وتأويلها هو وقوعُ هذه الأحداثِ والمشاهد فعلاً ، كما أخبرت آياتُ القرآن من قبل .

عند ذلك ، وبعدما يشاهد الكفار تأويل الآيات عملياً ، ويرون الأحداث يوم القيامة عياناً ، يقولون: ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق 11 ﴾ .

أي: كان الرسلُ صادقين معنا في الدنيا ، عندما أخبرونا عن أحداث الساعة ، وكانت آياتُ القرآن صادقةً عندما تحدثت عنها ، لقد جاءت الرسلُ بالحق ، وتحدثت الآياتُ بالحق ، بدليل أننا نرى الآن حقيقة ما قالوه لنا ، نراه عملياً أمامنا ، فهذا هي الآياتُ قد تمَّ تأويلها الآن . ونحن كنا مخطئين . عندما كذبنا بها في الدنيا .

فهل لنا من شفعاء ، فيشفعوا لنا عند الله ؟ ويدفعوا عنا عذابَ الله؟ ويتقنونا من النار ؟ أو هل يمكن أن يرُدُّنا اللهُ إلى الدنيا ، ويعيدنا إليها ، ويُعطينا فرصةً أخرى ، لنؤمنَ بهذا الحق ، ونعملَ غيرَ الذي كنا نعملُ؟ .

إنهم يمتنون هذه الأمانى التي لن تتحقق ، فلا شفاعة لهم ، ولا رجوع إلى الدنيا . إنهم خاسرون هالكون معذبون: ﴿ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

التأويل مجعُ يوم القيامة فعلاً :

نستحضرُ تعريفَ الإمام الراغب للتأويل: «هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، علماً كان أو فعلاً» لنرى انطباق هذا التعريف على التأويل المذكور في الآية .

﴿ هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ .

تتكلمُ الآية عن تأويل القرآن - لأن الهاء في « تأويله » تعودُ على الكتاب المذكور في الآية السابقة - وتدعو الكفارَ إلى انتظار تأويله ، وتهدهم بما سيكون لهم يوم تأويله ، وترهبهم صورةً عن العذاب الواقع بهم يومَ تأويله .

فما المرادُ بتأويله ؟ هل المرادُ بيان معاني آيات القرآن ، وشرحها وتفسيرها؟ لا ، لأنه لا دخلَ لبيان معاني الآيات بالعذاب الواقع بالكفار .
أي أن التأويلَ في الآية ليس بمعنى العلم ، بل بمعنى الوقوع والحدوث ، وبيان العاقبة والمآل .

أو: هو ردُّ معاني الآيات إلى غايتها النهائية ، وحققتها الفعلية المادية .
تأويلُ القرآن المذكورُ في الآية ، هو تحققُ وقوع آياته التي تخبرُ وتحدثُ عن مشاهد القيامة ، وأحداث اليوم الآخر .
إن السياق الذي وردت فيه الآية يتحدثُ عن يوم القيامة . يبدأ الحديثُ عن يوم القيامة من الآية رقم (٣٤) من السورة ، وينتهي بالآية رقم (٥٣) .

تحدثُ الآياتُ عن مشهد الحسرة والندامة ، والتلاوم والتلاعن ، بين الفريقين الاتباع والتبوعين في جهنم ، وعن العذابِ الواقع بالفريقين ، وعن خلودهم معدنين في النار . ثم تعرض مشهداً مقابلاً للمؤمنين ، وهم ممنون متحابون في نعيم الجنة .

وتعرضُ الآياتُ لقطاتٍ حية متحركة مصورة، عن نداءاتٍ وحواراتٍ بين أهل الجنة وأهل النار ، وأصحاب الأعراف .

ويُنادي أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنة مهنيين لهم دخولهم الجنة ، وعندما تُصرفُ أبصارهم تلقاء أصحاب النار ، يتعدون بالله منهم ومن تعذيبهم ، ويسألون اشخاصاً بأعيانهم من أهل النار سؤال تبيكيت، وتقريع .
يُنادي أصحاب الجنة أصحاب النار ، ويسألونهم سؤال استهزاء وتقريع وتبيكيت ، فيجيبهم أهل النار بذلة ومهانة .

ويُنادي أصحابُ النار أصحابَ الجنة ، مستغيثين بهم ، طالين منهم شيئاً من الماء أو الطعام ، فيردُّ عليهم أصحابُ الجنة بأن الله حرمَ الجنة ونعيمها

على الكافرين ، ويبقى الكافرون في العذاب مع حشرتهم وخزيهم .
فالأيات كلها في السياق تتحدث عن يوم القيامة ، ومشاهد نعيم المؤمنين
في الجنة ، وعذاب الكفار في النار .

ما موقف المؤمنين والكافرين في الدنيا من هذه الآيات ، وما تقدمه من
أخبار ووجود عن يوم القيامة ومايه ؟

أما المؤمنون فقد آمنوا بها ، وصدّقوا بضمونها ، واعتقدوا وأيقنوا
بوقوعها يوم القيامة . أي: أنهم آمنوا بحدوث مشاهد القيامة كما أخبرت
هذه الآيات .

وأما الكافرون فقد كذبوا بهذه الآيات ، واستغربوا مضمونها ، وأنكروا
وقوع شيء مما تحدث عنه الآيات من مشاهد القيامة ، ونفوا أن يكون بعث
وحشرٌ وحسابٌ ونارٌ ونعيمٌ وعذابٌ أي أن الكفار نفوا وقوع الصورة
العملية لمضمون الآيات النظري ، وتحقق المدلول الواقعي للوعد والوعيد
النظري .

فتأتي الآية الأخيرة في هذا السياق لتهدد الكفار المنكرين ليوم القيامة .
وتقول لهم: أنتم الآن في الدنيا تنكرون وقوع مشاهد القيامة عملياً ، التي
تحدث الآيات التي تسمعونها عنها ، وتجزم بوقوعها .

انتظروا تأويلها: ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ . أي: انتظروا حين قيام
الساعة ، وبدء مشاهد يوم القيامة ، عند ذلك سيتم تأويل هذه الآيات التي
تسمعونها الآن في الدنيا ، وسيتحقق وقوع ما أخبرت عنه الآيات في
صورة عملية . وستشاهدون صورة مادية واقعية لمضمون هذه الآيات
النظري .

عندما ، عندما يتحقق تأويل هذه الآيات عملياً ، ووقوع حقيقتها
وغايتها المادية ، ماذا سيكون وضعكم هناك ؟ ﴿ يوم يأتي تأويله يقول
الذين نسوه من قبل قد جاءت رسلنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء ،

فيشفعوا لنا ، أونرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ؟ ﴿...﴾ .

إذن التأويلُ المذكورُ مرتين في هذه الآية من سورة الأعراف ، هو ردُّ معاني الآيات النظرية المخبرة عن مشاهد القيامة ؛ إلى غايتها المادية ، وحققتها الواقعية ، وبيانُ بُغْيِهَا الواقعي ، وذلك عند بدءِ عرضِ مشاهد القيامة فعلاً ، ومعايشةِ الناسِ لها واقعاً .

١ . لتأويلُ هذه الآيات هو بيانُ مصيرها ومآلها ونهايتها ، وتحويلُ وعيها النظري إلى صورته العملية ، ورؤيةِ حقيقتها المادية الواقعية ، وذلك عندما يعيشون فعلاً مشاهدَ القيامة هناك ۱۱ .

المطلب الرابع

مع التأويل في سورة يونس

ورد التأويلُ مرةً واحدةً في سورة يونس ، وذلك في آية ضمن مجموعة من آيات ، تتحدثُ عن القرآن ، وتثبتُ أنه كلامُ الله ، وتتحدى الكفارَ بمعارضته، وتخبرُ عن تكذيبهم بضمونه ، وتهتدُهم بالدمار يوم يأتي تأويله ، وتقرُّ سنةً ربابيةً مطردةً في ذلك .

قال تعالى: ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً . إن الله عليم بما يفعلون . وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه ، قل فاتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما ياتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . ومنهم من يؤمن به ، ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين ، وإن كذبتك فقل لي عملي ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا بريء مما تعملون ﴾^(١) .

المعنى الإجمالي للآيات :

تبدأ الآياتُ بتقرير حقيقةٍ ما عليه الكفار ، فهم ليسوا على علم ولا يقين، في موضوعات الدين والاعتقاد . لقد كفروا بالرسولِ عليه الصلاة والسلام ، وأنكروا أن يكون القرآنُ كلامَ الله ، وكانوا مع الباطل والشركِ بالله ، إنهم في كلِّ ذلك كانوا متبعين للظن والتخمين ، ومحمداً ﷺ كان

(١) سورة يونس: ٣٦ - ٤١ .

على الحق واليقين ، وماذا يساوي الظنُّ بالنسبةِ إلى الحق؟ إنه لا يفني عن الحق ، ولا يصدُّ مسدِّه .

وهذا القرآنُ الذي يسمعونه من رسول الله ﷺ هو الحق ، وهو كلامُ الله ، وما كان لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام أن يفتره من دون الله ، ثم ينسبُه إلى الله!

إن القرآنَ مصدقٌ للكتبِ الربانيةِ السابقة ، كالتوراة والإنجيل ، ومؤكدٌ لما فيها من حقائق حول الدين والإيمان - هذا قبلَ أن يحرفها أصحابها من اليهود والنصارى - وهذا القرآنُ مفصلٌ في معانيه وموضوعاته ، وهو كلامُ الله رب العالمين ، لا ريب ولا شك في ذلك: « وما كان هذا القرآنُ أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل الكتاب ، لا ريب فيه من رب العالمين » .

ولكن ما موقفُ الكفار من هذه الحقائق؟ إنهم ينكرونها ، لأنهم يَبْعون الظن. القرآنُ غير مفترى، وهو كلامُ الله ، ولكنهم يقولون: القرآنُ مفترى، وليس كلامُ الله !

وطالما لم يُسْمُوا أنه كلامُ الله ، وقالوا هو كلامُ البشر ، فلا بد من التحدي، إنه إن كان كلامَ بشر ، كان بمقدور البشر الإتيان بمثله ، إذن فعلى هؤلاء الكفار تاليفُ وتقديمُ سورة ، مثلُ سور القرآن ، بيانها وبلاغتها ولفصاحتها مثلُ سور القرآن ، ويمكن أن يستعينوا بمن شاءوا من الأعداء ، وأن يستشهدوا بمن أرادوا من الشهداء . . . فإن عجزوا عن المطلوب ، ولم يقدروا على الإتيانِ بسورةٍ مثل القرآن ، ثبتَ أن القرآنَ ليس كلامَ بشر ، ولا في مقدور أحدٍ من المخلوقين ، فهو كلامُ الله سبحانه: ﴿ أم يقولون اتراه . قل: فاتوا بسورةٍ مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين ﴾ .

لكن هل آمنَ الكفار وأبِعوا الحق ، واعتبروا أن القرآنَ كلامُ الله ؟

كلا. إنهم مازالوا مصرِّين على التكذيب والكفر ، رغم وجودِ عدَّةِ آياتٍ وادلةٍ وبراهين، تثبتُ أن القرآنَ كلامُ الله ، وهي عند أصحاب التفكير السويِّ السليم تتجُّ الايمانَ واليقينَ والتسليم .

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ : كذبَ الكفارُ بالقرآن ، قبلَ أن يحيطوا علماً بآياته وبراهينه وادلته ، وقبلَ أن يختبروا صدقَ ما فيه ، وقبلَ أن يتأكدوا منه ، ويتمكَّنوا من البحثِ ، والتحرِّي ، والدراسة ، والاستقصاء ، لأنَّ التكذيبَ منهم قرارٌ مسبق ، لن يتراجعوا عنه ، مهما اتضحَ لهم من الحقائق الهادية ، إنهم رفضوا الحقَّ عناداً ، وكذبوا به عناداً. ولو فكروا في الموضوع بمنهجيةٍ وعلميةٍ وإنصافٍ ، لأمنوا وصدقوا بالحق .

﴿ ولا ياتهم تأويله ﴾ : كذبَ الكفار بالقرآن ، قبلَ أن يُحيطوا به علماً ، وقبلَ أن ياتهم تأويلُ آياته ، لقد كانوا متسرِّعين متعجلين في التكذيب ، وماذا عليهم لو تأنوا وترثبوا ؟ ماذا عليهم لو انتظروا قليلاً إلى أن ياتهم تأويلُ القرآن؟ إنهم لو ترثبوا لعرفوا أنه الحق ، ولو انتظروا حين تأويل آياته ، وتحقَّقها أمامهم في عالم الواقع ، في صورةٍ مادية فعلية ، لعرفوا أنَّ القرآن حق ، وأنَّ وعوده تتحقَّق وتأنوكلُ فعلاً .

﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ : كفارُ قريش مثلُ الكفار الذين من قبلهم في اتباع الظن ، وفي التكذيبِ بالحق ، وفي التسرُّع والتعجُّل بالتكذيب، وفي عدم التريثِ والثاني ، وانتظارِ تأويل وعود وتهديدات الله ، في الكتب التي أنزلها إليهم .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ كان تكذيبُ الكفار السابقين ، على تلك الصورةِ المتعجِّلة المتسرعة ، سبباً في وقوع العذابِ بهم ، فلما أتاهم تأويلُ التهديدات ، وشاهدوا تحقُّقها في عالم الواقع ، في صورة عذاب ودمار ، أهلكهم الله وقضى عليهم ، فزالوا عن الوجود . انظرُ كيف كانت عاقبتهم وكيف كانت نهايتهم ؟

وهؤلاء الكفارُ المكذِّبون لك يا محمد ، كذَّبوا كما كذَّب الكفارُ من قبلهم ، وتعجلوا كما تعجلَ الذين من قبلهم ، ولهذا سيفُحُّ بهم كما وقعَ بالذين من قبلهم ، وسيدمرهم الله كما دمرَ الذين من قبلهم ، وانتظر هذه العاقبة المؤلمة لهم ، إن لم يتراجعوا عن كفرهم .

إنَّ هذه الآيةَ تهديدٌ ووعيدٌ للكفارِ المكذِّبين ، وإمهالٌ لهم لحين تأويل آياتِ القرآن ، التي تقررُ هزيمَتهم وهلاكهم ، وانتصارَ الحقِّ ، وتحقُّق هذه الآياتِ في صورتها المادية الواقعية .

فما موقفُ الكفار من هذا التهديد ؟

سينقسمون إلى قسمين : قسم يتأثرُ به ، ويفكِّرُ في موقفه ، ويغيِّرُ مساره ، ويؤمن بالقرآن ، ويتبَّع الرسولَ عليه الصلاة والسلام .

وقسم لن يتأثرَ به ، ولن يستفيدَ منه ، وسيبقى مُصرّاً على عناده وكفره وتكذيبه ، إلى أن يحقِّقَ التأويل ، ويقعَّ العذاب .

وقد أشارَ إلى القسمين قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يؤمن به ، ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين ﴾ .

أما الذين آمنوا بالقرآن ، واستفادوا من التهديد ، قبل وقوع وتحقُّق التأويل ، فهم مسلمون صالحون .

وأما الذين أصروا على التكذيبِ والكفرِ والعناد ، فعلى الرسولِ عليه الصلاة والسلام أن يفصلهم ، وأن يتبرأ منهم ، وأن يتركهم ينتظرون تحقُّق التأويل ، ووقوعَ العذاب : ﴿ وإن كذبتك فقل : لِي عملي ، ولكم عملكم . أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا بريء مما تعملون ﴾ .

المراد بالتأويل في هذه السورة:

تخيرُ الآياتُ - التي مِن ضمنها آيةُ التأويلِ - عن كفر الكفار بالقرآن ،
وتكذيبهم به ، وزعيمهم أنه ليس كلامَ الله ، وأن محمداً عليه الصلاة
والسلام قد افتراه ، وتجدأهم الآياتُ وتطلبُ منهم معارضة القرآن ،
والإتيانَ بسورةٍ مثله .

وتقرُّرُ أن الكفارَ كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وقبلَ أن يأتيهم تأويله ،
وكانوا في هذا كاسلافهم السابقين ، حيث أوقعَ الله بهم عذابه وأهلكهم ،
وهؤلاء يسرون على طريق السابقين ، والعذابُ قادمٌ إليهم ، إلا لم يؤمنوا .

فما المرادُ بالتأويل هنا ؟

إنه تأويلُ آياتِ القرآن التي كتبوا بها ، ومعنى تأويلها بيانُ نياتها
ومآلها ، أو تفرُّغُ صوريتها للمادية العملية ا

والسياقُ الذي وردتْ فيه الآيةُ سياقٌ وعيدٌ وتهديدٌ للكفار ، وبيانُ أن
العذابَ قادمٌ إليهم ، وأن تأويلَ الآياتِ التي كذبوا بها سائرٌ إليهم ، وعمّا
قريب سيُشاهدون هذا التأويلَ ويعيشونه في عالم الواقع ا

لقد واجهتْ آياتُ القرآن الكفار ، وكانت تخبرهم بانتصارِ رسولِ الله
ﷺ ، وإظهارِ دينه ، وتقرُّرُ عجزِ هؤلاء الكفار عن الوقوفِ أمام
الاسلام ، أو إطفاءِ نوره ، وتدعوهم إلى الدخولِ فيه ، فلا فائدة من
المواجهة والمحاربة .

وكانت آياتُ القرآن تقدمُ لهم الوعيدَ والتهديد ، وتخبرهم أن العقابَ
واقِعٌ بهم ، وأنهم في ذلك مثلُ الكفار السابقين .

ولما كانوا يسمعون التهديدَ والوعيدَ في هذه الآيات ، كانوا يزدادون
تكذيباً بها ، وسخريةً واستهزاءً بالرسول عليه الصلاة والسلام وأتباعه . فهل
من الممكن أو المعقول أن يهزمهم محمداً ﷺ ، ومن معه مسلمون

مستضعفون فقراء ؟ أما هم فهم أقوياء أغنياء أصحاب السلطة والمنزلة ؟
في هذا الجواب تنزلت آيات سورة يونس ، وواجهت الكفار في تكذيبهم
واستهزأتهم .

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما ياتهم تأويله ﴾ .

كذبوا بأخبار القرآن وحققته ، كذبوا بوعوده للمؤمنين ، وتهديداته
للكافرين ، وأنكروا أن يكون المستقبل هو للإسلام والمسلمين ، ولم يصدقوا
أنهم يمكن أن يهزموا أمام المسلمين .

فتقول لهم الآية: إنكم تكذبون الآن بهله الآيات ، وأنتم لم تحيطوا
علماً بها، تكذبون بها لأنه لما ياتكم تأويلها ، ولما تشاهدوا صورتها
العملية والواقعية، لكن تأويلها آتٍ عن قريب ، وستعيشون. هذا التأويل
عملياً عندما تبدأ المعارك الفعلية بينكم وبين محمد ﷺ ، وهذه المعارك
ستشبه عن قريباً

إن ﴿ ما ﴾ في قوله: ﴿ ولما ياتهم تأويله ﴾ تدلُّ على التوقع ،
وتستعمل في قرب وقوع ما بعدها .

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ قالت الأعراب آمنة . قل: لم تؤمنوا .
ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾^(١).

إن ﴿ ما ﴾ هنا حَرْفُ « تَوْعُّفٍ وَاطْمَاعٍ » . فالأعرابُ أسلموا ، وجاءوا
إلى رسول الله ﷺ ، وامتنوا عليه ، وزعموا تحمُّقَ الإيمان بعد الإسلام
فيهم ، ولكن الآية تصحح لهم ذلك ، وتقول لهم أنتم أسلمتم ، نعم ،
ولكنكم لم تؤمنوا حتى الآن ، لأن الإيمان لم يدخل في قلوبكم إلى الآن .

لكن هذا الإيمان ليس بعيداً عنكم ، وأنتم لستم بعيدين عنه ، إنكم
سأتررون في طريقكم إليه ، سيدخل في قلوبكم عن قريباً

(١) سورة الحجرات: ١٤ .

وفي الجملة التي أمامنا ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ التوابع واضح .
لم يقع تأويلُ الآيات التي كُتِبَ بها الكفار حتى الآن ، ولم تقع
الصورة العمليةُ للتهديدات النظرية لهم ؛ التي حوِّثها آياتُ القرآن .

إنهم مهزومون ، لكن متى ؟ لما يأتهم تأويلُ ذلك أي : لم تقع هزيمتهم
فعلاً الآن ، لكنها ستحققُ عن قريب ، فتأويلُ الآياتِ التي تقرر ذلك على
وشك الوقوع ا

وإنَّ الرسولَ منصور ، والاسلامَ ظاهر ، لكن ؟ لما يتم تأويلُ ذلك ،
لأنَّ المعركة لم تنشبْ مع الكفار فعلاً حتى الآن ، ولكنها مستشبُّة عن
قريب ، وعندها سيتمُ تأويلُ الآياتِ التي تقررُ ذلك .

وهذا ما حصلَ فيما بعد ، في حركة الدعوة الاسلامية ، وحرّبتها مع
الكفار ، فلم تمضِ إلا سنواتٌ قليلة على نزولِ هذه الآية من سورة يونس -
والتي تقررُ قربَ وقوع وتأويلِ تهديدات القرآن - حتى تحققت تلك الوعودُ
والتهديداتُ في عالم الواقع ، وذلك في غزوة بدر ، وما تلاها من
الغزوات التي هزمَ اللهُ فيها الكفار . وعندها أتى الكفارَ تأويلُ تلك
الآيات ، أي : تمَّ تنفيذُ وعود وتهديدِ الآيات القرآنية ، وبذلك حُوِّثت من
وعدٍ نظري إلى صورة عملية واقعية ، وبذلك تمَّ ردُّ وإرجاعُ معنى الآيات
النظري إلى غايته الفعلية ، ونهايته المادية .

عمر بن الخطاب يروي عن وقوع التأويل :

حملنا معنى التأويل في سورة يونس على وقوع وعود القرآن للمؤمنين
بالتصريح ، وتحقق تهديداته للكفار بالهزيمة . واعتبرنا غزوات الرسول ﷺ ،
وهزيمته للكفار من اليهود والمشركين والأحزاب ، تأويلاً عملياً للتصوص
القرآنية ، وهذه الغزوات هي المرادة بقوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا
بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ﴾ .

ونقدّم فيما يلي مثالا واحداً من السيرة النبوية وحركة الصحابة ، تبين أن هذا هو المقصود بالتأويل ، وأن الصحابة كانوا يفهمونه .

إن آيات سورة القمر تقرر هزيمة كفار قريش ، كما هزم الله الكفار السابقين ، وبعد أن تقدم آيات السورة لقطات سريعة عن مصارع أشهر الكفار السابقين : قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وآل فرعون ، تخاطب كفار قريش قائلة : ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءة في الزير ؟ أم يقولون نحن جميع متصرف ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر ﴾ (١) .

تسأل هذه الآيات كفار قريش : أنتم خير من الكفار السابقين المعتدين ؟ أنظنون أن العذاب لن يقع بكم في الدنيا قبل الآخرة ؟ هل معكم براءة من الله أنزلها عليكم في الزير والكتب ؟ أم نعتمدون على قوتكم وجنودكم واتباعكم ؟ أنظنون أنكم ستصرون على المسلمين في حربكم القادمة القريبة ؟ وتقولون : نحن جميع متصرفون ، والمسلمون مهزومون ؟

لأنظنوا هذا ، ولا تتوقعوه ، إن المارك قادمة بينكم وبين المسلمين ، وستهزمون أمامهم ، وستفرك جمعكم ، وستولون أديباركم للمسلمين ، وستزل الله نصره عليهم : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ .

إن قوله : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ وعيد من الله وتهديد للكفار ، وتقرير أنهم سيهزمون لا محالة !

وهذه الآيات نزلت في مكة ، بينما كان المسلمون قلة مستضعفين ، والكافرون أقوىاء غالبين ، وقد أيقن المسلمون بتحقيق وعدها في المستقبل ، لكن الكافرين لم يصدقوا ذلك .

متى تم تأويل هذه الآيات ؟ أي : متى تحقق بُعْدُهَا الْعَمَلِيُّ الْمَادِي الواقعي ؟ ومتى رُدَّ الْكَلَامُ النَّظْرِيُّ فِيهَا إِلَى غَايَةِ الْعَمَلِيَةِ الْمُرَادَةِ مِنْهَا ؟

(١) سورة القمر : ٤٣ - ٤٦ .

لقد حصلَ ذلك ، وتمَّ تأويلها بعد بضع سنوات من نزولها ، وكان ذلك في غزوة بدر الكبرى، في السنة الثانية من الهجرة 11 وقد روى لنا عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه تحققَ التأويل لهذه الآيات في غزوة بدر .

قال عكرمة: « لما نزلَ قوله تعالى: ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ قال عمر: أيُّ جمع سيُهْزَم ؟ وأيُّ جمع سيَلْب ؟
فلما كان يومُ بدر ، رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَكْبُ في الدرع ، وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ ، فعرفتُ تأويلها يومئذٍ 11
وتأملُ معنا قولَ عمر « فعرفتُ تأويلها يومئذٍ » لتعرفَ معنى التأويل .

إن نزولَ هذه الآية في مكة وعيدٌ وتهديدٌ نظري ، وخبرٌ عما سيحدثُ لهم في المستقبل على أيدي المسلمين . هذا الوعيدُ النظريُّ يحتاجُ إلى تأويل، أي: ردِّ إلى غايته العملية المرادة منه ، ورجوعٌ به إلى صورته المادية، وبيانُ عاقبته ومآله .

ولقد تحققَ ذلك الردُّ والرجوعُ والتأويلُ في معركة بدر ، وتحققَ عملياً على أرضها ذلك الخبرُ القرآني ، وعندما فقط عرفَ عمرُ رضي الله عنه تأويلَ الآية 1

هذا مثالٌ من السيرة النبوية ، وفهم الصحابة ، يظهرُ فيه التأويلُ العمليُّ لقوله تعالى: ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ .

وبهذا نعرفُ أنَّ التأويلَ في سورة الأعرافِ تهديدٌ ووعيدٌ للكفار بتحقيقِ العذابِ بهم يومَ القيامة - كما سبق أن بينا - . وأما التأويلُ في سورة يونس، فهو وعيدٌ وتهديدٌ للكفار بتحقيقِ الهزيمةِ بهم في الدنيا 11

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: 281/1 .

المطلب الخامس

مع التأويل في سورة الإسراء

ورد التأويل مرة واحدة في سورة الإسراء ، وذلك تعقيباً على أمر الله المؤمنين بتوفية الكيل ، وإتمام الميزان ، حيث اعتبر ذلك خيراً وأحسن تأويلاً .

قال تعالى: ﴿ وأولوا الكيل والميزان إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم : ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾^(١)

الكيل والوزن بين الإتمام والتطفيف:

هذه الآية ضمن آياتٍ تقدمُ للمسلمين مجموعةً من التوجيهات القرآنية حول الأخلاق والفضائل ، حيثُ تأمرهم بالتحلي بمكارم الأخلاق ومحاسنها، وتنهاهم عن قبائحها مساوئها .

هذه الآياتُ من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية التاسعة والثلاثين: ٣٩-٢٣ .

تأمر الآية المسلمين بالوفاء بالكيل عندما يكيلون ، والوزن بالقسطاس عندما يزنون ، وتعتبرُ هذا الأمرَ خيراً ، كما تعتبره أحسنَ تأويلاً .

ونقيض الوفاء بالكيل هو إنقاصه ، ونقيضُ الوزن بالقسطاس ، هو بخسُ الميزان وتخسيره ، وهذا هو التطفيف ، الذي ذمَّ اللهُ المطففين من أجله .

لقد كان قومُ مدين يُتقصون الكيالَ والميزان، فبعث الله لهم شعبياً عليه

(١) سورة الإسراء: ٣٥ .

الصلوة والسلام ، فهامهم عن التطفيفِ والإنقاصِ والبخس ، وأمرهم بالإتمام والتوفية . قال تعالى: ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ولا تنقصوا المكيال والميزان، إني أراكم بخير، وإنّي أخاف عليكم غلاب يوم محيط . ويقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تمشوا في الأرض مفسدين. بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾^(١) .

وقد أمر الله المسلمين بالوزن بالقسط ، وعدم إنقاص الميزان ، كماورد في قوله تعالى: ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان . أن لا تظنوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ، ولا تخسروا الميزان ﴾^(٢) .

وذمّ الله المطففين لتلاعبهم في المكيال والميزان ، فقال تعالى: ﴿ ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾^(٣) . والمطففون هم الذين يُطفّفون الكيل ، فيُقصّونه ولا يُحمّونه .

قال الامام الراغب في معنى « طَقَفَ » : « الطّفيف: الشيء التّزر القليل، والطّفافة هي الشيء الذي لا يُعتدّ به لقلته . ويُقال: طَقَفَ الكيل: إذا قلل نصيب الكيل له في إيفائه واستيفائه »^(٤) .

إن المطفّف في المكيال متلاعبٌ به ، فإذا اكتال من الناس واحذ منهم زادة في المكيال ، فاحذ أكثر من حقّه ، لكنه بالمقابل إذا كال لهم واعطاهم، فإنه يُقصّ المكيال ، ويُعطيهما أقل مما لهم .

(١) سور هود: ٨٤ - ٨٦ .

(٢) سورة الرحمن: ٧ - ٩ .

(٣) سورة المطففين: ١ - ٦ .

(٤) المفردات للراغب: ٥٢١ .

وهذا ما فسَّرته الآياتُ في تعريفِ المطففين . إنهم ﴿ الذين إذا اكْتالوا على الناسِ يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ .

التطفيفُ ظلمٌ وتجاوزٌ ، والمطففُ ظالمٌ متجاوزٌ ، إذا اكتال وإذا كال ، إذا اخل ، وإذا أعطى .

وقد لاحظ هذه اللفظة الإمامُ أحمدُ بن فارس في مقاييس اللغة ، فقال : «التطفيف : نقصُ الكيال والميزان . وقال بعضُ أهل العلم : إنما سُمي نقصُ الكيال والميزان تطفيفاً ، لأن الذي يُنقصه منه يكون طفيفاً أي : قليلاً . ويقال لما فرَّقَ الإناء : الطَّفَافُ»^(١) .

الزيادةُ في الكيال والميزان تطفيفٌ ، يقال : طففَ الكيال : إذا زاد . والإنفاص منه تطفيفٌ ، يقال : طفَّفَ الكيال : إذا أنقصَ منه .

وتروحي جملة : ﴿ الذين إذا اكْتالوا على الناسِ يستوفون ﴾ بتجبرٍ وظلم المطففين ، وأنهم ذور مكانة وسلطان ورئاسة في قومهم ، والذي يوحى بهذا حرفُ الجر «على» ، الذي يدلُّ على الاستعلاء ، فهم يكتالون على الناس ، ويتجبرون عليهم ، وأمروهم بقبول مكاييلهم وموازينهم ، رغم ما فيها من بئس لهؤلاء الناس .

إن آية سورة الإسراء تأمُرُ بالتوفية في الكيل والوزن ، وتنتهى عن التطفيف فيه .

﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾ : عليكم عندما تكيلون أن تُوفوا الكيل ، وأن لا تنقصوه إذا كان عليكم ، وأن لا تزيدوه إذا كان لكم .

﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ : عندما تزنون بالميزان ، فعليكم أن تكونوا عادلين في الوزن ، فلا تأخذوا أكثرَ من حقكم ، ولا تُعطوا غيركم عندما تبيعونهم أقلُّ من حقهم .

(١) مقاييس اللغة : ٤٠٥/٣ .

القِسط هو العدل، والقِسط هو العادل، وإن الله يحبُّ المتسطين العادلين.
و« القِسطاس »: هو الميزان ، وسُمي قِسطاساً مبالغةً في وجوب تحقق
القسط والعدل فيه ، عندما يوزنُ به .

وقد وُصفَ القِسطاسُ في الآية بالاستقامة: ﴿ وزنوا بالقِسطاسِ
المتقيم ﴾ والاستقامة ضرورية له ليحقق العدلُ فيه ، ويبدو الإنصافُ
والإيفاءُ منه .

إن ميزان المؤمن الصادق قائمٌ بالقسط، فهو قِسطاسٌ مستقيم، بينما ميزانُ
المطغفُ أعرج، فهو ميزانٌ خادع، يزن بالخسران والإنقاص والبخس .

وقد قارنَ شعبٌ عليه السلام بين الميزانين وصاحبيهما ، عندما نهى قومٌ
مدين عن البخس وأمرهم بالقسط ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أولموا
الكيل، ولا تكونوا من الخسرين . وزنوا بالقِسطاسِ المستقيم ، ولا
تبخسوا الناس أشياءهم ﴾^(١) . .

معنى التأويل في السورة:

﴿ وأولموا الكيل إذا كتتم ، وزنوا بالقِسطاسِ المستقيم . ذلك خير
وأحسن تأويلاً ﴾ .

بعدما أمرت الآية المسلمين بإيفاء الكيل وإتمام الوزن ، عُبِّتْ على هذا،
بأنه خير ، وأحسنُ تأويلاً .

« ذلك » في الجملة اسمُ إشارة ، والمشارُ إليه هو المذكورُ في بداية
الآية . والتقدير: إيفاءكم الكيل والوزن هو خير .

و « خير » في الجملة أفعلٌ تفضيل ، لكنَّ التفضيلَ هنا ليس على
ظاهره ، أي: ليس هنا مفضولٌ وفاضل .

(١) سورة الشعراء: ١٨١ - ١٨٣ .

إذا كان التفضيلُ على ظاهره ، فكيف يكون المعنى ؟ هل يُعتبرُ إيفاءُ الكيلِ والوزن أفضلَ من تركه وتطفيفِ الكيالِ والميزان ؟ كلا .

إن الإيفاءَ ليس أفضلَ من الإنقاصِ والتطفيفِ؛ لأنه لا مجال للمقارنةِ أو المفاضلةِ بينهما. فالإيفاءُ واجبٌ والتطفيفُ حرامٌ ، ولا مفاضلة بين الواجبِ والحرامِ . هل نقول: إن الزواجَ أفضلُ من الزنا ؟ وإن الصلاةَ أفضلُ من تركها؟ لو فعلنا ذلك لظلمنا الزواجَ والصلاةَ ، عند مقارنتهما بأضدادهما .

السَّمُ ترَ أنَ السِّيفُ يَنْقُصُ قَدْرَهُ إذا قَبِلَ: هذا السِّيفُ أَمْضَى مِنَ العِصَا التفضيلُ هنا «ذلك خير» ليس على ظاهره، ولا تناضلٌ بين الإيفاءِ والتطفيفِ، وإنما تفضيلُ الإيفاءِ في ذاته ، لأنَّ المقصودَ الثناءَ على الإيفاءِ في نفسه ، وبيانُ قيمته ، وحثُّ المسلمين عليه . أي: الإيفاءُ فاضلٌ وخيرٌ وطيبٌ ونافعٌ وجيدٌ .

﴿ وأحسنُ تأويلاً ﴾: هذه الجملة معطوفةٌ على ما قبلها ، سبقتُ للدعوةِ إلى إيفاءِ الكيالِ والميزانِ ، والثناءِ عليه ، والترغيبِ فيه .

إن إيفاءَ الكيالِ والميزانِ خيرٌ في ذاته ، وهو أحسنُ تأويلاً .

فما معنى التأويلِ هنا؟ وهل يخرجُ عن معناه في الآياتِ السابقة التي حللناها؟ .

معنى ﴿ أحسنُ تأويلاً ﴾: إيفاءُ الكيالِ والميزانِ أحسنُ رداً ، وأحسنُ عاقبةً ، وأحسنُ مآلاً ، وأحسنُ نهايةً ، وأحسنُ إرجاعاً ، وهذا هو معنى التأويلِ الذي استعمله القرآن: « هو ردُّ الشيء إلى الغايةِ المرادة منه ، حلماً كان أو لعللاً » .

لماذا إيفاءُ الكيالِ والميزانِ أحسنُ مآلاً وعاقبةً ورداً ونهايةً ؟

تريدُ الآيةُ ترغيبَ المسلمين في إيفاءِ الكيالِ والميزانِ ، وتحسينه في عيونهم ، مع ترهيبهم من نقيضه ، وتغييرهم من التطفيفِ .

التطفيف أسوأ تأويلاً :

إن بعض المسلمين قد ينظرُ للموضوع نظرةً تجارية مادية متعجلة ، وتحركه الرغبة في زيادة المال وتحقيق المكاسب ، فتعميه هذه الرغبة عن مشاهدة آخر الطريق ، وملاحظة نهايته .

ولذلك يظنُّ أن تطفيفَ المكيال والميزان خيراً له ، وأحسنُ من الإيفاء . ولماذا لا يكون خيراً وأحسنَ عنده ؟ ألا يتجُّ عنه زيادة الكسبِ واللذعة؟ ومضاعفة الربح ؟ ألا يزداد ماله دراهمَ أو دنانير؟ ألا يزدادُ وزنُ سلعته غرامات أو كيلوات؟ اليس هذا خيراً له وأحسن ؟

أما عندما يورثي المكيالَ والميزانَ فإنه يفقدُ هذه المكاسبَ المادية ، ويخسرُ هذه الأرباحَ الطائلة ! تنقصُ أمواله ، ويقلُّ دخله ، وهل هناك تاجرٌ ذو حسٍّ تجاري ، ورغبةٍ في الربح ، يرضى أن يفقدَ هذه المكاسب ، ويترك استغلال هذه الفرص ؟ مع أن التجارة « شطارة » !!

تُرَدُّ الآية على هذه التبريرات النفسية ، فنقول للتاجر: ليس الأمرُ كما حدثتكَ نفسك الطامعة في الربح والكسب ، ولو على حساب الآخرين . إن تطفيفك للمكيال والميزان ، وحصولك على كسبٍ أكثر ، وريح أعلى ، ليس خيراً لك في النهاية . هو خير لك الآن ، لكن ما هي عاقبته عليك؟ ماهي نهايته ؟ أي: ما هو تأويله ؟ وما هي صورته الفعلية الواقعية التي يتهي إليها ، ويستقرُّ عليها ؟

إن الله لن يبارك له تجارته التي تقومُ على تطفيفِ المكيال والميزان. وإن الله لن يوفقه في حياته طالما أنه جنى كسباً حراماً ، وأضاف إلى رصيده ما لا حراماً .

ماذا سيحصلُ له عندما يطففُ المكيالَ والميزان ؟ سيقلدُ الله كراهيته في قلوب « الزبائن » لتلاعبه في الميزان ، وظلمه لهم ، ونهبه لأموالهم ، وبهذا سينصرفون عنه ، وستقلُّ صفقاته التجارية ، أي سقلُّ أرباحه ،

رستُصَابُ أمواله وتجارته بالركود . هذا هو « تأويلُ » تطفيهِ المكيالِ
والميزانِ ، وهذه هي عاقبةُ ونهايةُ ذلك !

ثم إنَّ اللهَ قد يبتلي هذا التاجرَ المطفئَ بابتلاءاتٍ شديدةٍ ، في نفسه
واسرتهِ وممتلكاته ، فيدفعُ أضعافَ أضعافٍ ما حصله من مالٍ وريحِ حرامٍ ،
عن طريقِ تطفيهِ المكيالِ والميزانِ .

كم زاد رصيدهُ من التطفيهِ والتلاعبِ ؟ مائة ديناراً ؟ أو ألفَ دينارٍ ؟
فليكن . لكن ليَنتظرُ « تأويلُ » هذه الزيادةَ المحرمةَ ، قد يصيهُ اللهُ بمرضٍ
خطيرٍ ، هو أو أحدِ أفرادِ أسرتهِ ، فيدفعُ لعلاجهِ آلافَ الدنانيرِ . فهل
كان تأويلُ التطفيهِ خيراً أو شراً ؟

وقد يُصابُ بحادثٍ لسيارتهِ ، فتضربُ بذلك كثيراً ، فيدفعُ لإصلاحِها
مئاتٍ أو آلافِ الدنانيرِ وهذا هو تأويلُ تطفيهِ ميزانه !

وقد تُصيبَ تجارتهِ آفةٌ أو جائحةٌ ، كأنَّ يحترقَ محلُّه التجاري ، أو
يسطوَرُ عليه اللصوصُ ، فيدفعُ آلافَ الدنانيرِ للإصلاحِ والتعويضِ . وهذا هو
تأويلُ التطفيهِ .

هذه الأخطارُ التي تحدقُ به في الدنيا ، أما يومَ القيامةِ فماذا ينتظرُه هناك
من أخطارٍ ؟ وماذا أُصدُّ اللهُ له من عذابٍ ؟ مقابلِ التطفيهِ والتلاعبِ ،
وأكلِ أموالِ الآخرينِ ؟ وهذا هو تأويلُ التطفيهِ ، وبيانُ عاقبتهِ السيئةِ
ونهايتهِ الأليمةِ !

أبعدُ كلُّ هذه الأخطارِ ، ما زالَ بعضُ التجارِ يظنُّ أنَّ التطفيهِ خيراً
وأحسنُ تأويلاً له ؟ لا بدُّ أن يمدُّ عينه بعيداً ، ليرى هذه الأخطارَ التي
تحدقُ به في الدنيا والآخرةِ ، ويقفَ على « تأويلِ » هذا التطفيهِ ،
ويلاحظَ صورتهِ النهائيةِ ، وعاقبتهِ الماديةِ .

بعد هذا الردُّ للتطفيهِ إلى عاقبتهِ ، سيقولُ ذلك التاجرُ بما تقرره الآيةُ :
إنَّ عدمَ إيفاءِ الكيلِ تطفيهِ ، وإنَّ عدمَ الوزنِ بالقسطاسِ تطفيهِ ، وهذا
التطفيهِ شرٌّ ، وهو أسوأُ تأويلاً ، وأسوأُ عاقبةً ونهايةً ورداً ومآلاً !!

إيفاء الكيل والميزان أحسن تأويلاً :

هذا في الجانبِ السلبى القائم على التظنيف ، أما في الجانبِ الإيجابي المشرق ، فإنَّ إيفاءَ الكيل ، والوزنَ بالقسطاس ، هو خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ، وأحسنُ عاقبةً ومآلاً ورداً ونهايةً ، في الدنيا وفي الآخرة! فكيف كان ذلك؟ وكيف يُحسنُ التاجرُ تأويلَ التزامه بأخلاقيات التجارة؟ وكيف يلاحظُ عاقبةً ومآل ذلك ؟ .

إنَّ اللهَ سيباركُ له في تجارته ، ويوفِّقُه في حياته ، ويرزُقُه الهناء والسعادة ، والرضى بالقضاء ، والقبولَ عند الناس .

إيفاءُ الكيل والوزن أحسنُ تأويلاً ورداً في الدنيا:

سيحبهُ « الزبائن » ، ويحرصون على التعامل معه ، والشراء منه ، وبهذا تزدادُ مبيعاته ، وتكثرُ صفقاته ، وبذلك تزدادُ أرباحه ، وعندنا يدركُ أنَّ هذه الخيراتِ كلها تأويلٌ وعاقبةٌ لالتزامه .

وسيباركُ الله في حياته ، وسيعافيه هو وأسرته من الأمراض والابتلاءات ، وبذلك سيوفرُ الكثيرَ من الأموال ، التي كان سينفقها على مواجهةِ الأمراض وتكاليف العلاج ، وهذا تأويلٌ لالتزامه .

وسيحفظُ الله له تجارته ، ويحميها من الأفاتِ والكوارث ، وهذا تأويلٌ لالتزامه .

هذا في الدنيا ، وفي الآخرةِ فإنَّ اللهَ يعدُّ له حُسْنَ الجزاء والثواب ، ويمتعه في جناتِ النعيم ، ويمتُنُّ عليه بالرضى والرضوان ، وهذا تأويلٌ لالتزامه .

إن هذا التاجرَ الصادقَ لم يكنْ ضيقَ الأفق ، قصيرَ النظر ، كذلك التاجرَ الطغف ، وإنما امتدَّ بصره للمستقبل ، ورأى عاقبةً ومآلَ الالتزام بتوجيهات الإسلام ، فاستعلى على وساوسِ النفس لتظنيفِ المكيا

والميزان، وسعى لإيفاء الكيل ، وإتمام الوزن ، راغباً في حُسن تأويل ذلك، حريصاً على نيل عاقبه السعيدة ، ومآله المطلوب ، ونهايته المرضية،
في الدنيا والآخرة 11

هذا هو معنى التاويل ، لمن يوفي المكيالَ والميزان ، وهذه هي عاقبة ونهاية ذلك التصرفِ الجميل .

إنَّ التاويلَ في سورة الإسراء تأويلٌ للمكيال والميزان ، تأويلٌ ناتجٌ عن حسن التزام توجيهات القرآن ، المتعلقة بالكيل والوزن ، تأويلٌ يُلحظُ فيه عاقبة ونهاية هذا الأمر ، والرغبة في مآله وغايته .

وهذا هو المعنى المتفقُ مع ورودِ التاويل في باقي السور .

البطلم السادس

مع التاويل في سورة النساء

وردة التاويل مرة واحدة في سورة النساء ، وذلك في سياق الأمر بالحكم بشرع الله ، وطاعة أولي الأمر من المسلمين ، وذم المنافقين الذين يرفضون الاحتكام إلى شرع الله ، ويريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت .

قال تعالى: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعيمًا يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً ، ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ (١) .

المعنى الإجمالي للآيات :

يأمر الله المسلمين أن يؤدوا الأمانات - على إطلاقها وعمومها - إلى أهلها ، وأن يحكموا بين الناس - كل الناس - بالعدل والقسط ، وأن لا يظلموا ولا يجوروا في أحكامهم ، وهذه الأوامر من الله ، فهي أوامر مدوحة طيبة خيرة نالمة ، والله سميع لما يقولون وما ينطقون به من أحكام عندما يُصدرونها ، وهو بصيرٌ بهم براءم وهم يتحركون ويتقلون ، لأداء الأمانات أو إصدار الأحكام ، فلا بد أن يستحضروا رقابة الله عليهم ،

(١) سورة النساء: ٥٨ - ٦٠ .

وسمّته لكلامهم ، وبصره بهم ، ليحرصوا على تنفيذ هذه الأوامر .

وقد يختلف المسلمون فيما بينهم في تحديد الأمانات التي تؤدى ، وفي تحديد العدل عند إصدار الحكم ، فلا بد من أصل يرجعون إليه ، ومن ميزان يزنون فيه ، ومن حكم يحتكمون إليه ، وذلك ليردوا إليه المتنازع فيه ، طلباً للحق ، وإنهاءً للخلاف ، وابتغاءً للصواب ا

فما هو هذا الميزان والحكم والأصل ؟ تحلّه الآية الثانية بأنه « شرع الله المتمثل في كتابه الكريم وسنة رسوله العظيم ﷺ ، ولذلك تأمر الآية المسلمين بطاعة الله وطاعة رسوله وأولي الأمر: ﴿ يا أيها الذين آمنوا: أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولي الأمر منكم ﴾ .

ونرى أن الآية كررت فعل « أطيعوا » مرةً ثانية عند الأمر بطاعة الرسول ، وذلك للتأكيد على أن طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام من طاعة الله ، ولأن هديه وسنته وسيرته مصدران من مصادر التشريع الاسلامي ، بعد القرآن الكريم .

نرى أن كل فعل يشير إلى مصدر مستقل من مصادر التشريع:

﴿ أطيعوا الله ﴾ : الإشارة إلى القرآن ، المصدر الأول للتشريع .

﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ : الإشارة إلى السنة ، المصدر الثاني من مصادر

التشريع الإسلامي . .

وطاعة الله مطلقة ، وطاعة الرسول أيضاً عليه الصلاة والسلام مطلقة ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يأمر بمعصية .

أما طاعة أولي الأمر من المسلمين فهي مقيّدة بقيلتين:

الأول: أن لا يأمروا بمعصية ، فتطيعهم الرعية عندما يأمرون بالطاعة والخير والبر ، لكنها لا تطيعهم عندما يأمرون بالمعصية ، ولهذا اسقط فعل

« اطيعوا » من الجملة الثالثة ، وعُظمتْ على « الرسول » : ﴿ اطيعوا الله ، واطيعوا الرسول ، وأولي الأمر منكم ﴾ .

الثاني: أن يكونوا من المسلمين ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ ، وليس معنى هذا أن يكونوا من المسلمين بمجرد الانتساب ، بل أن يكونوا من المسلمين قولا وفعلا وسلوكاً وتصرفاً ، وبما أنهم اولو الأمر ، وأصحاب الحكم ، فيجب أن يتفقدوا شرع الله ، ويطبقوا حكم الله ، ولا يجوز أن يقرؤا تشريعاً أو قانوناً أو نظاماً يتعارض مع حكم الله ، فإن فعلوا ذلك واحتكموا إلى غير شرع الله لم يمدوا من المسلمين الصادقين ، وبذلك فقدوا حقهم على الرعية في الطاعة .

الرد إلى الله ورسوله:

وبعدما تعرفنا الآيات المسلمين حكاماً ومحكومين على الميزان والحكم والأصل ، وهو حكم الله ورسوله ، تدلهم على طريفة حل نزاعاتهم الاجتهادية ، وحل خلافاتهم الاجتهادية ، وذلك بأن يردوا المتنازع فيه من الأمور والمسائل والقضايا إلى حكم الله ورسوله .

وذلك حيث تقول: ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ وفي هذا دليل على جواز التنازع والاختلاف في المسائل الاجتهادية ، وجواز تعدد الآراء ، وتباين وجهات النظر ، في المسألة الواحدة ، طالما أنه ليس فيها نص شرعي ، وطالما أن هدف المختلفين المتنازعين المجتهدين مصلحة الأمة ، وتحري الصواب .

يجوزُ التنازعُ « الأخوي » الاجتهادي بين الرعية فيما بينها ، ويجبُ على الأفراد المتنازعين رد الأمر المختلف فيه الى الله ورسوله .

ويجوزُ التنازعُ « الأخوي » الاجتهادي بين الرعية وحكامها ، ويجوزُ أن يقفَ شخصٌ من أفراد الأمة أمام الحاكم ، ليقول له - بادب واجتهاد :-

٧. ويجب ردُّ المختلف فيه بين الرعية والحاكم إلى الله ورسوله .

لا يجوز لولي أمر المسلمين أن يمنع الآراء المخالفة لرأيه ، ولا أن يُصدرها ، ولا أن يُؤذي أصحابها ، ولا أن يحرص على جعل الناس كلهم ظلاً له ، تابعين لرأيه ، بل يجب عليه أن يسمح بتعدد الاجتهاد ، وتعدد الآراء ووجهات النظر ، ووجود أفراد في الأمة مخالفين له في اجتهاده .

في هذه الحالة يجب على المختلفين المتنازعين المجتهدين من الحكام والمحكومين أن يبحثوا عن حل نهائي للمسائل الخلافية ، وأن يحتكموا إلى « حكم » يُتَّهَم النزاع ، وأن يردوا إليه الأمر ، وأن يلتزموا بحكمه .

هذا الحكم ، هو الأصل والميزان ، إنه شرعُ الله ، المتمثل في القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ : « فإن تنازعتم في شئ ، فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

وثرغَبُ الآية المسلمين حكاماً ومحكومين بالردِّ إلى الله ورسوله ، وتبيين عاقبته الجيدة فيهم ، فتقول: « ذلك خير وأحسن تأويلاً » .

و « ذلك » اسمُ إشارة ، و المشارُ إليه هو المذكورُ في الجملة السابقة ، وهو ردُّ المتنازع فيه إلى كتابِ الله وسنة رسوله ، لهذا الردِّ والاحتكامُ فيه إلى الأصل خيرٌ وبركة !

والفعلُ التفضيل في « خير » ليس على ظاهره . أي لا يوجد في المسألة فاضلٌ وأفضلٌ منه . فالردُّ إلى كتابِ الله وسنة رسوله ليس خيراً من عدم الردِّ إليها ، وليس أفضلٌ من تركِ الردِّ إليها ! فإنَّ عدمَ الردِّ إليها شرٌّ خالص ، وباطلٌ محض ، ليس فيه ذرةٌ خيرٍ أو نفع !

إنما يرادُ بيانُ فضل الردِّ في ذاته ، دون التفاتٍ إلى تفضيله على غيره ، إن ردَّ الأمر المتنازع فيه إلى الله ورسوله أحسنُ عاقبةً ورداً ، وأحسنُ مرجعاً ومآلاً ، وأحسنُ نهايةً وحكماً ، وأحسنُ علاجاً وحلاً .

ولا يوجدُ مسلمٌ صالحٌ حاكماً أو محكوماً يرفضُ الاحتكامَ إلى الله ورسوله، ويأبى ردَّ المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ، بما أن هذا الاحتكام والردُّ هو خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ومرجعاً وقضاءً .

لكنَّ المنافق أو ضعيفَ الإيمان ، يرفضُ هذا الاحتكام والرد ، ويأبى الخضوعَ لحكم الله ورسوله ، ويسمى إلى حكم الطواغيت ، ويقبلُ بحكم البشر المتناقض لحكم الله ورسوله ، ويكون بذلك قد فقدَ إيمانه ، وأغضبَ ربه ، وعصى نبيه، وأطاعَ شيطانه .

ولهذا تتعجبُ الآيةُ التالية من موقف المنافقين ، الراغبين في الاحتكام إلى الطاغوت ، الرافضين لحكم الله ورسوله : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ .

شأن بين ردِّ وردِّ ، وبين تأويل وتأويل ، شأن بين ردِّ المؤمنين المتنازع فيه إلى الله ورسوله ، الذي هو خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ، وبين ردِّ المنافقين المتنازع فيه إلى الطاغوت ، الذي هو شرٌّ وأسوأ تأويلاً !!

معنى التأويل في الآية:

التأويلُ هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه ، علماً أو فعلاً .
وتقدمُ الآية لنا الميزان الذي نزنُ به ، والمرجع الذي نرجعُ إليه ، والأصل الذي نردُّ إليه الأمور المختلف فيها: ﴿ يا أيها الذين آمنوا: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ ، فردوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾ .

هناك أمورٌ متنازعٌ فيها بين المسلمين ، ليس فيها نصٌّ صريحٌ يزيلُ المتنازع

ويحلُّ الإشكال . فكيف يزال التنازع ؟ وما المرجعُ الذي يرجعون إليه ؟ وما الأصلُ الذي يتحاكمون إليه ؟

ما هو تأويل ذلك الأمر المتنازع فيه ؟ بمعنى: ما هي حقيقة ذلك الأمر؟ وما هو الراجحُ فيه من الأقوال والآراء المقدمة ؟ أي رأي منها يوافق الحقَّ والصواب؟ ومَن الذي يقرُّ ذلك ؟ ومَن هو المؤهلُّ للحكم فيه ؟ ومَن هو الصالحُ للردِّ إليه ؟ ومَن هو المؤكِّلُ الموضوع ، ويقدمُ حقيقته الراجحة الصحيحة ؟

إنه رسولُ الله ﷺ في حياته ، وكتابُ الله وسنة رسوله ﷺ بعد قبضه، وهذا ما صرَّحت به الآية: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَبِيرٌ وَاحِسٌ تَأْوِيلًا ﴾ .

﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ : رَدُّوا الأَمْرَ المتنازع فيه إلى اللَّهِ والرَّسُولِ ، أي رَدُّوه إلى كِتَابِ اللَّهِ وسُنَّةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

أي: أوكُوا المتنازعَ فيه ، وابتحنوا عن حلِّ نهائي له ، واذهبوا إلى مَنْ يُؤَوِّله ، ويريكُم حقيقته ومآله ، ومرجعَه ونهايته ، رَدُّوه إليه لِيُؤَلِّه لَكُمْ

وإذا كان التأويلُ هو ردُّ الشيء إلى غايته ، عرفنا حكمة الأمر بالردِّ في الآية: ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ : فَمُنَّمُوهُ إِلَى الْمِيزَانِ الصَّحِيحِ ، المتمثل في كتابِ اللَّهِ وسنة الرَّسُولِ ، لِيَتِمَّ تَأْوِيلُهُ ، وتُعرفَ حقيقته .

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ : رَدُّ المتنازع فيه إلى المِيزَانِ والمرجعِ والأساسِ والأصلِ ، إلى كتابِ اللَّهِ وسنة رسوله ، خَيْرٌ وبركةٌ وصوابٌ .

﴿ وَاحْسِنِ تَأْوِيلًا ﴾ : احْسِنُ رَدًّا ، وعاقبةً ومآلاً ، ونهايةً ومرجعاً وحلاً ، وحكماً وبياناً .

سبب نزول الآية:

أوردَ الإمامُ ابنُ كثيرٍ في تفسيره بعضَ الرواياتِ في سببِ نزولِ هذه الآية ، منها:

١ - ما أخرجه البخاريُّ عن ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما قال: نزلَ قوله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ في عهدِ اللهِ بين حذافةِ السُّهْمِيِّ ، إذ بعثَ رسولُ اللهِ ﷺ في سرية .

٢ - وما أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه قال: بعثَ رسولُ اللهِ ﷺ سريةً ، واستعملَ عليهم رجلاً من الأنصارِ ، فلما خرجوا ، وَجَدَ عليهم في شيءٍ (أي: غضبٍ منهم بسببِ خلافٍ بينهم وبينه ، فأرادَ أن يعاقبهم) فقال لهم: أليس قد أمركم رسولُ اللهِ ﷺ أن تطيعوني ؟

قالوا: بلى .

قال: فاجتمعوا لي حطباً .

ثم دعا بنارٍ فأضرمَها فيه .

ثم قال لهم: عَزَمْتُ عليكم لتَدْخُلُنَّهَا !

فقال لهم شابٌّ منهم: إنما سررتم إلى رسولِ اللهِ ﷺ من النارِ ، فلا تدخلوها حتى تلقوا رسولَ اللهِ ﷺ ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها .

فرجعوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، فأخبروه ، فقال لهم: (لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً !! إنما الطاعة في المعروف)^(١) .

تدلُّ هذه الحادثة على معنى الردِّ والتأويلِ وحدودِ الطاعة في الآية ، الآية تامرُ بطاعةِ الله ورسوله ووليِّ الأمرِ ، لكنَّ طاعةَ وليِّ الأمرِ مقيدةٌ

(١) انظر تفسير ابن كثير: ٥٦٦/٢ - ٥٦٧ .

بتفيل الأوامر الشرعية .

فهذا الأنصاري أميرُ السرية قد غضبَ من أصحابه ، وتنازَعَ معهم وتنازَعوا معه في شيء ، فأخذته صفاته البشرية من الضعفِ واستغلالِ المنصبِ وحبِّ الانشقاقِ ، وهي أخطاءٌ بشريةٌ تعشري البشرَ ولو كانوا صالحين ، فأمرهم بإلقاءِ أنفسهم في النارِ تنفيلاً لأمره .

هل يتفقدون الأمر ، ويُلقون أنفسهم فيها ؟ بعضهم همُ بذلك من بابِ الطاعة والالتزام !!

ولكن ذلك الشابُ الذكيُّ منهم أعادَ الأمرَ إلى الميزانِ ، ورَدَّ المسألة إلى الأصلِ : كيف تلقون أنفسكم فيها ، وأنتم أسلمتم واتبعتم الرسول ﷺ لئيجبكم اللهُ منها؟ لا تفعلوا ! وعندما نرجعُ للرسول عليه الصلاة والسلام نعرفُ حكمته في المسألة ، وننقذه ، فإن أمرنا بذلك لعلنا !!

إن هذا التفكيرَ المنهجيَّ العلميَّ من هذا الشابِ الصحابيِّ هو بحثٌ عن تاويل أمر الأمير الغاضب ، وسعيٌ لمعرفة حقيقَةِ الأمر ، والوقوفِ على مآله وعاقبته ونهايته .

ولللك طالبٌ بردُ الموضوع إلى الأصل ، والاحتكام إلى المرجع والحكم ، وهو رسولُ الله ﷺ ، وهذا هو معنى التاويل في الأسلوب القرآني .

لقد أوكلَ لهم رسولُ الله ﷺ الأمرَ المتنازعَ فيه والمختلفَ عليه مع الأمير الغاضب ، وأصدرَ حكمته فيه ، وذلك عندما قال لهم : لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً .

فلو نفذ جنودُ السرية أمرَ الأمير الغاضب ، ألقوا أنفسهم في النار من بابِ طاعة وليِّ الأمر ، لكن فعلهم أعظمُ شراً ، وأسوأ تأويلاً وتنفيلاً ورداً وتطبيقاً وعاقبة ، حيثُ يدخلهم اللهُ نارَ جهنم ، ولا يخرجهم منها ! ولكنهم احتسبوا عندما أحالوا الأمرَ المختلفَ فيه على رسولِ الله ﷺ ،

فبيّن لهم الصوابَ والحقيقة ، وهذا تأويلٌ من الرسول عليه الصلاة والسلام للامر المتنازع فيه ، وفعلهم هذا هو خيرٌ واحسنُ تأويلاً وعاقبةً ومآلاً وغايةً .

ثم أرسى رسولُ الله ﷺ القاعدة الدائمة للمسلمين من بعده حتى قيام الساعة ، وقدمَ لهم الأساسَ والميزانَ في صلةِ المحكومين بالحكام والرعية بالراعي .

هذا الأساسُ والميزانُ في قوله تعقيباً على الحادثة: (إنما الطاعة في المعروف).

طاعة وليّ الأمر المسلم الصالح واجبة ، وتنفيذ أوامر الحاكم المسلم الصالح واجب ، لكنّ على شرط أن يأمر بالواجب والمعروف ، أما إذا أمر الحاكم بمعصيةٍ ومنكرٍ وحرام ، فعتدنا ثلغى طاعته ، ويحرم تنفيذ أمره ، ولا سمح له ولا طاعة ، لأنّ الطاعة في المعروفِ الحلال .

فهذه الجملة المحدثّة من رسول الله ﷺ « إنما الطاعة في المعروف » هي الميزانُ والأصلُ ، والقاعدةُ والأساس ، يَرجعُ إليها المسلمون في حلِّ خلافاتهم مع حكامهم ومسؤوليهم وولاةِ أمورهم، ينظرون إلى أوامر مسؤوليهم من خلالها، ويتعاملون مع حكامهم على أساسها ، فينقلون من تلك الأوامر ما اتفق معها ، ويرفضون تنفيذ ما تعارضَ معها ||

وإعادة المسلمين لأوامر وتعليمات مسؤوليهم وحكامهم إلى هذه القاعدة النبوية، هو ردُّ إليها ، وحملٌ عليها ، أو: هو تأويلٌ لتلك الأوامر على أساس هذه القاعدة .

وهذا تطبيقٌ لقوله تعالى: ﴿ فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ ||

المطلب السابع

مع التاويل في سورة آل عمران

وردّ التاويل مرتين في سورة آل عمران ، والمرتان ذكرتا في آية واحدة ، وهذه الآية في سياق آيات أخرى ، تحدثُ عن المحكم والمتشابه في القرآن ، وموقفَ فريقين من المتشابه ، فريق الذين في قلوبهم زيغ ، الراغبين في الفتنة ، وفي تاويل المتشابه ، وفريق الراسخين في العلم المعترفين بمجزهم عن تاويل المتشابه ، حيث يُستدون العلم بتاويل المتشابه إلى الله وحده .

قال تعالى: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ ، فيستحبون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الأبواب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه . إن الله لا يخلف الميعاد ﴾^(١) .

المعنى الإجمالي للآيات:

ما من مفسرٍ للقرآن إلا وقد وقفَ أمامَ هذه الآيات وقفةً مطوّلة ، واستطرّدَ في الكلام عن ما تشيّرُ له الآيات ، وتوسّعَ في الكلام عن المحكم والمتشابه في القرآن ، وعن تاويل المتشابه وكيفيته وإمكانيته وضوابطه .

واختلفت الأفهامُ كثيراً في هذه الموضوعات ، وتعددت الآراء ، وتباينت وجهاتُ النظر ، وكلُّ رأيٍ يدّعي صاحبه اعتمادَه في على هذه الآيات .

ولا يعني استعراضُ هذه الآراء المتعارضة ، وحجج أصحابها ، إنما نريدُ

(١) سورة آل عمران: ٧ - ٩ .

ان ننظرَ في معنى التأويل المذكور. فيها ، ونربطه مع معنى التأويل الوارد في
السور الأخرى الذي عرضناه من قبل

يُقرُّ اللهُ حقيقةَ إزالِ القرآنِ على محمدٍ ﷺ: ﴿ هو الذي أنزل عليك
الكتاب ﴾ . وفي هذه الجملة إثباتُ ان القرآنَ كلامُ الله ، وأن محمداً
رسولُ الله ﷺ ، تلقى القرآنَ من عند الله عن طريق الوحي .

وتقسم الآية آياتِ القرآنِ إلى قسمين: ﴿ منه آياتٌ محكماتٌ - من أم
الكتاب - وآخر متشابهات ﴾ .

« منه »: من: حرف جر ، تدلُّ على معنى التبويض ، وتفيد التفسير .
والضمير « الهاء » فيها ، يعودُ على القرآنِ . أي من القرآنِ آياتٌ محكماتٌ ،
ومنه آياتٌ متشابهات .

﴿ آياتٌ محكماتٌ ﴾: من « الإحكام » وهي اسمُ مفعول .

﴿ من أم الكتاب ﴾: هذه جملةٌ معترضة ، جيء بها لوصف الآياتِ
المحكمات من القرآنِ بأنهن أمُّ الكتابِ . ولتقرير حقيقةٍ في فهم الآياتِ
والمشابهات .

وأساسُ معنى « الأم » هو: الأصلُ والمرجع ، فأُمُّ الطفل هي أصله ،
ومرجعُه الذي يرجعُ إليه ، وأمُّ الجيش رايته التي يرجعُ الجنود إليها ، وأمُّ
الرأس الدماغ ، الذي يسيطر على الجسم ويحركه .

وأمُّ القرآن هي الفاتحة ، التي هي أساسُ وأصلُ القرآن ، وكلُّ معاني
القرآن ترجعُ إليها ، وتنبثقُ منها .

ووصفت الآية الآياتِ المحكمات بأنهن أم الكتاب: ﴿ من أم الكتاب ﴾
بالمفرد ، ولم تقل: هُنَّ أمهات الكتاب بالجمع . لأن الآياتِ المحكمات
كلها أمُّ الكتاب ، فيُنظرُ إليهن بمجموعهن على أنهن أم، ولا يُنظرُ لكل آيةٍ
على حدة .

﴿ وآخر متشابهات ﴾: هذا هو القسم الثاني من آيات القرآن ، وهو الآيات

المشابهات، و « مشابهات » اسمُ فاعل من التشابُه ، وهو التماثل .

وبعدما ذكرت الآية هذين القسمين من آياتِ القرآن ، ذكرتُ اختلافَ نظرةِ الناس إلى الآياتِ المشابهات . فمنهم مَنْ يتبعها بهدفِ الفتنةِ والرغبةِ في تأويلها، وهؤلاء هم الذين في قلوبهم زيغٌ، ومنهم مَنْ لا يعلم تأويلها، ويَكِلُ علمَ تأويلها إلى الله ، ويُسَلِّمُ بعجزه هو ، وهم الراسخون في العلم، الذين يؤمنون بأنَّ المحكماتِ والمشابهاتِ آياتُ القرآن من عند الله .

﴿ فاما الذين في قلوبهم زيغٌ ، فيتبعون ما تشابه منه ﴾ : هؤلاء متبعو المشابه من القرآن ، وهم المفتونون ، الذين في قلوبهم زيغٌ وانحرافٌ ، وميلٌ عن الحق ، واتباعٌ للباطل .

﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ : اسم الموصول « ما » في محلِّ نصبٍ مفعولٍ به . والضمير في « منه » يعودُ إلى القرآن . أي: هؤلاء الزائفون يتبعون المشابهة من آياتِ القرآن .

﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ : تبيهُ هذه الجملة هدفَ هؤلاء الزائفين من اتباع المشابه، وهو طلبُ الفتنة .

و « ابتغاء » في الجملة: مصدرٌ منصوبٌ لأنه مفعولٌ لأجله . فهم يتبعون المشابهة لأجل الفتنة .

والفتنة هي التمويهُ والتلبيسُ والابتعاد عن الحق . فهم في أنفسهم مفتونون ، لأنهم وقعوا في الشبهات ، والتبست عليهم الأمور ، وساروا مع الباطل والهوى والشيطان .

فم هم يريدون أن يفتتوا الآخرين ليكونوا مثلهم ضالين ، يُريدون أن يوقعوهم في الشبهات، وأن يُموِّهوا عليهم الحقائق ، وأن يُعموهم عن رؤية الحق ، وأن يلبسوا عليهم الأمور .

﴿ وابتغاء تأويله ﴾ : هذا هو هدفُ الزائفين من اتباع المشابه ، وهو

أنهم يريدون تأويله ، ويحرصون عليه .

والهاء في « تأويله » لا تعودُ إلى القرآن كله ، وإنما تعود على المشابه منه ، هذا المشابهُ المذكورُ في جملة « فيتبعون ما تشابه منه » وهو اسمُ الموصول وصلته في الجملة .

والمعنى يتبعون المشابهَ من القرآن بهدفِ تأويل ذلك المشابه .

وبعد أن بينت الآية هدفَ الزائغين ، وهو نشرُ الفتنة من خلال تأويلهم للمتشابه ، بينتُ أن تأويل المشابه مقصورٌ على الله ، فقالت: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

والجملة حصرتُ تأويل المشابه ، وقصرته على الله ، بأداتي الحصرِ والقصر: ﴿ ما ﴾ و ﴿ إلا ﴾ .

والهاء في ﴿ تأويله ﴾ تعودُ على المشابه ، كما عادت عليه الهاءُ الأولى في ﴿ ابتغاء تأويله ﴾ .

ومعنى الحصر والقصر في الجملة ، أنه لا يعلم أحدٌ من البشر تأويلَ المشابه ، لأنه لا يعلمُ تأويله إلا الله .

وبعدما ذكرت الآية الفرعَ الأولَ الراغبَ في تأويل المشابه ، طلبا للفتنة ، ودمثهم بسبب ذلك ، بينتُ موقفَ الفرعِ الآخر ، الذين لا يخوضون في تأويل المشابه ، والذين يكِلون علمَ تأويله إلى الله ، ومدحتهم ، ووصفتهم بصفةِ الرسوخ في العلم ، فقالت: ﴿ والراسخون في العلم يقولون أئنا به ، كل من عند ربنا ﴾ .

الراجع في سياق الجملة أن الواوَ في ﴿ والراسخون ﴾ حرفُ استئناف ، والجملة ليست معطوفة. أي ﴿الراسخون﴾ ليس معطوفاً على لفظِ الجلالة ﴿الله﴾ .

وليس وضعُ الجملة هكذا: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾ .

الراجحُ أن الوقفَ لازمٌ على لفظ الجلالة . ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .
وما بعدها جملة استئنافية تقرُّ معنى جديداً ، وهو موقفُ الراسخين في العلم من تأويل المشابه . وهي جملة خبرية . ﴿ الراسخون ﴾ مبتدا .
والجملة الفعلية ﴿ يقولون آمنا به ﴾ في محل رفع خبر . أي: الراسخون في العلم قائلون آمنا به كلُّ من عند ربنا .

وبينما ذمَّت الآية الزائحين لرغبتهم في تأويل المشابه، فقد مدحت الراسخين في العلم لعدم خوضهم في تأويل المشابه، واعتراهم بالعجز عن تأويله ، وقصرهم تأويله على الله ، وإحلاصهم الإيمان بالقرآن كله وأن قسمه من المحكم والمشابه هما من عند الله: ﴿ يقولون: آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ .

ووصفت الآية الراسخين في العلم وصفاً آخر ، مادحة لهم ، فقالت: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ . فهم أولو الباب ، وأصحاب عقول كبيرة، ولذلك عرفوا حكنهم في التعامل مع الآيات للتشابهات ، فلم يجاوزوه ، وعرفوا عجزهم عن تأويلها ، فأمنوا بها أنها من عند الله .

ثم عرضت الآيات الثالوثان دعاءً يدعو به الراسخون في العلم أولو الألباب ، ويطلبون من الله فيه أن يثبتهم على الحق ، وأن لا يزيغ قلوبهم كما أزاغ قلوب متبعي المشابه: ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الرهاب ﴾ .

وأعلنوا إيمانهم بقدم يوم القيامة: ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ .

مناسبة نزول الآيات:

قبل أن نتحدث عن معنى التأويل المذكور مرتين في هذه الآيات ، واختلاف العلماء فيه ، وقبل أن نقدم بعض اللطائف والدلالات من

الآيات، نحب أن نتعرفَ على مناسبةٍ وسببِ نزولِ هذه الآيات ، لأن معرفة مناسبةِ النزولِ تعين على فهم صحيح للآية .

روى محمد بن إسحاق في السيرة أن مطلعَ سورة آل عمران نزلَ في قُدومِ وفدِ نصارى نجران على رسول الله ﷺ في المدينة ، وجدالهم معه بشأن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام .

وقد كان الوفدُ مكوناً من ستين رجلاً ، وكان رؤسائهم ثلاثة:

العاقبُ واسمه عبدُ المسيح ، وهو أميرهم .

والسيد ، واسمه الأنيب ، وهو صاحبُ رَجَلِهِم ومجتمعهم .

وأبو حارثة بن علقمة ، وهو أسقُفُهُم وخبيرهم وإمامهم .

وروى محمد بن إسحاق تفاصيل قصتهم مع رسول الله ﷺ ، عن محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام رضي الله عنهم .

قال محمد بن جعفر بن الزبير:

لما قدِمَ وفدُ نصارى نجران على رسول الله ﷺ في المدينة ، دخلوا عليه مسجنته بعد أن صلى العصر ، عليهم ثيابٌ جَبَّ وأرديةٌ وبُرود ، وكانوا ذوي هيئةٍ وجمال .

فلما رآهم بعضُ الصحابة قالوا: ما رأينا بعتهم وفدًا مثلهم .

ولما حانت صلاتهم ، قاموا يصلون صلاتهم النصرانية في المسجد النبوي،

فقال عليه الصلاة والسلام: دعوهم يصلون فصلوا نحو المشرق!!

فكلمَ رسولَ الله ﷺ رؤسائهم الثلاثة العاقب والسيد وأبو حارثة .

وقالوا له: إن عيسى هو الله ، وهو ابنُ الله ، واللهُ ثالثُ ثلاثة .

واحتجوا على أن عيسى هو الله ، بأنه كان يُحيي الموتى ، ويسرى

الأسقام، ويُخبرُ بالغيوب ، ويخلقُ من الطين كهيئة الطير ، فينفخُ فيه

فيكون طيراً .

واحتجوا على أن عيسى ابنُ الله بأنه لم يكن له أب ، وأنه قد تكلمَ في المهد .

واحتجوا على أن الله ثالثُ ثلاثة ، بقوله: فعلنا ، وأمرنا ، وخلقنا ، وقضينا ، ولو كان الله واحداً لقال: فجعلت ، وقضيت ، وأمرت ، فالثلاثة هم: الله ، وعيسى ، ومريم !!!

وقالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: إن القرآن قد نزلَ بذلك، وقد قال بذلك، وقد دلتْ آياته على أن عيسى هو الله، وهو ابنُ الله ، وهو ثالثُ ثلاثة .

فردَّ عليهم رسولُ الله ﷺ ، وأبطلَ مزاعمهم ، وأزالَ شبهاتهم .
ثم قال للخبرين: السيد وأمي الحارثة: أسلما .
قالا: قد أسلمنا قبلك !

قال لهما: كذبُما يمنعكما من الاسلام أنكما جعلتُما مع الله ولداً ، وعبدتُما الصليب ، وأكلتُما الخنزير !

قال محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام:

فأنزلَ اللهُ في قولهم ، واختلافِ أمرهم صلوةَ سورةِ آل عمران ، إلى بضعِ ولما نين آيةً منها .

﴿ ألم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾: افتتح اللهُ السورةَ بتزيهيه عما قالوا ، وبتوحيدهِ سبحانه بالخلق والأمر ، لا شريك له ، وهذا ردُّ عليهم ، بسببِ ما ابتدعوا من الكفر ، وجعلوا معه الأنداد ، وذلك ليُبطلَ شبهاتهم ، ويبيِّنَ ضلالهم .

﴿ الله لا إله إلا هو ﴾: ليس معه شريكٌ في أمره .

﴿ الحي القيوم ﴾: هو الحيُّ الذي لا يموت ، وقد ماتَ عيسى ، وصلَّبَ كما يقول رهبانُ النصارى .

والله هو القيوم: القائم على خلقه ، الذي لا يَغيب ولا يزول ، وقد غابَ عيسى عن الناس، وزالَ عن مكانه الذي كان فيه، وتحوّل إلى غيره .
﴿ نزل عليك الكتاب بالحق ﴾: نزلَ عليك القرآن بالصدق في المسائل التي اختلفَ النصارى فيها .

﴿ وانزل التوراة والإنجيل ﴾: انزلَ التوراة على موسى ، والإنجيلَ على عيسى ، كما انزلَ الكتب على مَنْ كان قبلهما .
﴿ وانزل الفرقان ﴾: انزلَ الله القرآن فرقاناً ، فيه الفصلُ بين الحق والباطل، فيما اختلفَ فيه الأحزاب ، بشأن عيسى وغيره .

﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد، والله عزيز ذو انتقام ﴾: إن الله متقمّمٌ ممن كفرَ بآياته، بعد علمه بها، ومعرفة بما جاء فيها.
﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾: فهو عالم بما يريدُ النصارى ، وما يكيدون ، وما يقولون عن عيسى ، إذ جعلوه إلهاً ورباً ، كفرأ منهم بالله .

﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾: وكان عيسى من صُورٍ في الأرحام ، كما صُورَ كلُّ البشر من بني آدم ، والنصارى لا يُنكرون ذلك ولا ينفعونهُ، فكيف يكونُ عيسى إلهاً، وقد كان مصوراً في رحم أمه؟
﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾: هذا تنزيهٌ لله ، وتوحيدٌ له ، والله عزيزٌ في انتصاره عن كفر به ، حكيمٌ في حجته ، وعلمه إلى عباده .

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب ﴾: فيهنَّ حجة الرب وعصمة العباد ، ودفعُ الخصوم والباطل ، ليس لهنَّ تصرفٌ ولا تحريفٌ عما وُضِعنَّ عليه .

﴿ وآخر متشابهات ﴾: لهنَّ تصرفٌ وتأويلٌ، ابتلى الله فيهنَّ العباد، كما ابتلاه في الحلال والحرام، لا يُصرفنَّ إلى الباطل، ولا يُحرُفنَّ عن الحق .

﴿ فاما الذين في قلوبهم زيغ ﴾: الذين في قلوبهم ميلٌ وانحرافٌ عن الهدى.

﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾: هؤلاء يتبعون ما تصرف منه ، وذلك ليصدقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا ، لتكون لهم حجة ، وعلى ما قالوا شبهة .

﴿ ابتغاء الفتنة ﴾: يتبعون المشابهة طلباً للبس .

﴿ وابتغاء تأويله ﴾: ويتبعون التشابه طلباً لتأويله ، على ما ركبوا من الضلالة ، كاستدلالهم على التلث من قوله: خلقتنا وقضينا .

﴿ وما يعلم تأويله ﴾: الذي أرادوا به ما أرادوا .

﴿ إلا الله والراسخون في العلم يقولون آنا به كل من عند ربنا ﴾: فكيف يختلف القرآن وهو قول واحد من رب واحد ؟

والراسخون في العلم قد ردوا تأويل المشابهة على ما عرفوا من تأويل الآيات المحكمة ، التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد ، وقد اتسق بقولهم القرآن ، وصدق بعضه بعضاً ، وبذلك فقدت به الحجة ، وظهر به العثر ، وزاح به الباطل ، ودُمغ به الكفر .

﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾: وما يشذكر في مثل رد تأويل المشابهة إلى المحكم إلا أولو الألباب وأصحاب العقول الكبيرة^(١) .

إن التابعي الجليل محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام - الذي أورد ابن اسحاق روايته عن قديم نصارى نجران - قد فسّر الآيات الأولى من سورة آل عمران ، وفق مناسبة نزولها في نصارى نجران ، وبين لنا كيف تولت هذه الآيات نقض مزاعم نصارى نجران ، وإظهار الحق بشأن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام .

ورأي محمد بن جعفر في المحكم والمشابهة والتأويل وجية سديد ، وفهمه

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٢٢/٢ - ٢٢٦ بصرف سير للتوضيح .

لكل واحد من هذه المصطلحات الثلاثة هو الصواب ، وهذا الفهم والتفسير الذي قدمه ابن جعفر هو الذي قال به علماء أهل السنة من بعده .

لقد كان الامام محمد بن جرير الطبري منجباً بكلام ابن جعفر الذي أورده ابن إسحاق ، وقد تبناه ورجحه في تفسيره ، كما تبني هذا الرأي مفسرون لاحقون كالامام ابن كثير 11

معنيان للتأويل في الآية:

تكلمت الآية عن تسمي آيات القرآن:

الآيات المحكمات: وهن أصل الآيات المتشابهات وأنها ومرجعها ، وهن أكثر عدداً من المتشابهات .

الآيات المتشابهات: وهن قلائل بالنسبة إلى عدد المحكمات ، بدليل قوله ﴿ وأخر متشابهات ﴾ وهذا الجمع للتقليل .

وقد بينت الآية موقفَ فريقين من الناس من الآيات الأخر المتشابهات:

الفريق الأول: الذين في قلوبهم زيغ ، حيث يتبعون الآيات المتشابهات بهدف الفتنة والبلبليس ، ويهدف تأويلها وفق ما عندهم من الضلال 1

الفريق الثاني: الراسخون في العلم ، الذين آمنوا بالآيات المتشابهات ، وأيقنوا بعجزهم عن تأويلها ، وبيان عاقبتها وصورتها الفعلية ، وجعلوا هذا وفقاً على الله: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

وقد اختلف العلماء في تأويل الآيات المتشابهات: هل تأويلها خاص بالله؟ وما المراد بالتأويل على هذا التخصيص ؟ أم أن الراسخين في العلم يعلمون تأويلها؟ وما الفرق بين تأويلهم للمحمود وتأويل أهل الزيغ المذموم؟

سنوجزُ إن شاء الله حجة فريقين من العلماء: حجة من قال إن الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه ، وحجة من قال: إنهم يعلمون تأويله!

للمعنى الأول: هو ما تزول إليه حقائق الآيات الغيبية

إذا كان التأويلُ هو بيان المرجعِ والعاقبةِ والمآلِ ، وردَّ النص إلى صورتهِ الماديةِ الخارجيةِ الواقعيةِ ، وتحديدَ ما تزولُ إليه حقائقُ الآياتِ ، من الكيفياتِ والزمانِ والتفاصيلِ العمليةِ ، فهذا خاصٌّ بالله تعالى ، ولا يعلمه الراسخون في العلم ، ولا يُدركون حقيقتهِ ومآلهِ وعاقبتهِ ، ولا يُقدرون على ردِّ وإرجاعِ النصوصِ إلى صورتها الفعليةِ .

ولذلكَ يجعلونَ تأويلَ النصوصِ العمليِّ خاصاً بالله ، ويُسلمونَ بعجزهم عن ذلك ، ويُعلنونَ إيمانهم به ، ويقولون ﴿ آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ .

أما الذين في قلوبهم زيغٌ فإنهم يُبسمونَ هذا التشابهَ بهدفِ تأويله ، والفتنةِ في تأويله ، ويريدونَ الوقوفَ على الصورةِ الماديةِ للنصوصِ ، وتحديدَ النهايةِ الفعليةِ التي تستقرُّ عليها الأخبارُ ، وبما أن هذا غير ممكن ، لأنَّ هذا التأويلَ العمليِّ خاصٌّ بالله ، لذلك يقعون في لبسٍ وضلالٍ !

وعندما نحملُ التأويلَ على هذا المعنى ، فإننا نجدُه يشفقُ مع معنى التأويلِ المذكورِ في السورِ الأخرى ، فقد سبقَ أن استعرضنا الآياتِ التي وردَ فيها ﴿التأويل﴾ ، حيث ورد سبغٌ عشرة مرة في سبغ سور قرآنية: يوسف والكهف والأعراف ويونس والإسراء والنساء وآل عمران .

إنَّ التأويلَ الواردَ في هذه السورِ السبغِ سبغٍ عشرة مرة يُرادُ به هذا المعنى ، وهو ردُّ الأشياءِ إلى حقائقها الماديةِ ، وإرجاعُ الأمورِ إلى صورتها العمليةِ ، وتحديدُ العاقبةِ والنهايةِ الواقعيةِ للأخبارِ والوعدِ ، وبيانُ ما تزولُ إليه فعلاً ، وتستقرُّ عليه واقعاً ، وتعيَّنُ كيفيتها وزمانها ومكانها وملامحها .

هذا معنى التأويلِ في رؤيا يوسف والسجينين والملك في سورة يوسف ، والتأويلِ في أعمالِ الخضر الثلاثة أمام موسى في سورة الكهف ، والتأويلِ في وقوعِ وحدثِ مضمونِ الآياتِ التي تتحدثُ عن مشاهدِ القيامةِ في

سورة الأعراف ، والتأويل في وقوع آيات التهديد للكفار فعلاً في سورة يونس ، والتأويل في تحديد العاقبة والنهاية العملية للكيل والوزن بالقسط في سورة الإسراء ، والتأويل في تحديد الصورة المادية الخيرة للامة عندما تردُّ المتنازع فيه إلى الله والرسول في سورة النساء ، والتأويل في تحديد كيفية وصورة الآيات المتشابهات ، التي تتحدث عن الغيبات، في سورة آل عمران .

إن التأويل في القرآن لا يخرج عن هذا المعنى في التحديد العملي لما تزولُ إليه حقائق النصوص النظرية . ولهذا قال الإمام الراغب في تعريف التأويل: هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه ، علماً أو فعلاً .

هذا التحديد العملي لا يعلمه أحدٌ من البشر ، لا الراسخون في العلم ولا غيرهم ، لأنه خاصٌ بالله .

إن تأويل النصوص الغيبية خاصٌ بالله ، تلك النصوص القرآنية التي تتحدث عن أحداثٍ مستقبلية ، تقع للناس على وجه الأرض ، أو تحدث قبيل قيام الساعة وأثناء قيامها وبعده ، وتصف ما يجري يوم القيامة من مشاهد وتفصيل، سواءً على أرض الموقف ، أو في الجنة ، أو في النار .

الله وحده هو الذي يعلم تأويل هذه الآيات المتشابهات ، أي: هو الذي يعلم حقيقة حدوثها ، وزمانه ، ومكانه ، وكيفيته ، والصورة المادية الواقعية التي تكون عليها عند وقوعها وحدثها،والعاقبة التي تزولُ إليها هذه النصوص .

هل الراسخون في العلم يعلمون تأويل هذه النصوص على هذا المعنى ؟ وهل يتقدرون على تحديد مآلها العملي ، وردّها إلى كيفية حدوثها الواقعي؟ وتصوير حقيقتها الفعلية؟ إنهم لا يقدرّون على ذلك !

فهم الآية على هذا المعنى للتأويل:

تتحدث الآية عن قسمين لآيات القرآن ، وموقفَ فريقين من القسم الثاني ، وتلزم الفريق الأول ، وتمدحُ الفريقَ الثاني .
الآياتُ المحكماتُ هنَّ أمُّ الكتاب ، وهي معظمُ آيات القرآن ، والآياتُ المتشابهات هي آياتٍ أُخرى قليلة .

إنَّ كلمة ﴿ مُحكمات ﴾ في قوله: ﴿ منه آياتٌ محكمات ﴾ اسمٌ مفعولٌ بصيغة جمع المؤنث السالم، وفعلها الماضي الرباعي ﴿ أحكم ﴾ ، وإذا كانت هذه الآياتُ محكمات، فمنَ الذي أحكمها ؟ إنه اللهُ ربُّ العالمين !
المحكم مشتق من ﴿ الحكم ﴾ : والحكمُ في اللغة هو: المنع^(١) .

وقال الإمام الراغب في معناه ﴿ حكمٌ ﴾ : أصله: منعٌ منعاً للإصلاح^(٢) .
أما المحكم ، فقد عرّفه الراغبُ بقوله: ﴿ المحكم : ما لا يعرضُ فيه شبهة ، من حيث اللفظ ، ولا من حيث المعنى . ﴾^(٣) .

وكم كان محمدُ بن جعفر بن الزبير دقيقاً فطناً عندما عرّفَ الآياتِ المحكمات بقوله: ﴿ ليسهنَّ حجةُ الرب ، وعصمةُ العباد ، ودفعُ الخصوم ، والباطل ، ليس لهنَّ تصريف ولا تحريف عما وُضعن عليه . ﴾^(٤) .

الآياتُ المحكمات هي الآياتُ واضحاتُ الدلالة والمعنى ، لا شبهة في الفاظها أو معانيها ، تمنعُ من تسرّبِ ألهام خاطئةٍ لها ، لا تحتملُ إلا معنى واحداً مفهوماً ، لا تصريفاً لها، ولا تحريفاً لها عن وضعها اللغوي ، وبسبب هذه الصفات لها ، فقد تحققتَ بها حجةُ الله على عباده ،

(١) مقاييس اللغة: ٩١/٢

(٢) المفردات: ٢٤٨ .

(٣) المرجع السابق: ٢٥١ .

(٤) سيرة ابن هشام: ٢٢٦/٢ .

وعصمت العباد من سوء الفهم للقرآن ، ودفعت شبهات الخصوم ، وردت التحريفات الباطلة .

ولأجل ذلك فقد وصف الله هذه الآيات المحكمات بانهن ﴿ أم الكتاب ﴾ .

قال الامام أحمد بن فارس في أصل معنى « أم » في اللغة : « أم : أصل واحد ، يتفرع منه أربعة أبواب ، هي : الأصل ، والمرجع ، والجماعة ، والدين . وهذه الأربعة متقاربة ، وبعد ذلك أصول ثلاثة ، وهي : القامة ، والحين ، والقصد »^(١) .

ونقل ابن فارس قول الخليل الجامع في معنى الأمة : قال الخليل : كل شيء يُضمُّ إليه ما سواه مما يليه ، فإن العرب تسمي ذلك الشيء أمًا . من ذلك أم الرأس : الدماغ^(٢) .

وقال أبو البقاء في الكليات : « وأم كل شيء أصله ، قال الخليل : كل شيء ضمُّ إليه ما يليه يسمى أمًا .

قال ابن عرفة : ولهذا سُميت أم القرآن وأم الكتاب .

وقال الأخفش : كل شيء انضمُّ إليه أشياء فهو أمُّ لها ، ولذلك سُمي رئيسُ القوم أمًا لهم »^(٣) .

الآيات المحكمات التي أحكمها الله في معناها ، فلا تُصرف إلى غيره ولا تُحرف عنه هي أم القرآن ، وأصل معانيه ، وهي مرجع الآيات المتشابهات ، بحيث يجب حمل الآيات المتشابهات عليها ، وإرجاعها إليها ، لأنها أم تلك الآيات المتشابهات وأصلها .

(١) مقاييس اللغة : ٢١/١ .

(٢) المرجع السابق : ٢٢/١ .

(٣) الكليات لأبي البقاء الكفوي : ١٧٦ .

أما الآياتُ التشابهات: فقد قالَ اللهُ عنها ﴿ وأخر متشابهات ﴾ وهذه الآياتُ المتشابهاتُ قليلةٌ من حيثُ الكمية والعدد إذا ما قيسَت بالآياتِ المحكمات ، قليلةٌ لدلالة الجمعِ ﴿ أآخر ﴾ الذي يدلُّ على التخليل .

و ﴿ متشابهات ﴾ اسمُ فاعل ، جمع مؤنث سالم . أي أن التشابه موجودٌ في نفسها وتركيبها ومعانيها ، موجودٌ في داخلها .

﴿ الآيات المحكمات ﴾ أحكمها اللهُ . و ﴿ الآيات المتشابهات ﴾ التشابهُ فيها نفسها ، وفرقٌ بعيدٌ بين اسم المفعول ﴿ محكمات ﴾ ، واسم الفاعل ﴿ متشابهات ﴾ .

والفعلُ الماضي من ﴿ متشابهات ﴾ هو: تشابه . والتشابهُ هو التماثلُ والتشاكلُ .

قال الامامُ الراغب في التشابهِ والآياتِ المتشابهات: ﴿ والتشابهُ من القرآن: ما أشكلَ تفسيره ، لمشابهته بغيره ، إما من حيثُ اللفظ ، أو من حيثُ المعنى .

فالتشابهُ في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهةِ اللفظ فقط ، ومتشابهٌ من جهةِ المعنى فقط ، ومتشابه من جيهتهما .

والتشابهُ من جهةِ المعنى: أوصافُ اللهُ تعالى ، وأوصافُ يوم القيامة ، لأن تلك الصفات لا تُصوَّرُ لنا ، لأنه لا يحصلُ في نفوسنا صورةٌ مالم نحسُه ومالم نره من قبل ، أو صورةٌ مالم يكن من جنس ما نحسُه ونراه .

ثم جميعُ التشابه على ثلاثة أضرب:

ضربٌ لا سبيلَ للوقوف عليه: كوقتِ الساعة ، وخروجِ دابةِ الأرض ، وكيفيةِ الدابة ، ونحو ذلك .

وضربٌ للإنسانِ سبيلٌ إلى معرفته ، كالألفاظِ العربية ، والأحكامِ الثُلُفة الحَقِيَّة .

وضرباً متردداً بين الأمرين ، يجوزُ أن يختصُ بمعرفةِ حقيقته بعضُ
الراسخين في العلم ، ويخفى على من دونهم ^(١) .

إذن: الآياتُ المشابهاتُ هي التي في فهمها إشكال ، لما فيها من تشابهٍ
في لفظها أو معناها، أو فيهما معاً . كالآياتِ التي تحدثُ عن صفاتِ الله
أو يومِ القيامة .

وحتى نفهمَ هذه الآياتِ المشابهات ، فلا بدُ من حملها على أصلها
وهي الآياتُ المحكمات ، ولا بدُ من إرجاعها إلى أم الكتاب ، لتفهم
على ضروتها . وهذا ما يوحى به تركيبُ الآية: ﴿ منه آيات محكمات -
هن أم الكتاب - وأخر متشابهات ﴾ .

وكان محمدُ بن جعفر بن الزبير دقيقاً ولفظياً عندما قال عن الآياتِ
المشابهات: « لهن تصرفٌ وتاويل ، ابتلى اللهُ فيهنَّ العباد ، كما ابتلاهم
في الحلالِ والحرام ، لا يُصرفنَ إلى الباطل ، ولا يُحرفنَ عن الحق ^(٢) .

ما هو موقفُ الناس من الآياتِ المشابهات: التي في فهمها إشكال ،
وتحتملُ وجوهاً من التصريفِ والفهم ؟

الناسُ فريقان: فريقُ الذين في قلوبهم زيغ ، وفريقُ الراسخين في العلم،
ولكلٍ من الفريقين طريقةٌ في فهمِ المشابهات في القرآن .

الفريقُ الأول: الذين في قلوبهم زيغ: قالَ الله عنهم: ﴿ فأما الذين في
قلوبهم زيغ فيبتغون ما تشابه منه ، ابتغاءَ الفتنة ، وابتغاءَ تاويله ، وما يعلم
تاويله إلا الله ﴾ .

وعندما ننظرُ في هذه الكلماتِ التي تحدثُ عن موقف هؤلاء الزائغين
من التشابه ، فإننا نرى فيها مايلي:

(١) مختارات متفذة دالة من كلام الراهب عن التشابه في المقدرات: ٤٤٣ - ٤٤٥ .

(٢) سيرة ابن هشام: ٢٢٦/٢ .

١- هم في قلوبهم زيغٌ وانحرافٌ وميلٌ عن الحق ، والانحرافُ عن الحق في القلب هو أساسُ الداء ، لأن استقامة القلب أساسُ استقامة العقل وحسن الفهم ، وانحرافُ القلب هو سببُ انحرافِ العقل وسوء الفهم .

٢- زيغُ قلوبهم دفعهم إلى اتباع الآياتِ المشابهات: ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ ، فهم يسحشون عن الآياتِ المشابهات ويتشبعونها ، ويجمعونها ، ويريدون فهمَ معانيها بلفظها ، مجردةً عن غيرها .

هي في ذاتها متشابهة ، وفي لفظها إشكال ، وهم في قلوبهم زيغٌ ، وفي عقولهم اعوجاجٌ ، وفي أذهانهم شبهاتٌ ، فكيف يفهمونها وهم على هذه الحالة؟ وكيف يُزيلون ما فيها من إشكال؟

لماذا تبعونها؟ لماذا لم يتبعوا الآياتِ المحكمات الواضحات؟ وهي كثيرةٌ في القرآن ، وليس فيها إشكالٌ ، ولا تحتملُ التحريف والتصرف؟ لم يفعلوا ذلك لأن في قلوبهم زيغاً ، وتبعوا المشابهات لأن في قلوبهم زيغاً .

٣ - يهدفُ زاهر القلوب من اتباع المشابهات الفتنه: ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ . والفتنة هي التليسُ وإثارةُ الشبهات ، أي أنهم يريدون فتنة الآخرين ، عندما يتبعون المشابهات أمامهم ، وعندما يثيرون الأسئلة عنها ، وعندما ينشرون الشبهاتِ حولها ، يريدون إيقاعَ الآخرين في اللبس والخلط ، وهذه هي الفتنة ، التي يفتنون بها الآخرين .

٤ - لزانفي القلوب هدفٌ آخر من اتباع المشابهات ، وهو التمثلُ في قوله تعالى: ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ ، إنهم يريدون تأويلَ هذه الآياتِ المشابهات . تأويلها لماذا؟ لتحقيق هدفهم الأول ، وهو فتنة أنفسهم ، وفتنة الآخرين ، والفتنة عندهم عن طريق تأويل هذه المشابهات .

كيف يُؤوِّنون الآياتِ المشابهات؟ إنهم يريدون الوقوفَ على حقيقتها الفعلية ، ومآلها العملي ، يريدون تحديدهُ ما ستؤولُ هذه المشابهاتُ إليه ، وتعيينَ كلياتها ، وزمانها ومكانها وتفصيل حدودها .

وهذا غيرُ ممكنٍ لهم ولا لغيرهم . ولهذا هم مذمومون بذلك الهدف ، ومذمومون لمحاولاتهم تأويلَ المشابهات ، وتحديدَ ما ستؤول إليه من نهايةٍ عملية، وعاقبةٍ مادية .

٥ - ذمُّ الله زائغِي القلوب لمحاولاتهم اليائسة في تأويل الآيات المشابهات ، لأنَّ تأويلها خاصٌّ به سبحانه ، ولهذا وردَ بعدَ ذمِّهم قوله تعالى: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

والتأويلُ هنا هو بمعنى التأويل في السور الأخرى ، وهو تحديدُ العاقبة والمآل، وبيانُ ما تزولُ إليه النصوصُ والأخبارُ القرآنية ، وتعيينُ صورتها الواقعية العملية ، وإرجاعها إليها ، من حيثُ الزمان والمكان والكيفية .

وهذا التأويلُ العملي ، بهذه الكيفية المادية، لا يعلمه أحدٌ من البشر، لا الراسخون في العلم ولا الذين في قلوبهم زيغ ، فهو خاصٌّ بالله سبحانه .

الفريق الثاني: الراسخون في العلم ، قالَ الله عنهم: ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ .

هؤلاء الراسخون في العلم وقفوا أمامَ مشابهِ القرآن ، الذي يتحدث عن أمورٍ غيبية ، فعلموا أنَّ تأويله خاصٌّ بالله ، وفهموا معنى قوله تعالى: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

أي عَلموا أنَّ تحديدَ عاقبةٍ ومآلِ الآيات المشابهات خاصٌّ بالله ، فالله وحده هو الذي يعلمُ ما تزولُ إليه تلك الآيات ، ويعلمُ كيفيةَ وزمان ومكانٍ وصورة حدوثها ووقوعها ، في إطارها العملي الواقعي .

لما عَلمَ الراسخون في العلم هذا ، أتقنوا بمجزهم عن تأويل الآيات المشابهات ، فاعلنوا إيمانهم بالقرآن كله، وقالوا: ﴿ آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ .

والضميرُ في ﴿ به ﴾ يعودُ على مشابه القرآن . أي آمنا بمشابه القرآن،

وسلمنا ببدلولة ، مع عجزنا عن تأويله وتحديد عاقبه العملية .

والتوين في ﴿ كل ﴾ عرض عن كلمة مقلدة ، تقديرها: القرآن .
أي: كل القرآن من عند ربنا ، سواء كانت آياته محكمات أم كانت
مشابهات . فإله أنزل الآيات المحكمات ، والله أنزل الآيات المشابهات .
وقد أتى الله على هذا الموقف للراسخين في العلم بقوله: ﴿ وما يذكر
إلا أولو الألباب ﴾ .

وصفهم بانهم أولو الألباب ، والألباب هي العقول الواسية ، إنه لا
يتذكر هذا المعنى للآيات المشابهات إلا أولو الألباب ، ولا يعلم عجزه عن
تأويلها العملي إلا الراسخون في العلم ، أصحاب العقول الواعية الكبيرة .
وبينما ذمت الآية الذين في قلوبهم زيغ لرغبتهم في تأويل المشابه ، فإنها
أنتت على الراسخين في العلم لموقفهم العلمي منه ، ويسد هذا الثناء في ما
يلي:

١ - وصفهم بالرسوخ في العلم . ومعنى الرسوخ: التمكن والتثبت
والتوثق . فهم ليسوا مجرد علماء ، ولكنهم راسخون في العلم ، متمكنون
منه ، والقون من مسائله ومباحثه .

إن رسوخهم في العلم دلهم على صلاحياتهم وقدراتهم وطاقاتهم
ومجالاتهم ، فحاضوا فيها وبحشوها ، وأحسنوا استخدام عقولهم ومعرفة
علومهم .

وإن رسوخهم في العلم أوقفهم على مالم يسأل في وسعهم وطاقاتهم ،
وعرفهم على مالم يزودهم الله وسائل البحث فيه ، من موضوعات الغيب ،
فوقفوا عند حدتهم لم يتجاوزوه ، ووقفوا طاقاتهم العقلية فلم يفتعوا في
تلك المجالات التي لم تجهز للخوض فيها .

٢ - إعلان الراسخين في العلم إيمانهم بقسمي القرآن: محكمه ومشابهه،

وتسليمتهم بعجزهم عن إمكانية تأويل المشابه تأويلاً عملياً ، وقصّر هذا التأويل على الله . وبذلك أحسنوا فهم آيات القرآن وتدبرها ، وأحسنوا التعامل مع القرآن ، ولم يضرىوا بعض آياته ببعض .

٣ - وصفتهم بأنهم أولر الأبواب ، فصاحب العقل الكبير يعلم حدوده ، يعلم ما يقدر عليه ، فيستغل فيه ، ويعلم ما يعجز عنه ، فيقف عنده ، ولا يضيع قدراته ووقته فيه .

٤ - لاحظ الراسخون في العلم امتتان زائفي القلوب في مشابهات القرآن، وضياعهم في محاولات تأويلها ، فطلبوا من الله أن لا يكونوا مثلهم ، وأن لا يُزيغ قلوبهم كما أزيغ قلوب أولئك ، وأن يشبثهم على الهداية ، وأن ينشر عليهم الرحمة ، ودعوا الله قائلين: ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لذك رحمة ، إنك أنت الوهاب ﴾ .

٥ - ذكر الراسخون في العلم نوعاً من أنواع مشابه القرآن الذي لا يعلمون تأويله ، فلا يعلم تأويله إلا الله ، ولا يأتي به إلا الله ، على الكيفية التي يريد لها سبحانه . إنه يوم القيامة . ولهذا أعلنوا إيمانهم به ، وبمجى حتماً ، بدون شك ولا ريب: ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إنك لا تخلف الميعاد ﴾ .

لقد تحدثت آيات القرآن عن اشراط الساعة ، ومشاهد يوم القيامة ، وأخبرت عن أحداث قادمة ستقع فيه .

والذين في قلوبهم زيغ حاولوا تأويل تلك الآيات ، وتحديد حقيقة ما ستؤول إليه عملياً ، فالتوا وضلوا واضلوا .

أما الراسخون في العلم فقد أيقنوا بعجزهم عن تأويل تلك الآيات، وتحديد ما ستؤول إليه عملياً، فأعلنوا إيمانهم بها، وسلموا لله حقيقة تأويلها، وكيفية تحقيقها.

عدم التأويل لا يعني عدم الفهم:

على هذا المعنى للتأويل - وهو تحديدُ حقيقةِ الأخبارِ الغيبيةِ عملياً - يكونُ الذين في قلوبهم زيغٌ مفتونين ضالين لخوضهم فيه ، ويكون الراسخون في العلم مهتدين ممدوحين ، وعلميين موضوعيين ، لعجزهم عن تأويله ، وتسليمهم بقصره على الله وإيمانهم به .

لكن هل عجزُ الراسخين في العلم عن التأويل العملي لهذه الآيات يعني عدمَ فهمهم لها ؟ وعدمَ تفسيرهم لها ؟ وعدمَ بيانهم لمعانيها ؟ وهل في القرآن ما لا يفهم معناه؟ وهل يخاطبنا الله بما لا نفهمه؟

بعضُ الناس لم يفرّقوا بين العجز عن التأويل وبين فهم معاني الآيات ، وظنّوا أن عجزَ العلماء عن تأويل الآياتِ المشابهات يلزمُ منه عدمُ فهمهم لمعانيها، وعدمُ قدرتهم على تفسيرها .

وقالوا: ليس في القرآن ما لا يفهم معناه ، ولم يخاطبنا الله في القرآن بما لا نعلمه ، ويجبُ علينا أن نفهمَ كلَّ الآيات ، محكماتٍ أو مشابهات، ويجبُ أن نؤوّل كلَّ الآيات ، محكماتٍ أو مشابهات .

ومنشأ الخطأ عندهم عدمُ تفرّيقهم بين فهم معاني الآيات المشابهات ، وبين العجز عن تأويلها .

إن العجزَ عن تأويل الآيات التي تتحدثُ عن أمورٍ غيبية ، وعدمُ القدرةِ على تحديدِ الصورةِ العمليةِ النهائيةِ التي تُؤوّل لها تلك الآيات ، لا يعني عدمَ فهمها وعدمَ تفسيرها ، وعدمَ معرفةِ معانيها .

لم يخاطبنا الله في القرآن بما لا نفهم معناه ، فكلُّ آيةٍ وكلمةٍ في القرآن مفهومة المعنى ، ويجبُ علينا أن نستدبرَها ونفسرَها ونبين معناها ، لأنَّ القرآن نزلَ بلسانٍ عربيٍّ مبين، وكلماته عربية ، والكلامُ العربي له معنى معلومٌ مفهومٌ .

إن الراسخين في العلم يفهمون معاني الآيات المتشابهات ، ويعلمون تفسيرها، ويحسنون استخراج دلالاتها والوقوف على لطائفها .

لكن هذا شيء ، وتأويلها شيء آخر ، فعلمهم بمعانيها لا يلزم منه القدرة على تأويلها ، وتحديد كيفية وصورة مآلها !

عندما يقرأ الراسخون في العلم أمام آية تتحدث عن مسألة غيبية ، يفسرونها ويبتنون معانيها ، ويقولون: هذا هو تفسيرها وبيانها ، أما تأويلها وتحديد كيفية انتهائها ، وبيان متى وكيف ستقع فعلاً ، فهذا خاص بالله .

ونورد فيما يلي مثالين عن ذلك: مثلاً عن كلام القرآن عن مشاهد القيامة ، ومثلاً عن إخبار القرآن عن صفات الله !

عرضت آيات القرآن بعض مشاهد القيامة ، واخبرت عن بعض الأحداث التي ستقع عند قيام الساعة . منها قوله تعالى: ﴿ إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت . وإذا النفوس زوجت . وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت . وإذا الصحف نشرت . وإذا السماء كشطت . وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزيلت . علمت نفس ما أحضرت . . ﴾^(١) .

تخبر الآيات عن اثني عشر حدثاً يحدث عند قيام الساعة ، وتقدم التي عشرة لقطعة من لقطات تلك الأحداث ، وهذه الآيات لها فهم وتفسير ، كما أن لها تأويلاً وتحديدًا .

الراسخون في العلم يفهمونها ويفسرونها ، إنهم يعلمون معنى تكوير الشمس، وانكدار النجوم ، وتسير الجبال ، وتعطيل العشار ، وحشر الوحوش، وتسجير البحار ، وتزويج النفوس، وسؤال الموءودة ، ونشر الصحف، وكشط السماء ، وتسعير الجحيم ، وإزالة الجنة . يعلمون

(١) سورة التكوين: ١ - ١٤ .

معاني الكلمات ، ويفهمون ما تتضمنه من حقائق ودلالات ، ويؤمنون بحدوث ما أخبرت عنه من هذه المشاهد واللقطات .

أما تأويل هذه الآيات التي تعرض هذه اللقطات فإنهم لا يعلمونه ، لأن تأويلها خاصٌ بالله .

تأويل هذه الآيات هو تحديدُ عاقبتها ومآلها ، وتعيينُ الصورةِ العملية التي ستقعُ بها ، وبيان متى وكيف ستحدثُ وتتحقق ، من حيثُ الزمان والمكان والكيفية ، هذا لا يعلمه الراسخون في العلم .

إن فهمهم لمعاني هذه الآيات قد تحقق ، لكنه لا يلزمُ منه إمكانية تأويلها!!!

وبالنسبة إلى صفات الله ، فقد أخبرت آياتُ القرآن عنها ، وأشارت إلى بعض هذه الصفات، وتحدثت عن بعض أفعال الله ، تكلمت آياتُ القرآن عن يدِ الله ، وعن وجهِ الله ، وعن معيةِ الله ، وعن استواءِ الله على العرش ، وعن علوِّ الله .

هذه الآياتُ لها تفسيرٌ وفهم ، ولها تأويلٌ وتحديد .

والراسخون في العلم يفهمونها ويفسرونها ، ويعرفون معنى اليدِ والوجهِ والاستواءِ والعلو ، ويُسندونها لله كما أخبر الله .

لكنهم عاجزون عن تأويلها وتحديدِها ، أي: عاجزون عن بيانِ حقيقةِ اتصافِ الله بها ، وتحديدِ كَيْفِيَّةِ وجودِها عندَ الله سبحانه ، ولهذا لا يخوضون في تحديدِ كَيْفِيَّةِ استواءِ الله على عرشه، وكَيْفِيَّةِ علوه عن خلقه ، وكَيْفِيَّةِ يده ووجهه ونفسه ومعيته سبحانه .

إن فهمهم لمعاني هذه الآيات ، ومعرفة ما تخبرُ عنه من أفعالِ وصفات، قد تحقق ، لكنه لا يلزمُ منه إمكانية تأويلها وتحديدِها وتكليفها!!!

سياق الآية على هذا المعنى للتأويل:

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب ﴾ : جملة خبرية .

﴿ منه آيات محكمات ﴾ : جملة خبرية أخرى ، مفصلة للجملة الخبرية السابقة .

﴿ من أم الكتاب ﴾ : مبتدأ وخبر ، وهي جملة معترضة ، جيء بها بهدف وصف الآيات المحكمات من القرآن بأنهم أم القرآن وأصله ومرجعهم ، وذلك لحمل الآيات المتشابهات عليها ، أي أن الآيات المحكمات أم وأصل للآيات المتشابهات .

﴿ وآخر متشابهات ﴾ : معطوفة على ﴿ منه آيات محكمات ﴾ ، وفيها الخبر عن القسم الثاني من آيات القرآن ، ووصفها بأنها متشابهات . ووصفها بوصف ﴿ آخر ﴾ دليل على أنها قليلة ، لأن كلمة ﴿ آخر ﴾ جمع قلة .

بعد حديث الآية عن قسمي آيات القرآن: المحكمات الكثيرة أم القرآن وأصله ، والآيات المتشابهات القليلة ، تحدثت عن موقف فريقين من الناس من الآيات المتشابهات .

﴿ فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ :

﴿ أما ﴾ : حرف شرط بمعنى التفصيل ، حيث ورد ذكر الفريقين بعنقا: الزائفون والراسخون في العلم .

﴿ الذين في قلوبهم زيغ ﴾ : فعل الشرط .

﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ : جواب الشرط .

﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ : مفعول لأجله .

﴿ وابتغاء تأويله ﴾ معطوف على المفعول لأجله ، يدل على معناه ،

أي: لزائفي القلوب هدفان من اتباع الآيات المتشابهات: الهدف الأول:

إحداثُ الفتنة بالقرآن ، والثاني: الرغبة في تأويل تلك الآيات المشابهات ،
والوقوف على كيفية العملية ، وتحديد عاقبتها المادية .

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ : علمُ تأويل مشابهِه القرآن خاصٌ بالله ،
لا يعلمه أحدٌ غيره . فالجملةُ معترضةٌ ، لتقرير هذه الحقيقة ، ولذمُّ
زائفي القلوب في محاولاتهم تأويلَ المشابه ، لأنه لا يعلمُ تأويله إلا الله ،
ولا يعلمُ حقيقته المادية إلا الله ، ولا يعلمُ كيفية وقتٍ ومكان وقوعه إلا
الله .

لهذا يكونُ الوقفُ على لفظ الجلالة ﴿ الله ﴾ واجباً . هكذا: ﴿ وما
يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ : جملة
استثنائية جديدة ، تخبرُ عن موقفِ الراسخين في العلم من تأويل المشابه ،
وهم الفريقُ الثاني من الناس .
فالواو: حرفٌ استئناف .

و ﴿ الراسخون ﴾ مبتدا .

﴿ يقولون آمنا به ﴾ : جملة فعلية في محلِّ رفع خير .

أي: الراسخون في العلم قائلون آمنا بالمشابه دون أن نعلم تأويله ،
وآمنا بأن كلَّ القرآن - محكمه ومتشابهه - من عند ربنا .

﴿ وما يذكر إلا أولو الأبواب ﴾ : جملة استثنائية جديدة ، للثناء على
الراسخين في العلم ، في عدم محاولاتهم تأويلَ المشابه ، ووصفهم بأنهم
أولو الأبواب .

الذاهبون إلى هذا المعنى للتأويل :

كثيرٌ من أئمة التفسير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ذهبَ إلى هذا المعنى للتأويل في آيةِ سورة آل عمران التي أمّنا ، حيث اعتبروها متوافقة مع ورودِ كلمةِ التأويل في القرآن في المواضع الأخرى - التي استعرضناها فيما سبق - .

لا سيما أنّ أمّهم حديث صحيح عن رسول الله ﷺ يلزمُ زانفي القلوب، الراغبين في تأويل المشابه ، ويحلر المسلمين منهم .

فقد روى البخاريُّ ومسلم وغيرُهما عن ابن أبي مُثيكة عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب ﴾ . ثم قال: « فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سَمَّاهم الله ، فأحلروهم » .

وفي روايةٍ أخرى عن عائشة رضي الله عنها قالت: سئل رسولُ الله ﷺ عن قولِ الله: ﴿ فاما الذين في قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ﴾ فقال: « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سَمَّى الله ، فأحلروهم » .

ومن ذهبَ إلى هذا الرأي الإمامان: ابنُ جرير الطبري وابنُ كثير اللدمني .

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ : الله الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، هو الذي أنزل عليك القرآن .

من هلا القرآن آياتٌ محكمات . وهنّ اللواتي قد احكمنَ بالبيان والتفصيل ، وأثبتت حُجُجَهُنَّ وأدلَّتُهُنَّ على ما جعلن أدلّةً عليه من حلالٍ وحرام ، ووعُدٍ ووعيد ، وثوابٍ وعقاب ، وأمرٍ وزجر ، وخيرٍ ومثل ، وعظةٍ وعبر ، وما أشبه ذلك .

ثم وصف الله هؤلاء الآيات المحكمات بأنهن أم الكتاب، أي انهن أصل الكتاب ، الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود ، وسائر ما يحتاج إليه الخلق، من أمر دينهم، وما كُلفوا به من الفرائض في عاجلهم وأجلهم . وإنما سماهن أم الكتاب ، لأنهن معظم الكتاب ، وموضع مفرغ أهله عند الحاجة إليه^(١) .

﴿ واخر متشابهات ﴾: ومن القرآن آيات أخر ، هن متشابهات في التلاوة، مختلفات في المعنى^(٢) .

﴿ فاما الذين في قلوبهم زيغ فيستبغون ما تشابه منه ﴾: فاما الذين في قلوبهم ميل عن الحق وحيث عنه ، فيستبغون من آيات القرآن ما تشابهت الفاظه ، واحتمل صرفه في وجوه التأويلات ، باحتماله المعاني المختلفة ، وذلك إرادة اللبس على نفسه وعلى غيره ، واحتجاجاً بذلك على باطله الذي مال إليه قلبه، دون الحق الذي أبانه الله ، وأوضحه بالمحكمات من آيات القرآن ا

وهذه الآية - وإن كانت نزلت في نصارى بجران - فإنه معني بها كل من ابتدع بدعة في دين الله، فعال إليها قلبه ، تأويلاً منه لبعض متشابه القرآن، ثم حاج به وجادل أهل الحق، وعدل عن الواضح من أدلة الآيات المحكمات، وذلك ليلبس على أهل الحق من المؤمنين دينهم ، وطلباً منه لعلم تأويل ما تشابه من القرآن .

تشمّل كل من كان كذلك ، كائناً من كان، سواء كان من أهل اليهودية أو النصرانية أو المجوسية، أو كان سبياً ، أو حروبياً ، أو قديراً، أو جهمياً .

فهو من الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: (فإذا رأيت الذين يتبعون ما

(١) جامع البيان للطبري: ١٧٠/٣ . طبعة دار الفكر .

(٢) للرجع السابق: ١٧٢/٣ .

تشابه منه فأولئك الذين سمى الله ، فاحذرهم ^(١) .

﴿ وابتغاء تأويله ﴾ : أتبعوا المشابهة ابتغاءً تأويله ، بمعرفه انقضاء مدة أمية محمد ﷺ ، ووقت قيام الساعة .

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ : ما يعلم وقت قيام الساعة ، وانقضاء مدة أجل محمد ﷺ وأمة ، وما هو كائن ، إلا الله ، دون من سواه من الذين ابتغوا إدراك علم ذلك عن طريق الحساب والتنجيم والكهانة .

﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به ﴾ : وأما الراسخون في العلم ، فيقولون: آمنا به ، كل من عند ربنا . لا يعلمون تأويل ذلك ، وفضل علمهم في ذلك على غيرهم ، هو علمهم بأن الله وحده هو العالم بتأويل ذلك ، دون من سواه من خلقه ^(٢) .

ويعد ذكر الطبري لقولين في موقع جملة ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به ﴾ ، وهل هي معطوفة على ﴿ إلا الله ﴾ فيعلمون تأويل المشابهة ، أو استثنائية فلا يعلمون تأويله ، رجح القول الثاني ، فقال: « والصواب عندنا في ذلك: أنهم - الراسخون في العلم - مرفوعون بجملة خبرهم بعلمهم ، وهي «يقولون آمنا به» . لما قد يتأنا أنهم لا يعلمون تأويل المشابهة الذي ذكره الله في هذه الآية ^(٣) .

لم قال الطبري: وأما تأويل قوله: ﴿ يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ : فإنه يعني: أن الراسخين في العلم يقولون: صدقتا بما تشابهة من آيات الكتاب ، وأنه حق ، وإن لم نعلم تأويله ^(٤) .

﴿ وما يذكر إلا أولو الأبواب ﴾ : وما يتذكر ويتعظ ويتزجر عن أن

(١) المرجع السابق: ١٨٠/٣ - ١٨١ بتصرف وتلخيص .

(٢) للرجع السابق: ١٨٢/٣ .

(٣) المرجع السابق: ١٨٤/٣ .

(٤) المرجع السابق: ١٨٥/٣ .

يقول في مشابه آيات كتاب الله ما لا علم له به إلا أولو العقل والثمهي^(١).

ولا يخرجُ كلامُ الإمام ابن كثير عن كلام ابن جرير، فقال في تفسير الآية: « يخبر الله أن في القرآن آيات محكمات ، هن أم الكتاب . أي: بينات واضحات الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فمن رد ما اشتبَه إلى الواضح منه ، وحكم محكمه على مشابهه، فقد اهدى ، ومن عكس انعكس .

ولهذا قال تعالى: ﴿ هن أم الكتاب ﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه عند الإشتباه.

﴿ وآخر مشابهات ﴾: أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب ، لا من حيث المراد^(٢).

ثم قال ابن كثير: ﴿ فاما الذين في قلوبهم زيغ ﴾: أي ضلال ، وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾: إنما يأخذون منه بالمشابه ، الذي يمكن أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، ويُزلوه عليها ، لاحتمال لفظه لما يصرفونه ، فاماً المحكمُ فلا نصيبَ له فيه ، لأنه دافع لهم ، وحجة عليهم .

ولهذا قال عنهم ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾: أي: الإضلال لأتباعهم ، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم وليس لهم .

وقوله تعالى: ﴿ وابتغاء تأويله ﴾: أي: تحريفه على ما يريدون .

وقال مقاتل والسدي: ﴿ وابتغاء تأويله ﴾: يتخون أن يعلموا ما يكون، وما عواقبُ الأشياء ، من القرآن^(٣) .

(١) للرجع السابق: ١٨٥/٣ .

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٦٩/١ - ٣٧٠ .

(٣) للرجع السابق: ٣٧٠/١ .

المعنى الثاني للتأويل: التفسير والبيان:

عرضنا فيما سبقَ المعنى الأولَ للتأويل المذكورَ في آية آل عمران ، وهو بيانُ الحقيقةِ التي تؤولُ إليها النصوص الغيبية ، وبيّنا أنّ التأويلَ على هذا المعنى خاصٌّ بالله ، ولا يعلمه الراسخون في العلم ، ولا غيرُهم ، وفسّرنا الآيةَ على هذا المعنى .

ونقدّمُ الآنَ المعنى الثاني للتأويل المذكور في هذه الآية، وهو التفسيرُ والبيان.

قال ابنُ منظور في لسانِ العرب عن ورودِ التأويل بمعنى التفسير:

يُقَال: أوْكُ الكلام ، وتَأوَكُه : إذا فسّره .

والمرادُ بالتأويل: نقلُ ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاجُ إلى دليل، لولاه لما تركَ ظاهرُ اللفظ .

وسئَلَ أبو العباس أحمد بن يحيى عن التأويل فقال: التأويلُ والتفسيرُ بمعنى واحد .

وقال أبو منصور: يقال: ألتُ الشيءَ أؤولُه: إذا جمعته وأصلحته . فكانُ التأويلُ جمعُ معاني الفاظ أشكلتْ بلفظٍ واضح لا إشكال فيه^(١) .

وقال أبو البقاء الكفوي في الكليات: « والتفسيرُ والتأويلُ واحد: وهو كشفُ المراد عن اللفظِ المشكِلي^(٢) .

ومع أنّ التأويلَ في القرآن لم يردْ بمعنى التفسير ، لكن استعمله بعضُ الصحابةِ والتابعين بمعنى التفسير ، وشاعَ استعماله بعد عصر التابعين بهذا المعنى، واشتهرَ بعد ذلك به ، واصطلحَ عليه المفسرون ، وقدّمياً قال العلماء: لا مُشاححة في الاصطلاح .

(١) لسان العرب لابن منظور: ٣٢/١١ - ٣٣ .

(٢) الكليات لأبي البقاء: ٢٦١ .

وذهب إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري إلى هذا الرأي، واستخدم التأويل بمعنى التفسير، ولذلك سُمِّيَ تفسيره « جامع البيان عن تأويل أي القرآن » .

وكان ابن جرير يكثرُ من استعمالِ التأويل بمعنى التفسير ، ولذلك أدار تفسيره على هذا المعنى .

فهم الآية على هذا المعنى للتأويل:

الراسخون في العلم يعلمون تأويل الآيات المشابهات ، بينما لا يعلم تأويلها الذين في قلوبهم زيغ .

ويكونُ فهمُ الآية على هذا المعنى هكذا:

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ : الآياتُ المحكماتُ أمُّ وأصلُّ للآياتِ المتشابهات ، فمن أرادَ فهمَ وتأويلَ وتفسيرِ الآياتِ المتشابهات فلا بدُّ من ردها إلى أصلها وهو الآياتُ المحكمات .

﴿ فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ زانفو القلوب لا يحسنون فهم الآياتِ المتشابهات ولا تأويلها ، ولذلك يُفكِّتون فيها ؛ وتصابُ قلوبهم بالزيغ والانحرافِ والميل عن الحق ، إنهم ينظرون إليها وحدها ، ويتعاملون معها بمعزلٍ عن أصلها، وهو الآياتُ المحكمات ، ولذلك يخطئون في تفسيرها وتأويلها .

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾ : تأويلُ الآياتِ المتشابهات، ومعناها الصحيح يعلمه الله ، لأنه منزَّلُ تلك الآيات .

كما يعلمُ تأويلَ هذه الآياتِ المتشابهات الراسخون في العلم ، فرسوخهم في العلم ، وتمكُّنهم منه ، أوجَدَ عندهم ملكةً في تفسير القرآن وتأويله ، ففهموا آياته المحكمات الكثيرة، ولما وكفوا أمام آياته المتشابهات القليلة،

أحسنوا تأويلها وحملها ، وإرجاعها إلى أسها من الآيات المحكمات ،
وبذلك أحسنوا استخراج دلائلها ومعرفة معانيها وحقايقها .

﴿ يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ : لما أحسن الراسخون في العلم
فهم وتفسير وتأويل الآيات المشابهات، صرحوا قائلين: آمنا بمشايه القرآن
الذي عَلِمْنَا تأويله ، كما آمنا بحكمه ، فالقرآن بحكمه ومشايهه ، كل
من عند ربنا .

على هذا المعنى للتأويل تكون الواو في قوله: ﴿ والراسخون ﴾ حرف
عطف ، عطفت ﴿ الراسخون في العلم ﴾ على لفظ الجلالة ﴿ الله ﴾ .
ويكون الأولى وصل المطفوف بالمعطوف عليه ، والوقف على ﴿ العلم ﴾ ،
فتكون الجملة هكذا: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾ ،
وتكون ﴿ يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ جملة حالية . أي:
الراسخون في العلم عالمون بتأويل المشابه، قائلين: آمنا به كل من عند ربنا .
وعن ذهب إلى هذا المعنى للتأويل، واعتبر نفسه من يعلم تأويل المشابه:
عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، فقد روى عنه ابن جرير الطبري
قوله: أنا من يعلم تأويله .

وقال مجاهد: ﴿ والراسخون في العلم ﴾: يعلمون تأويله ، ويقولون
آمنا به .

وقال محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام: والراسخون في العلم قد
ردوا تأويل المشابه على ما عرفوا من تأويل الآيات المحكمة ، التي لا
تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد ، وقد اتسق بقولهم القرآن ، وصدق
بعضه بعضاً ، وبذلك نفذت به الحجة ، وظهر به العلبر، وزاح به
الباطل، ودفع به الكفر^(١) .

(١) انظر تفسير الطبري: ١٨٢/٣ - ١٨٢

وإذا قلنا: إن التاويلَ بمعنى التفسير والبيان ، وأن العلماء يعلمون تاويلَ
متشابه القرآن ، فإن هلا القولَ لا يتعارضُ مع المعنى اللغويِّ للتاويل ، بل
يتفقُ معه ، ويتحققُ للمعنى اللغويِّ فيه .

فالتاويل - كما مرُّ معنا - هو ردُّ الشيء إلى غايته ، وحمّله على أصله ،
وإرجاعه إلى حقيقته ، وتحديدُ عاقبته ومآله .

وتأويلُ متشابه القرآن - وهو الآياتُ التي فيها اشتباهٌ في المعنى ،
وإشكالٌ في الدلالة - لا يعلمه الناسُ العاديون ، ولا الذين في قلوبهم زيغ .

إن الآية ذمتُ محاولة الذين في قلوبهم زيغ تأويلَ متشابه القرآن ، لأنهم
لا يُحسنون تأويله ورددَه إلى محكم القرآن ، وبذلك يقعون في الفتنة .

بينما مدحت الآية الراسخين في العلم ، لحسن تأويلهم لمتشابه القرآن .

فكيف أوَّله الراسخون في العلم ؟ وكيف تحقَّق في تأويلهم له المعنى
اللغويُّ الاشتقائيُّ للتاويل؟

لقد قامَ الراسخون في العلم بردِّ المتشابه إلى المحكم ، وحمّل المتشابه
على الأصل للمحكم ، قاموا بإعادة الأخر المتشابهات إلى أصلها وهو أمُّ
الكتاب للمحكمات ، وفهموا الآيات المتشابهات على ضوء أصلها من الآيات
المحكمات ، وبذلك التاويل والردُّ أزالوا الاشتباه فيها ، وحلوا ما فيها من
إشكال ، وبذلك أحسنوا فهمَ الآيات المتشابهات .

وهذا الفعلُ منهم ردُّ الشيء إلى غايته ، وإعادة الكلام إلى أصله ،
وحمّله على مرجعه وأساسه ، وهذا هو المعنى اللغويُّ الاشتقائيُّ للتاويل .

وبهذا نعرفُ دقة عبارة الامام الراغب الأصفهاني ، وشمولها للمعنيين
الملكودين للتاويل ، حيث يقول: « هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه ،
علماً كان أو فعلاً »^(١) .

(١) المفردات: ٩٩ .

الفصل الثالث
والتأويل
في
أقدم الرسول ووصحابه

البحث الأول

التأويل في الحديث النبوي

وردَ التأويلُ في حديث رسولِ الله ﷺ ، وكان أحياناً يردُ بمعنى تعبير الرؤيا وتأويلها ، وأحياناً بمعنى الفهم والتفسير .
ونوردُ فيما يلي أمثلةً من الأحاديث على كل واحد من المعنيين:

المطلب الأول

تأويل الرؤيا وتعبيرها

خصَّصَ علماءُ الحديث في مصنفاتهم كتباً خاصةً لتأويل الرؤيا وتعبيرها. ففي صحيح البخاري كتابُ « تفسير الرؤيا » وفي صحيح مسلم كتابُ « الرؤيا » .

والبابُ الثالث من كتاب « الرؤيا » في صحيح مسلم ، أطلقَ عليه الإمامُ النووي شارحُ الصحيح اسم: « باب تأويل الرؤيا » .

ونقرأ في هذا الباب هذه الأحاديث التي ورد فيها مصطلحُ التأويل:

١ - قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال رسولُ الله ﷺ: - رأيتُ ذاتَ ليلةً فيما يرى النائم ، كأننا في دار عقبة بن رافع ، فأتينا برطب من رطب ابن طاب .

فاوكتُ الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وإن دينا قد طاب^(١).
رؤيا الرسول عليه الصلاة والسلام أنه كان مع بعض أصحابه في دار
رجل اسمه «عقبة بن رافع»، فتفاهل بذلك، وأكل من تمر ابن طاب
فتفاهل بذلك.

وأوكت هذه الرؤيا بانها تشيرُ إلى مبشراتٍ قادمة . « رافع » يشيرُ إلى
الرفعة في الدنيا . و « عقبة » يشيرُ إلى حُسن العاقبة في الآخرة ، وعمرُ
«ابن طاب» يشيرُ إلى طيبة واستقرار وانتصار الاسلام .
وهذا ما حصل في الدنيا ، وتحقق تأويلُ الرسول عليه السلام لهذه
الرؤيا ، فقد طابَ الاسلامُ وكملَ واستقر ، ونالَ المسلمون الرفعة في
الدنيا .

٢ - قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: قدم مسيلمة الكلاب على عهدِ
النبي ﷺ المدينة . فجعلَ يقول: إنَّ جعلَ لي محمدٌ الأمرَ من بعده تبعته .
فقدِمها في بشر كثير من قومه .

فأقبلَ إليه النبيُّ ﷺ ، ومعه ثابتُ بن قيس بن شماس ، وفي يد النبيِّ
ﷺ قطعة جريدة ، حتى وقفَ على مسيلمة في أصحابه .

فقال له: (لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن أتعدى أمرَ الله
فيك، ولئن أدبرتُ ليعبرك الله ، وإني لأراك الذي أريتُ فيك ما أريت .
وهذا ثابتٌ يجيبك عني) .

ثم انصرفَ عنه .

قال ابن عباس: فسألتُ عن قولِ النبي ﷺ (إنك أرى الذي أريتُ
فيك ما أريت) ، فأخبرني أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: (بينا أنا نائم -
رأيتُ في يدي سوارين من ذهب ، فاهمّني شأنهما . فأوحى إليّ في المنام
أن اتخمتُهما ، فلفختُهما فطارا .

(١) صحيح مسلم: ٤٢ كتاب الرؤيا: ٣ باب رؤيا النبي حديث رقم: ٢٢٧٠ .

فأوثقتهما كذاين يخرجان من بعدي . فكان أحدهما العنسي ، صاحب صنعة ، والآخر مسيلمة ، صاحب الإمامة ^(١) .

كانت رؤيا رسول الله ﷺ سوازتين من ذهب في يديه ، فلما نفخهما طارا .

وكان تأويلها ظهور كذاين يدعيان النبوة: الأسود العنسي في اليمن ، ومسيلمة الكذاب في الإمامة .

وقد تحققت رؤياه فعلاً ، وتأويلها: حدوثها في عالم الواقع ، فقد خرج الكذبان العنسي ومسيلمة ، وكانا من أخطر مدعي النبوة على المسلمين ، وبنلّ المسلمون جهوداً كبيرة للقضاء عليهما ، وتمكّنوا أخيراً من التغلب عليهما وقتلهما ، وكان قتلها هو تأويل طيران السوازتين لما نفخهما رسول الله ﷺ في المنام .

ونقف مع هذه الأحاديث التي أوردتها الإمام مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، والتي تتحدث عن تأويل الرسول عليه الصلاة والسلام لرؤيا رآها بشأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

١ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (بيننا أنا نائم ، رأيتُ الناس يُعْرَضُونَ وعليهم قمص . منها ما يبلغ الثدي ، ومنها ما يبلغ دون ذلك ، ومرّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره .

قالوا: ماذا أوكلت ذلك يا رسول الله ؟

قال: الدين ^(٢) .

رأى الرسول صلى الله عليه وسلم في منامه الناس يجرّون أماسه ، وكلّ منهم يلبس قميصاً . وهذه القمصان متفاوتة في المقاس ، منها الطويل ومنها القصير ، أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كان قميصه طويلاً يجره .

(١) صحيح مسلم - نفس الكتاب والباب . حديث: ٢٢٧٢ - وحديث: ٢٢٧٤ .

(٢) صحيح مسلم: ٤٤ كتاب فضائل الصحابة: ٢ باب من فضائل عمر: حديث رقم: ٢٢٩٠ .

وتأويلُ هذه الرؤيا أن القمصان هي الدين ، ومعلوم أن التزام المسلمين بأحكام الدين الاسلامي متفاوت ، منهم من يكون التزامه وقيماً ، ومنهم من يكون التزامه ضعيفاً .

أما التزام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأحكام الدين فهو وثيق متين ، ولهذا كان قميصه في المنام طويلاً .

وقد تحققت رؤيا الرسول عليه الصلاة والسلام عملياً فيما بعد ، فصار عمر أميراً للمؤمنين . وترك بعد وفاته آثاره وسنته ، وصار قدوة للمسلمين من بعده .

٢ - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال :

(بينا أنا نائم ، إذ رأيتُ قدحا أتيتُ به ، فيه لبن . فشربتُ منه ، حتى إنني لأرى الريَّ يجري في أظفاري . ثم أعطيتُ فضلي عمر بن الخطاب .

قالوا: فما أوكت ذلك يا رسول الله ؟

قال: العلم^(١) .

اللبن في هذه الرؤيا لرسول الله ﷺ هو العلم ، وهذا هو تأويلُ الرسول عليه السلام لهذه الرؤيا .

وقد تحققت رؤياه عليه السلام في عالم الواقع ، فشربهُ اللبن في الرؤيا ، وارتواؤه منه ، وتأويله الواقعي تمكُّنُ من العلم ، ورسوخه فيه ، وهذا متحققٌ في سيرته وشخصيته عليه الصلاة والسلام .

وتأويل إعطائه فضلُه من اللبن لعمر في عالم الواقع ، هو تمكُّنُ عمر من العلم ورسوخه فيه ، وهذا متحققٌ في شخصيته رضي الله عنه .

وتما أوكتُه وعبرته رسولُ الله ﷺ من رؤياه ، ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال :

(١) صحيح مسلم - المرجع السابق - حديث رقم: ٢٣٩١ .

رأيتُ امرأةً سوداءَ ثائرةَ الرأسِ خرجتُ من المدينة حتى نزلتُ بمهجة .
فتأولتُها أنْ وياةَ المدينة نُقلَ إلى مَهَّجَةٍ ، وهي الجُحفةُ ^(١) .

رؤيا رسولِ الله ﷺ في المنام: رأى امرأةً سوداءَ ثائرةَ الرأسِ ، خرجتُ
من المدينة ، وسارتُ في الطريق ، وذهبتُ إلى الجُحفةِ ، واستقرتُ فيها .
والجُحفةُ لها اسمٌ آخرُ هو « مَهَّجَةٌ » ، وهي في الطريق بين المدينة ومكة .

وتأويلُ هذه الرؤيا الواقعيُّ أن الحَمَى والمرَضَ والوباءَ قد أخرجهُ الله من
المدينة إلى الجحفة ، فتأويلُ الرؤيا هو تحقيقُ الماديِّ في عالم الواقع .

قال ابنُ حجر في فتح الباري: « تقدّمَ في آخر فضل المدينة ، في آخر
كتاب الحج من حديثِ عائشةَ أن رسولَ الله ﷺ قال: (اللهم حَبِّبْ إلينا
المدينة . وانتقلَ حُمَاهَا إلى الجحفةِ قالت عائشة: وقدعنا المدينة ، وهي
أوبأ أرض الله . »

« قال المهلب: هذه الرؤيا من الرؤيا المعبرة ، وهي مما ضُربَ به المثلُ ،
ووجهُ التمثيل أنه شقٌّ من اسم « السوداء » السَّوِّءُ والذَّاءُ ، فتأوَّلُ خروجَها
بما جَمَعَ من اسمها . »

« وقيل: ثورانُ الرأسِ يُؤوِّكُ بالحصى ، لأنها تُشيرُ البدنَ بالاقشعرا » ^(٢)

نكتفي بهذه الأحاديثِ الخمسةِ الصحيحة ، التي أشارت إلى رؤى رأها
رسولُ الله ﷺ في منامه - ورؤيا الأنبياءِ حق - كما أشارت إلى تأويل
وتعبير الرسول عليه الصلاة والسلام لهذه الرؤى الخمسة .

إن تأويله لهذه الرؤى هو ملاحظته لُبُدِّها الواقعي ، وتسجيله لمداولها
العملي، وبيان حقيقتها المادية . وهكذا يكون كلُّ تأويل وتعبير للرؤى .

والملاحظُ أن حقيقة تلك الرؤى المادية قد وقعت بالفعل ، وانطبقت على
الواقع ، كما أوكلها وعبرها رسولُ الله ﷺ .

(١) صحيح البخاري: ٩١ كتاب التعبير: ٤٢ باب المرأة السوداء . حديث رقم: ٧٠٣٩ .

(٢) فتح الباري: ٤٢٥/١٢ - ٤٢٦ .

المطلب الثاني

التأويل بمعنى الفهم والتفسير

وردَ التأويلُ بالمعنى الثاني - الذي سبقَ أن قرّرناه أثناءَ حديثنا عن آيةِ المحكمِ والمتشابهِ ، في سورة آل عمران - وهو: التفسيرُ والبيانُ والفهمُ ، في بعضِ أحاديثِ رسولِ الله ﷺ .
وهو في هذه الأحاديثِ موجّهٌ لتأويلِ القرآن ، أي: فهمه وتفسيره وبيان معناه .

من هذه الأحاديثِ:

١ - روى الإمامُ أحمدُ عن عقبه بن عامر الجهني رضي الله عنه ، عن رسولِ الله ﷺ وقال: هلاكُ أمّتي في الكتابِ واللّينِ !

قالوا: يا رسولَ الله: وما الكتابُ واللّينُ ؟

قال: يتعلّمونَ القرآنَ ، فيتأولونه على غيرِ ما أنزلَ الله . ويحبونَ اللينَ ، فيُدعونَ الجماعاتَ واجتمع ، ويؤنّون !^(١)

إنّ الرسولَ ﷺ يلمُّ هذا الصنفَ من الناس ، وهم الذين يتعلّمون القرآنَ ، ويدرسونه ، ولكنهم لا يفهمونه فهماً صائباً ، ولا يتأوّلونه تأوّلًا صحيحاً ، وإنّما يفهمونه فهماً خاطئاً ، ويفسّرونه تفسيراً مغلوطاً ، ويؤوّلونه تأويلًا مردوداً باطلاً ، على غيرِ ما أنزلَ الله ، وبذلك يحرّفون بهذا التأويلِ الباطلِ الآياتِ عن معناها الصحيحِ ، إلى معنى آخرِ مرفوض ، لا تدلُّ عليه ، ولا تشيرُ إليه .

وبينما ذمُّ رسولُ الله ﷺ المتأوّلين السابقين ، لأنهم تأوّلوا القرآنَ على

(١) مستد أحمد بن حنبل: ١٥٥/٤ .

غير ما أنزل الله ، فقد صَوَّبَ المتأولين من الصحابة تأويلات خاطئة ،
وقدَّمَ لهم الفهمَ والتأويلَ الصحيح ، ولم يذمُّهم لحسن نيتهم في التأويل
غير السيد ، واحذرهم ، ثم صَوَّبَ لهم فهمهم وتأويلهم .

قال الإمامُ ابن حجر في ضابطِ التأويل المردود الذي يُعْتَرَضُ صاحبه ولا
يُذَمُّ: « قال العلماء: كلُّ متأوِّلٍ معلومٍ بتأويله ليس بأنم ، إذا كان تأويله
سائغاً في لسان العرب ، وكان له وجهٌ في العلم »^(١) .

وقد أورده الإمامُ البخاري أربعة أحاديث لذلك ، في كتاب « استنباهِ
المرتدين المعاندين وقتالهم » ، وأورد لها باباً خاصاً ، أطلق عليه اسم:
«باب ما جاء في المتأولين » .

الحديث الأول: عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ هشامَ
ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان. في حياة رسول الله ﷺ فاستمعتُ لقراءته ،
فإذا هو يقرؤها على حروفٍ كثيرة ، لم يُقرئها رسولُ الله ﷺ كذلك ،
فكذتُ أسأوره في الصلاة، فانتظرته حتى سلم ، ثم ليته يرداته - أو
بردائي - فقلت: من أقرأك هذه السورة ؟

قال: أقرئها رسولُ الله ﷺ .

قلت له: ركبت . فوالله إن رسولَ الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي
سمعتك تقرؤها .

فانطلقتُ أتوجهُ إلى رسولِ الله ﷺ ، فقلت: يا رسولَ الله: إني سمعتُ
هنا يقرأ بسورةِ الفرقان على حروفٍ لم تُقرئنيها ، وأنت أقرأتني سورة
الفرقان !

فقال رسولُ الله ﷺ: أرسله يا عمر . إقرأ يا هشام .

(١) فتح الباري: ٣٠٤/١٢ .

فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأها. فقال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت.

ثم قال رسول الله ﷺ: إقرأ يا عمر . فقرأت . فقال: هكذا أنزلت ا
ثم قال: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فأقرأوا ما تيسر
منه^(١) . ا

قال ابن حجر في شرح الحديث: « ومناسبته للترجمة من جهة أن النبي ﷺ لم يؤخذ عمر بتكذيب هشام ، ولا بكونه ليبه بردائه ، وأراد الإيقاع به ، بل صدق هشاماً فيما نقله ، وعذر عمر في إنكاره ، ولم يزد على بيان الحجة في جواز القراءةين^(٢) . »

إن عمر رضي الله عنه قال ما قال في حق هشام متأولاً ، وقد عذره رسول الله ﷺ على خطأ تأويله لحسن نيته ، ثم صوب له تأويله ، وقدم له الصواب في المسألة .

الحديث الثاني: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾^(٣) شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ ، وقالوا: أئنا لم يظلم نفسه ؟

فقال رسول الله ﷺ: ليس كما تظنون . إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿ يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم ﴾^(٤) ١٢

قال ابن حجر: « ووجه دخوله في الترجمة من جهة أنه ﷺ لم يؤخذ

(١) صحيح البخاري: ٨٨ كتاب استنابة المرتدين: ٩ باب ماجاء في المتأولين حديث: ٦٩٣٦ .

(٢) فتح الباري: ٣٠٥/١٢ .

(٣) سورة الأنعام: ٨٢ .

(٤) سورة لقمان: ١٣ .

(٥) صحيح البخاري - للرجع السابق - حديث: ٦٩٣٧ .

الصحابة بحملهم الظلم في الآية على عمومه ، حتى يتناول كل معصية ، بل علّوهم لأنه ظاهر في التأويل ، ثم بين لهم المراد بما رفع الإشكال^(١) .

لقد أوّل بعض الصحابة الآية على غير وجهها ، وفهموها فهماً غير صائب ، واعتبروا الظلم فيها شاملاً لكل معصية ، وهذا تأويل خاطيء منهم ، لكنه تأويلٌ باجتهاد ، فلم يؤخّلهم الرسول ﷺ على ذلك ، بل علّوهم ، ثم صحح لهم تأويلهم وصوب لهم فهمهم .

وهكذا الحديثان الآخران في الباب - الثالث والرابع - ففي الحديث الثالث أخطأ بعض الصحابة فهم وتأويل موقف أحدهم ، وهو مالك بن الدخشن ، واعتبروه منافقاً بسبب ذلك الموقف ، فصوب لهم رسول ﷺ تأويلهم ، واعتبره مسلماً صادقاً ، وطالبهم بإجراء أحكام الإسلام على الظاهر ، ومع ذلك علّوهم في فهمهم ، ولم يؤخّلهم بتأويلهم .

وفي الحديث الرابع بيان خطأ حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في فهمه وتأويله حيث كتب كتاباً إلى أهله في مكة ، يخبرهم بتوجه رسول الله ﷺ لفتح مكة ، وذلك ليس إذاعة منه لسر رسول الله ﷺ ، وإنما ليقدّم خدمة لأهله في مكة . وقد صوب له رسول الله ﷺ فهمه وتأويله ، ولم يؤخّل به^(٢) .

إن رسول الله ﷺ قد رفض تأويلات غير سليمة لبعض المسلمين ، وبين لهم المعنى الصائب والموقف الصحيح ، ولكنه علّوهم لأن ظاهر النص أو الحادثة قد يوحي بذلك التأويل الذي فهموه .

ومن هذه الأمثلة نرى أن التأويل في عهد رسول الله ﷺ قد ورد بمعنى الفهم والتفسير والبيان ، سواء كان هذا صواباً أم خطأ .

(١) فتح الباري: ٣٠٥/١٢ .

(٢) انظر فتح الباري: ٣٠٣/١٢ - ٣١١ .

المطلب الثالث

كيف كان رسول الله يتأول القرآن ؟

للصحابة بعضُ الروايات في تأويل رسول الله ﷺ لبعض آيات القرآن ، يوضحون فيها كيفية تأويله لها .

من هذه الروايات :

١٢ - روى البخاريُّ عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : ركب رسولُ الله ﷺ على حمار ، على قطيفةٍ فذكيته ، وأردفت أسامة بن زيد وراءه يعودُ سعدَ بن عبادة ، قبلَ وقعة بدر .

فمرَّ بمجلس فيه عبدُ الله بن أبيّ بن سلول ، وذلك قبلَ أن يسلمَ عبد الله بن أبيّ ، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفي المجلس عبدُ الله بن رواحة .

فلما غشيت المجلسَ عَجاجة الدابة ، خمرَ عبدُ الله بن أبيّ أنفه برداه ، ثم قال : لا تُعْبِرُوا علينا .

فسلمَ عليهم رسولُ الله ﷺ ، ثم وقفَ فنزل ، فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن .

فقال عبدُ الله بن أبيّ : أيها المرء ، إنه لا أحسنَ مما تقول ، إن كان حقاً فلا تؤذينا به في مجلسنا ، إرجعْ إلى رحلك ، فمَنْ جاءك فاقصصْ عليه .

فقال عبدُ الله بن رواحة : بلى يا رسولَ الله ، فاغشنا به في مجلسنا فإننا نحبُّ ذلك !

فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود ، حتى كادوا يتثارون ، فلم يزل النبيُّ ﷺ يخفضُهم حتى سكنوا !

ثم ركب النبي ﷺ دابته ، فسار ، حتى دخل على سعد بن عباد ، فقال له النبي ﷺ : (يا سعد : ألم تسمع ما قال أبو حجاب - يريد عبد الله ابن أبي - قال : كلا وكذا) .

قال سعد : يا رسول الله : اعفُ عنه واصفحْ عنه . فوالذي أنزل عليك الكتاب ، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه ويعصبوه بالنعصابة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك ، شرق بذلك ، فلذلك فعل به ما رأيت !

فعفا عنه رسول الله ﷺ

وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، كما أمرهم الله ، ويصطبرون على الأذى . قال الله عزوجل : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ﴾ ^(١) . وقال الله : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ ^(٢) .

وكان النبي ﷺ يتأولُ العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم .

فلما غزا رسول الله ﷺ بدرأ ، وقتل الله به صناديد كفار قريش ، قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبيدة الأوثان : هذا أمر قد توجّه ، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ، وأسلموا . ^(٣)

الشاهد في الحديث ذكر - راويه - أسامة بن زيد - رضي الله عنه آية من كتاب الله ، أمر الله فيها الرسول ﷺ والمؤمنين بالعفو والصفح عن أهل الكتاب والمشركين ، حتى يأتي الله بأمره ، ويأمرهم بقتال الكافرين .

(١) سورة آل عمران: ١٨٦ .

(٢) سورة البقرة: ١٠٩ .

(٣) صحيح البخاري: ٦٥ كتاب التفسير: ١٥ باب: ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً: حديث رقم: ٤٥٦٦ .

وقولُ أسامة بن زيد رضي الله عنه بعد ذكر الآية: وكان النبي ﷺ يتأوَّك العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم .

فكيف كان تأويل رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟

لقد كان تأويله فيهم هو التطبيق العملي للآية التي أمرته بالعفو والصفح ، والتنفيذ الفعلي لمضمونها ، حيث كان يعفو ويصفح فعلاً ، حتى أنزل الله آيات بعد ذلك تادئاً له بقتالهم .

إن تأويله الفعلي للآية ليس مجرد فهمها وتفسيرها نظرياً ، ولكنه تحقيقها في عالم الواقع ، وبيان مآلها العملي والواقعي .

٢ - روى الامام البخاري في تفسير سورة النصر عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُكَبِّرُ أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك . اللهم اغفر لي ، يتأوَّك القرآن R

وفي رواية أخرى عنها قالت: « ما صلى النبي ﷺ صلاة ، بعد أن نزلت عليه ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلا يقول فيها: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي »^(١) .

إن ما ترويه عائشة عن رسول الله ﷺ ، كان تأويلاً منه للقرآن . وتأويله للقرآن كان تأويلاً عملياً ، وتنفيذاً وتطبيقاً للأمر الذي أمره الله به .

أنزل الله عليه سورة النصر ، وأمره فيها بتسبيح الله وحمده واستغفاره: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا ﴾ .

فكيف نفذ الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الأوامر الربانية: ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ ؟

لقد جعلها في صلاته ، وتقلعها عملياً ، فكان كثيراً ما يقول في ركوعه

(١) صحيح البخاري: ٦٥ كتاب التفسير: ١١٠ سورة النصر: حديثان: ٤٩٦٧ ، ٤٩٦٨ .

وسجوده: سبحانك اللهم ويحمدك ، وهذا تنفيذ لقوله تعالى: ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ . ويقول: اللهم اغفر لي . ، وهذا تنفيذ لقوله تعالى: ﴿ واستغفره ﴾ .

وعلفت عائشة رضي الله عنها على هذا التطبيق العملي للأوامر الربانية النظرية ، بأنه في هذا الفعل: يتناول القرآن .

وقال الإمام ابن حجر في شرحه للحديث: ﴿ ومعنى قوله: يتناول القرآن: يَجْمَلُ ما أمرَ به من التسييح والتحميد والاستغفار في أشرف الأوقات والأحوال^(١) .

تأويلُ الرسول ﷺ للآية: ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ ليس مجرد فهم وتفسير وبيان لها ، ولكنه تطبيقٌ وتنفيذ .

وهذا هو معنى التأويل الوارد في القرآن - كما سبقَ أن يتنا - فإذا كان تأويلُ الأمر هو فعله وتطبيقه عملياً ، فإن الرسول ﷺ هو أوَّلُ مَزُولٍ للأوامر الربانية في القرآن ، لأنه فعلها عملياً ، وأوجدَ حقيقتها للمادية التي آلتَ إليها النصوص التكليفية .

٣- أخرج الإمام أبو داود في سننه صفة حجة رسول الله ﷺ ، كما رواها عنه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما . ونقتطفُ من كلام جابر ماله صلة بموضوع تأويل الرسول عليه الصلاة والسلام للقرآن .

قال جابر رضي الله عنهما: إن رسولَ الله ﷺ مكثَ تسعَ سنين لم يحج ، ثم أُذِنَ في الناس في العاشرة: أن رسولَ الله ﷺ حاج ، فحجَّ المدينة بشرٌ كثير ، كلهم يلتئمُ أن ياتمُّ برسولِ الله ﷺ ، ويعملَ بمثل عمله .

حتى أتينا ذا الحليفة ، فولدت أسماء بنتُ عميس محمد بن أبي بكر ، فأرسلتُ إلى رسولِ الله ﷺ: كيف أصنع ؟

(١) فتح الباري: ٧٣٤/٨ .

قال: اغتسلي ، واستلثري بثوبٍ وأخرمي .^(١)

فصلى رسولُ الله ﷺ في المسجد ثم ركبَ القصواءَ ، حتى إذا استوتْ به ناقتهُ على البلقاءِ .

فنظرتُ إلى مدِ بصري ، من بين يديه ، من ركبٍ وماشٍ ، وعن يمينه مثلُ ذلك ، وعن يساره مثلُ ذلك ، ومن خلفه مثلُ ذلك .

ورسولُ الله ﷺ بين أظهرنا ، وعليه ينزلُ القرآنُ ، وهو يعلمُ تأويله ، فما عملٌ به من شيءٍ عملنا به^(٢)

إن جابرَ بنَ عبد الله رضي الله عنهما يحملُ تأويلَ القرآنِ على مغناه العملي ، وتطبيقِ أوامره وأحكام القرآنِ بصورة فعلية مادية .

فاللهُ أمر المسلمين بالحج ، وتحدثت آياتُ القرآنِ عن مناسك الحج وأركانه ، لكن كيف يحجُّ المسلمون عملياً ؟ وكيف يتكفون أوامرَ الله بالحج فعلاً ؟ وبعبارة أخرى: كيف يُؤوّلُ المسلمون آياتِ الحجِ تأويلاً واقعياً ؟ يُؤدّون به مناسك الحجِ فعلاً ؟

يخبرنا جابر رضي الله عنه أنهم اقتدوا بالرسول ﷺ وهو يؤدّي مناسك الحج ، فهو موجودٌ بين أظهرهم ، وهو حيٌّ معهم ، وتنزلُ عليه آياتُ القرآنِ التي تبين أركانَ ومناسكَ الحج ، وهو يعلمُ تأويلَ هذه الآياتِ ، وهم يقتدون به في تأويله العملي للآياتِ .

إن تأويلَ الرسول ﷺ لآياتِ القرآنِ الأمرة بالحج هو أداءه لمناسكِ الحجِ فعلاً ، وتحقيقُ الصورة المادية الواقعية لها ، وهذا هو معنى التأويل المولود في القرآنِ .

تأويلُ الأمرِ أداءً وتقليده ، ولهذا كان الرسول ﷺ في حجة الوداع هو أولُ مؤوّلٍ لآياتِ الحجِ في القرآنِ .

(١) سنن أبي داود: ١١ كتاب مناسك الحج: ٥٦ باب صفة حجة النبي . حديث رقم: ١٩٠٥ .

البحث الثاني

كيف كان الصحابة يأتون القرآن؟

عرفنا من النماذج السابقة التي عرضناها كيف كان تأويل الرسول ﷺ للقرآن، وأن تأويله لأوامره هو تنفيذها فعلاً، وتحقيقها في عالم الواقع .
وإذا أردنا أن نفهم على هذا اللون من تأويل الصحابة للقرآن، فإنه لا يخرج عن تأويل رسول الله ﷺ، أي أنهم كانوا يتفقدون أوامر التصوص عملياً، أو يلاحظون صورتها المادية، ومآلها العملي المستقبلي .
من الأمثلة التي توضح ذلك:

١ - أخرج الإمام أحمد عن سعيد بن جبير أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يصلي حيثما توجهت به راحته . ويقول: قد رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك . ويتأول عليه قوله تعالى: ﴿ والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾^(١) .

إن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يرى جواز صلاة التطوع على الراحلة حيثما توجهت به الراحلة، ولا يشترط فيها استقبال القبلة، فلو صلى التطوع إلى غير القبلة وهو على راحته صحت صلاته .

ويعتمد ابن عمر على ظاهر الآية، فالآية تبين أن المشرق والمغرب لله، وأن المصلي نافذة أينما وكى وجهه فهو يوليه الله، وصلاته مقبولة لله .

(١) سورة البقرة: ١١٥ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٤١/٢ .

١٠ كما يعتمدُ ابن عمر على فعلِ رسولِ الله ﷺ ، ويقول: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يفعلُه . أي: رأى الرسولَ ﷺ يصليُ النافلةَ على الراحلةِ إلى غير القبلة .

والشاهدُ في هذا المثالِ في جملة: ويتأولُ عليه قوله تعالى:
﴿ فإِنَّمَا تَوَلَّوْا وُجُوهَ اللَّهِ ﴾ .

أي: كان ابنُ عمر يفهمُ من الآيةِ هذا الفهم ، ويعتبرُها دليلاً على جوازِ عدمِ استقبالِ القبلةِ في صلاةِ النافلة ، وبعد ذلك كان يصلي كما فهم .

فتأويلُ ابن عمر للآيةِ هو فهمُها أولاً ، ثم تطيُّفُها فعلاً ، وتحقيُّقُها عملياً ، وأدلُّه صلاةُ النافلةِ وفقَّ ما اذنتُ به .

٢ - روى الإمامُ البخاريُّ عن ابنِ شهابِ الزهريِّ عن عروةِ بنِ الزبيرِ عن عائشةِ رضي اللهُ عنها قالت: الصلاةُ أوَّلُ ما تُرُضتُ ركعتينِ ، فأقرتُ صلاةَ السفرِ ، وأتمتُ صلاةَ الحضرِ .

قال الزهري: فقلتُ لعروة: ما بالُ عائشةِ تُبَيِّمُ ؟

قال عروة: تأولتُ ما تأوَّلَ عثمانُ^(١)

تروي عائشة رضي اللهُ عنها أنَّ الصلاةَ كانت ركعتينِ في السفرِ والحضرِ، عندما فرضها اللهُ على المسلمين ، وبعد ذلك جعل اللهُ صلاةَ الحضرِ أربعَ ركعات ، وأبقى صلاةَ السفرِ ركعتينِ .

ولم يَكُنْ كلامُها إشارةً إلى أنَّ الأفضلَ للمسافرِ هو أنْ يقصرَ الصلاةَ الرباعيةَ فيصليها ركعتينِ .

ولكنَّ عائشةَ كانت تَسافرُ فتمُّ الصلاةَ ولا تقصرُها ، وهذا الفعلُ منها

(١) صحيح البخاري: ١٨ كتاب تقصير الصلاة: ٥ باب يقصر إذا خرج من موضعه .
حديث رقم: ١٠٩٠ .

لا يتفق مع روايتها ، فلماذا لا تقصر الصلاة ؟
 وقد لفتَ هذا نظرَ راوي الحديث ابن شهاب الزهري ، فسألَ شيخه
 عروة بن الزبير عنه : ما بالُ عائشة تنمُّ الصلاةَ عندما تسافر ؟
 فأجابهُ عروة قائلاً : تاوكتُ كما تاوكتُ عثمان !
 يشيرُ عروةُ إلى ما فعلهُ عثمانُ بن عفان رضي الله عنه ، عندما كان
 أميراً للمؤمنين ، حيثُ ذهبَ إلى الحج ، وفي مكة كان يتمُّ الصلاةَ ولا
 يقصرها .

لقد سئى عروةُ إمامَ عثمانَ للصلاة رغم سفره تايلاً ، لقوله تعالى :
 ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن
 خفتم الذين كفروا . . ﴾^(١) .
 كما اعتبرَ إمامَ عائشة للصلاة تايلاً لهذه الآية كما تاوكتها عثمان .
 إن الآية تاذنُ للمسلمين في قصر الصلاة الرباعية عندما يَضربون في
 الأرض ، وَيُخرجون للسفر .

وجملة ﴿ إن خفتم أن يفتكم الذين كفروا ﴾ ليستَ قيداً للقصر ،
 بمعنى أن القصرَ ليس مقروناً بخوفِ فتنة الكفار ، فإذا أمنَ المسلمون وزالَ
 الخوفُ والفتنة زال القصر .

إن هذه الجملة خرجتْ مخرجَ غالبِ أحوالِ الصحابة ، حيث كانوا في
 حرب مع الكفار ، وكانت أسفارهم فيها خوفَ الفتنة .
 وبعدما زال خطرُ الكفار ، وانتهت الفتنة ، وأمنَ المسلمون ، استمرتْ
 رخصة قصر الصلاة .

قال الإمامُ ابن كثير في تفسير الآية : « وأما قوله : ﴿ إن خفتم أن
 يفتكم الذين كفروا ﴾ فقد يكونُ هذا مخرجَ مخرجِ الغالب ، حالَ نزولِ هـ

(١) سورة النساء : ١٠١ .

الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة ، بل ما كانوا ينتهضون إلا إلى غزو عام ، أو في سرية خاصة ، وسائر الأحياء حرباً للإسلام وأهله .

والمتطوق إذا خرج مخرج الغالب ، أو على حادثة ، فلا مفهوم له^(١) .
ولهذا استوضح عمر بن الخطاب رضي الله عنه من رسول الله ﷺ قصر الصلاة للمسافر مع الأمن .

أخرج الإمام مسلم عن يعلى بن أمية قال: سألتُ عمرَ بن الخطاب: قوله تعالى: ﴿ وليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتكم الذين كفروا ﴾ . فكيف تقصروا وقد آمن الناس؟

فقال لي عمر رضي الله عنه: عجبتُ مما عجيتُ منه . فسألتُ رسولَ الله ﷺ عن ذلك . فقال لي: (صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته) .

وجوابُ الرسول ﷺ على تساؤلِ عمر دليلٌ على أن القصرَ ليس مقروناً بالخوف ، فيجوزُ أن يكون مع الأمن ، وهذا القصرُ للمسافر رخصة من الله لعباده ، وصدقة تصدق بها عليهم .

ولهذا كان رسولُ الله ﷺ يقصرُ الصلاة لما حجَّ حجة الوداع ، وقد زال خطرُ المشركين ، ودخلَ الناسُ في الإسلام .

وأخرج البخاري وغيره عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه قال: صلى بنا رسولُ الله ﷺ آمنَ ما كان بيني ركعتين ركعتين^ك .

وفي رواية أخرى له قال: صليتُ مع النبي ﷺ الظهر والعصرَ بيني ، أكثر ما كان الناسُ ، وآمنه ، ركعتين ركعتين^ك .

وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:

(١) تفسیر ابن کثیر: ٥٩٨/١ - ٥٩٩ .

«صليتُ مع رسول الله ﷺ ركعتين ، وأبي بكرٌ وعمر وعثمان ، صدراً من إمارته ، ثم أتتها»^(١) .

ورغم هذه الروايات التي تدلُّ على قصر الرسول ﷺ. والصحابة الضلوة مع الأمن، إلا أن عثمان وعائشة رضي الله عنهما اتما الصلاة ، وكان إتمامهما للصلاة تأويلاً كما قال عروة بن الزبير .

قال الإمام ابن حجر في شرح الحديث وبيان تأويلهما: « وقال ابن بطال: الوجهُ الصحيحُ في ذلك أن عثمان وعائشة كانا يريان أن النبي ﷺ إنما قصرَ لأنه أخذ بالأسر من ذلك على أمته ، فأخذتا لأنفسهما بالشدّة . وهذا رجحه جماعة ، من آخرهم القرطبي » .

ثم قال ابنُ حجر: « وأما عائشة فقد جاءَ عنها سببُ الإتمام صريحاً . وهو فيما أخرجه البيهقيُّ من طريق هشام بن عروة عن أبيه: أنها كانت تصلي في السفر أربعاً . فقلتُ لها - القائلُ ابنُ أختها عروة بن الزبير - لو صليتِ ركعتين .

فقلت: يا ابنَ أختي: إنه لا يشقُّ عليّ .

وهو دالٌّ على أنها تأوَّكتُ أن القصرَ رخصة ، وأنَّ الإتمامَ لمن لا يشقُّ عليه الفلأ »^(٢) .

إنَّ إتمامَ عثمان وعائشة رضي الله عنهما للصلاة مع السفر ، هو تأويلٌ منهما للآية التي ترخَّصُ بالقصر .

وتأويلهما هو فهمٌ للآية أولاً ، حيث فهما منها أنها تريدُ أن تيسرَ على المسلمين عند المشقة في السفر ، وأنَّ قصرَ الرسولِ عليه الصلاة والسلام أثناء سفره هو تيسيرٌ منه للامة ، لأنه مشرّع ، وأفعاله تشريع . أما هما

(١) انظر هذه الأثرال وغيرها في تفسير ابن كثير: ٥٩٨/١ - ٦٠١ .

(٢) فتح الباري: ٥٧١/٢ .

إن المشقة متضية في حقهما ، والسفرُ لا يشقُ عليهما ، ولذلك لم يقصرا الصلاة .

وتأويلهما للآية بعد ذلك أنهما أتيا الصلاة فعلاً تاماً غيرَ مقصورة ، وهذا هو المظهرُ الماديُّ العمليُّ للتأويل ، حيث حققا الصورة المادية لمعنى الآية ، ونقلوا فعلاً ما دلَّتْ عليه الآية بحسبِ فهمهما لها .

٣ - أخرج البخاريُّ عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه قال لرسول الله ﷺ: يارسول الله: أين تنزلُ؟ في دارك بمكة؟ فقال: وهل ترك عقيلٌ من رباغ أو دور؟ وكان عقيلٌ ورثَ أبا طالب ، هو وطالب ، ولم يرته جعفرٌ ولا عليٌّ رضي الله عنهما شيئاً ، لأنهما كانا مسلمين ، وكان عقيلٌ وطالب كافرين، فكان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا يرثُ المؤمنُ الكافر .

قال ابن شهاب: وكانوا يتأوكون قولَ الله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا، أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ (١) .

يخبرُ أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه كان مع الرسول ﷺ لما توجه إلى فتح مكة ، فسألَ أسامة الرسولَ عليه الصلاة والسلام: أين سينزلُ في مكة؟ أينزلُ في داره فيها؟ أم ينزلُ في دارٍ أخرى؟

فأخبره رسولُ الله ﷺ أن عقيلَ بن أبي طالب لم يترك له في مكة داراً، وذلك لأنه باعَ جميعَ دور هاشم بن عبد مناف ، وابنه عبد المطلب، التي آلتُ إلى أبي طالب وعبد الله والدِ رسول الله ﷺ .

لقد أسلمَ جعفرٌ وعليُّ ابنا أبي طالب رضي الله عنهما ، وبذلك فقدنا

(١) سورة الأنفال: ٧٢ .

(٢) صحيح البخاري: ٢٥ كتاب الحج: ٤٤ باب تورث دور مكة ويصحبها: حديث رقم: ١٥٨٨ .

حَقَّهَا فِي مِيرَاثِ أَبِي طَالِبٍ ، وَطَالِبِ شَقِيقِ عَقِيلٍ لَقِدَتْ فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، فَلَمْ يَبْقَ فِي مَكَّةَ إِلَّا عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَبِذَلِكَ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى دَوْرِ أَبِي طَالِبٍ وَعَبْدِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ بَاعَ تِلْكَ الدَّوْرَ .

وَلَمْ يَرِثْ جَعْفَرٌ وَلَا عَلِيُّ وَالذَّمْعَا أَبَا طَالِبٍ لِأَنَّهُمَا مُؤْمِنَانِ ، وَلَا يَرِثُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ ، كَمَا قَالَ عَمْرُ بْنُ الْحَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَإِنْ اِخْتَلَفَ الدِّينُ مِنْ مَوَارِثِ الْإِرْثِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ .

قَالَ ابْنُ شَهَابٍ الزَّهْرِيُّ رَاوِي الْحَدِيثِ عَنْ أَسَامَةَ: إِنْ الصَّحَابَةُ كَانُوا يَتَأَوَّلُونَ آيَةَ النَّبِيِّ أَوْرَدَهَا بِوَلَايَةِ الْمِيرَاثِ^(١) .

أَيُّ: الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، أَوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَتَوَلَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْمِيرَاثِ وَغَيْرِهِ .

وَالشَّاهِدُ فِي هَذَا الْمَثَلِ أَنَّ ابْنَ شَهَابٍ اعْتَبَرَ عَدَمَ التَّوَارِثِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِ ، وَحُصُولَ التَّوَارِثِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَطْ ، هُوَ تَأْوِيلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ لِآيَةِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ: ﴿ أَوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ .

وَتَأْوِيلُهُمْ لِلآيَةِ اخْتِذْ جَانِبَ التَّأْوِيلِ الْعَمَلِيِّ ، أَيَّ أَنَّهُمْ طَبَقُوا حَقِيقَةَ الْآيَةِ عَمَلِيًّا ، وَتَقَنَّنُوا تَوْجِيهَهَا لَهُمْ فِعْلًا ، وَأَوْجَدُوا مَضْمُونَهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ .

٤ - أَخْرَجَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمَسِيْبِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى حَائِطٍ مِنْ حَوَائِطِ الْمَدِينَةِ لِحَاجَتِهِ ، وَخَرَجْتُ فِي إِثْرِهِ . فَلَمَّا دَخَلَ الْحَائِطَ جَلَسْتُ عَلَى بَابِهِ ، وَقُلْتُ: لَا كُورُنُ الْيَوْمَ بِوَكْبِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَمْ يَأْمُرْنِي .

فَلْهَبَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَقَضَى حَاجَتَهُ ، وَجَلَسَ عَلَى ثُفِّ الْبَيْتِ ، فَكَشَفَ عَنِ سَاقَيْهِ ، وَدَلَّاهُمَا فِي الْبَيْتِ .

(١) فتح الباري: ٤٥٢/٣ .

فجاء أبو بكر يستأذنُ عليه ليدخل . فقلت: كما أنت حتى استأذن لك . فوقف ، فنجتُ إلى النبي ﷺ ، فقلت: يانبيُّ الله: أبو بكر يستأذنُ عليك . قال: إنذن له ، وبشره بالجنة ، فدخل ، فجاء عن يمين النبي ﷺ ، فكشفَ عن ساقه ، ودلاهما في البئر .

فجاءَ عمر ، فقلت: كما أنتَ حتى استأذن لك . فقال النبي ﷺ: إنذن له ، وبشره بالجنة ، فجاءَ عن يسارِ النبي ﷺ ، فكشفَ عن ساقه ، ودلاهما في البئر . فامتلا القفا ، فلم يكن في مجلس .

ثم جاءَ عثمان ، فقلت: كما أنتَ حتى استأذن لك . فقال النبي ﷺ: إنذن له وبشره بالجنة ، معها بلاءٌ يصيبُه . فدخل ، فلم يجدَ معهما مجلساً ، فتحوَّل ، حتى جاءَ مقابلهم على شفةِ البئر ، فكشفَ عن ساقه ، ثم دلاهما في البئر .

فجعلتُ أتمنى أخاً لي ، وأدعو الله أن يأتي .

قال ابنُ المسيب: فتأوَّكْتُ ذلكَ قبورهم ، اجتمعَتْ هاهنا ، وانفردَ عثمان^(١) .

إنَّ أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يخبرُ عن اجتماع الرسول ﷺ مع أبي بكر وعمر على جانبٍ في حافةِ البئر ، وعن انفرادِ عثمان وجلسه مقابلهم على الجانبِ الآخر من الحافةِ لعدمِ وجودِ مكانٍ له بجانبهم .

وهذا التقديرُ الربانيُّ لمواقعهم في هذه الجلسةِ يشيرُ إلى ما سيكونون عليه في المستقبل ، عند وفاتهم جميعاً .

وقد فهمَ سعيدٌ بن المسيب هذه الإشارةَ ، وعبرَ عنها قائلاً: فأوَّكْتُ ذلكَ قبورهم ، اجتمعَتْ هاهنا ، وانفردَ عثمان .

(١) صحيح البخاري: ٩٢ كتاب الفتن: ١٧ باب الفتن التي تخرج كعوج البحر حديث رقم: ٧٠٩٧ .

لقد كان قبراً أبي بكر وعمر بجانب قبر رسول الله ﷺ ، في المسجد النبوي، بينما كان قبر عثمان بعيداً في البقيع .

وكون قبري الثلاثة رضي الله عنهم على هذه الكيفية ، هو تأويلٌ تقدير الله لمواقعهم على حافة البئر مع رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وبعبارة أخرى: تقديرُ الله لمواقعهم الثلاثة على حافة البئر وعدنٌ بشيءٍ سيتحقق فيما بعد ، وكان تأويلُ هذا الوعد تحقيقه وحصوله ووقوعه فعلاً . وهكذا كان، حيث دُفِنَ الصحابان بجانب رسول الله ﷺ، بينما دُفِنَ عثمان في البقيع .

٥ - أخرج الامامُ الترمذيُّ عن أسلمَ أبي عمران التَّجِيبِي قال: كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرَ ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عَجَبَةٌ بِنِ عَامِرٍ ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فُضَالَةٌ ابْنِ عَيْدٍ ، فَحَمَلُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ ، حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ ، فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا: سَبْحَانَ اللَّهِ: يُلْقِي يَدِيهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ .

فصاح أبو أيوب فقال: يا أيها الناس: إنكم تتأوكون هذه الآية . هذا التأويل ، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، لما أعز الله الإسلام ، وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله قد أعز الإسلام ، وكثر ناصروه ، فلو أقمنا في أموالنا، فاصلحنا ما ضاع منها . فأنزل الله على نبيه ﷺ يرُدُّ علينا ما قلنا: ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ . فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها ، وتركنا الغزو . . .

فما زال أبو أيوب شاخِصاً في سبيل الله ، حتى دُفِنَ بأرض الروم^(١) .

إن الصحابيَّ الجليلَ أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه وقف ليصحح

(١) سنن الترمذي: ٤٨ كتاب تفسير القرآن ٣ باب من تفسير سورة البقرة . حديث: ٢٩٧٢ .

للمسلمين المجاهدين سوء فهمهم للآية ، ويصوبُ لهم تاويلهم المردود لها .
الآية هي قول الله : ﴿ وانفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى
التهلكة ، وأحسنوا ، إن الله يحب المحسنين ﴾ (١) .

كان الفهمُ والتاويلُ الخاطيءُ للآية أن بعضَ المجاهدين اعتبرَ التهلكة ،
هي انتحامُ الأهوال والأخطار ، و مواجهة الأعداء ، واختراقُ صفوفهم ،
وأن مَنْ فعلَ ذلك فقد ألقى بنفسه إلى التهلكة ، والله قد نهانا عن إلقاءِ
أنفسنا في التهلكة .

ولهذا لما رآوا المجاهد الشجاعُ يخرقُ صفوفَ الروم ، ويدخلُ فيهم ،
ويقتلُ رجالهم ، أنزلوا الآيةَ على فعله ، فاعتبروا فعله مخالفاً لها ،
فقالوا : سبحان الله ، يلقي بيديه إلى التهلكة .

إن سببَ خطأ فهمهم وتاويلهم للآية أنهم لم يعرفوا سببَ نزولها ،
ولذلك وقف أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه بينَ لهم سببَ نزولها ،
وقال لهم : إنكم تتأوكون هذه الآيةَ هذا التاويل ، وإنما أنزلتْ هذه الآيةُ
فينا معشرَ الأنصار .

التهلكة هي في عدم الإنفاق في سبيل الله ، وفي القعودِ عن نصرَةِ دين
الله ، وتركِ مواجهةِ أعداء الله ، والتخلي عن الجهادِ في سبيل الله ،
والانصرافِ إلى الأعمالِ الشخصية على حسابِ قضايا الأمة .

أرادَ الأنصارُ الانصرافَ إلى أموالهم وأراضيهم وبياتينهم ، التي أحملوها
ووجهوا طاقاتهم لنصرة الإسلام ، فبعدما نصرَ اللهُ دينه ، وكثرَ جنودُه
وناصروه ، لماذا لا يعودون إلى أموالهم؟

فأنزلَ اللهُ آيةً في القرآن تردُّ عليهم ، وتدعوهم إلى عدم التخلي عن
الإنفاقِ والجهاد ، وعدم العودة إلى الأموال ، وتعتبرُ هذا تهلكةً خطيرة .

(١) سورة البقرة : ١٩٥ .

أي أن التهلكة هي في القعود عن الجهاد والمواجهة ، وليست في المواجهة والتحدي .

لقد رفض أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه تأويلاً مردوداً للآية ، تأويلاً يقود إلى القعود وعدم التحام الأهوال واختراق الصفوف .

وقدم تأويلاً صحيحاً للآية ، تأويلاً يدفع أصحابه إلى الاتفاق والجهاد والتحدي والشجاعة والإقدام .

التأويل هنا هو فهم للآية يتج عنه فعل وتصرف ، وأبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه يريد تأويلاً ولهما صائباً ، يتج عنه فعل إيجابي وتصرف سليم .

أبو أيوب يريد اعتبار الآية داعية إلى الجهاد والإقدام والشجاعة ، ويريد من المجاهد تأويل الآية هذا التأويل ، أي: يريد منه تحقيق مفهوم هذه الآية في عالم الواقع إقداماً وتضحية .

إن التأويل في هذا الحديث لا يخرج عن التأويل في الأحاديث السابقة، الذي هو فهم للنص أو الحادث بتطبيقه وتنفيذه وأدائه في عالم الواقع .

دعاء الرسول لابن عباس بتعلم التأويل:

نفق وقفة مناسبة مع الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، الذي كان من أعلم الصحابة بالقرآن وفقهه وفهمه وتأويله ، والذي حاز لقب «ترجمان القرآن» .

لقد دعا له رسول الله ﷺ بالفقه في الدين وعلم التأويل ، وقد ورد هذا الدعاء في روايات عديدة ، بينها تفاوت في العبارات .

١ - روى البخاري في كتاب الوضوء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل النبي ﷺ الخلاء ، فوضعت له وضوءاً ، فقال: مَنْ وضع

هذا؟ فأخبر . فقال: اللهم فقهه في الدين ^(١) .

٢- وروى البخاري في . كتاب العلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضمني رسولُ الله ﷺ إلى صدره وقال: (اللهم علمه الكتاب) ^(٢) .

٣ - وروى البخاري في كتاب العلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ضمني رسولُ الله ﷺ إلى صدره، وقال: (اللهم علّمه الحكمة) ^(٣) .

٤ - وروى مسلم في كتاب فضائل الصحابة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

أني النبي ﷺ الخلاء ، فوضعتُ له وضوءاً . فلما خرج قال:

مَنْ وضع هذا ؟ قالتْ - والقائلة ميمونة رضي الله عنها - : ابنُ عباس . قال: (اللهم فقهه) ^(٤) .

٥ - وروى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسولَ الله ﷺ وضَعَ يده على كتفي - أو منكبي - ثم قال: (اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل) ^(٥) .

٦ - وروى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسولَ الله ﷺ كان في بيتِ ميمونة ، فوضعتُ له وضوءاً من الليل . فقالتْ ميمونة: يا رسولَ الله: وضِعْ لك هذا عبدالله بن عباس .

(١) صحيح البخاري: ٤ كتاب الوضوء: ١٠ باب وضع الماء عن الخلاء. حديث رقم: ١٤٣.

(٢) صحيح البخاري: ٣ كتاب العلم: ١٧ باب قول النبي اللهم علمه الكتاب . حديث: ٧٥.

(٣) صحيح البخاري: ٦٢ كتاب فضائل الصحابة: ٢٤ باب ذكر ابن عباس . حديث رقم: ٣٧٥٦ .

(٤) صحيح مسلم: ٤٤ كتاب فضائل الصحابة: ٣٠ باب فضائل ابن عباس . حديث رقم: ٢٤٧٧ .

(٥) سند أحمد بتحقيق شعيب الأرنؤوط وفرقيته: ٤/٢٢٥ . حديث رقم: ٢٣٩٧ .

فقال عليه الصلاة والسلام: (اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل)^(١).
 لقد تعددت إيراد هذه الروايات الست لحديث ابن عباس ، ودعاء
 الرسول ﷺ له لأبين خطأ شاملاً عند بعض من يكتبون عن ابن عباس
 رضي الله عنهما، وعليه بالتأويل .

إن الكثيرين يظنون أن دعاء الرسول ﷺ بقوله: « اللهم فقهه في الدين،
 وعلمه التأويل » رواه البخاري ومسلم . وهذا باطل ، فأطراف الحديث
 عند البخاري ومسلم ليس فيها: « وعلمه التأويل » . وإنما هذه الجملة عند
 أحمد وغيره .

ولهذا قال الإمام ابن حجر: « وعلمه التأويل » هذه اللفظة اشتهرت
 على الألسنة ، حتى نسبها بعضهم للصحيحين ا ولم يُصِبْ ا^(٢)

قصة الحديث أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أراد أن يتعرف على
 هدي رسول الله ﷺ في صلاة الليل ، فذهب إلى بيت ميمونة أم المؤمنين
 وزوج رسول الله ﷺ ، لهذه الغاية ، وكان غلاماً ميمزاً ، وفي الليل ،
 استيقظ رسول الله ﷺ ، ودخل الخلاء ، فأراد أن يخدمه ، فوضع له
 إبريق الماء على باب الخلاء ، فلما خرج رسول الله ﷺ من الخلاء ورأى
 الماء ، أعجب بذلك التصرف ، الدال على فطنة ونباهة صاحبه ، فسأل
 ميمونة رضي الله عنها: من فعل هذا ؟ فقالت الغلام عبد الله بن عباس .

فضم رسول الله ﷺ ابن عباس إلى صدره بحتان ومودة ، ووضع يده
 على كتفه ، ودعا الله له قائلاً: اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل .

أي أن الرسول ﷺ سأل الله أن يمنحه الفقه في الدين ، وفهم أحكامه ،
 وأن يفقهه في القرآن ، ويعلمه تأويله ، ويوقفه لحسن فهم معانيه .

(١) سند أحمد - المرجع السابق: ١٥٩/٥ - ١٦٠ . حديث رقم: ٣٠٢٢ .

(٢) فتح الباري ١٠/٧ .

ومعلومٌ أن دعاءَ الرسول ﷺ مُجاب ، ولذلك مَنْ اللهُ على ابن عباس
بالفقه في الدين ، وعلم التأويل ، فصارَ بحقَّ ترجمان القرآن .

الفاظ روايات البخاري ومسلم هي: « اللهم فقهه » ، و « اللهم علمه
الكتاب » ، و « اللهم فقهه في الدين » و « اللهم علمه الحكمة » .

أما الجملة المحفوظة: « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » فهي
صحيحة ، وإن لم تكن في الصحيحين .

قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريج أحاديث مسند أحمد ، عند
تخريجه لهذا الحديث في مسند أحمد: « إسناده قوي ، على شرط مسلم ،
رجالہ ثقات ، رجالُ الشيخين ، غيرَ عبدِ الله بن عثمان بن خثيم ، فمن
رجال مسلم .

وأخرجه يعقوبُ بن سليمان في « المعرفة والتاريخ » . وأخرجه
الطبراني^(١) .

وقال في موضع آخر، في تخريج هذا الحديث بإسنادٍ آخر، عن طريق
آخر: « إسناده قوي ، على شرط مسلم ، وأخرجه ابنُ سعد ، وابن أبي
شيبه ، ويعقوب بن سفيان ، وابن حبان ، والطبراني ، والحاكم... »^(٢) .

وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريج (اللهم فقهه في الدين وعلمه
التأويل) في تحقيقه لكتاب « شرح العقيدة الطحاوية » لابن أبي العز:
أخرجه بهذا اللفظ: أحمدُ ، والطبراني في الكبير والصغير ، والبخاري
ومسلم دون « وعلمه التأويل » ، والترمذي ، وابن ماجه بزيادة « وتأويل
الكتاب » ، والبحري ، والبخاري ، والبزار بلفظ « اللهم علمه تأويل القرآن »^(٣) .

(١) مسند أحمد: ٢٢٥/٤ - ٢٢٦ حاشية رقم (٣) .

(٢) المرجع السابق: ١٦٠/٥ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية : بتحقيق الأرنؤوط والتركي: ٢٥٤/١ - ٢٢٥ . حاشية . .

والخلاصة الحديثية أن دعاء الرسول ﷺ لابن عباس بقوله: (اللهم فقه في الدين ، وعلمه التأويل) ورد في حديث صحيح ، إسناده قوي ، على شرط مسلم .

وعندما ننظر في هذا الدعاء ، فإننا نرى الرسول ﷺ قد جمع بين الفقه في الدين وتعلم التأويل ، وعطف علم تأويل القرآن على الفقه في الدين .

إن قوله: وعلمه التأويل ، أو « علمه تأويل القرآن » يدل على أن التأويل علم مستقل قائم بذاته ، وأن التأويل يخصه الإنسان بالتعلم والتحصيل والاكساب ، إضافة إلى ما وهبه الله من ملكة وموهبة وفطنة .

والتأويل المذكور هنا هو المعنى الثاني الذي تحدثنا عنه أثناء وقفنا مع آية المحكم والمتشابه في سورة آل عمران ، وهو الفهم والفقه والتفسير والبيان .

لقد علم الله ابن عباس رضي الله عنهما تأويل القرآن ، فلهن معاني القرآن، وأوّل آياته .

وندعو إلى ملاحظة تحقق معنى التأويل في لغة الفقه - الذي سبق أن قرّناه - على علم ابن عباس بتأويل القرآن .

فإذا كان أساس اشتقاق معنى التأويل هو الرد والحمل والإرجاع والإحالة ، وبيان المرجع والمآل والعاقبة والنهاية ، فإن تأويل ابن عباس للقرآن بالمعنى العلمي ، الذي اتقنه وفقهه ، يبدو فيه المعنى الأصلي ظاهراً .

فعندما كان ابن عباس يُؤوّل آية من القرآن ، فإنما كان يحملها على المعلومات التفسيرية الصحيحة من أحاديث وأسباب نزول ولغة العرب ، ويُعيّنها إليها ، وينظر في الآية التي يُؤوّلها على ضوء هذه المعلومات التي بين يديه ، فيكون تأويله لهذه الآية صائباً ، وفهم لها صحيحاً ، واستنباطه منها دقيقاً ، وهو بهذا التأويل يقدم حقيقة معنى الآية ، ويقرّر مآلها وعاقبتها العلمية التي تريد تفريرها .

وبهذا نرى الجمعَ بين المعنى العلمي للتأويل والمعنى العملي الواقعي له ،
ونرى تحققَ معناه الأصلي اللغوي في هذين النوعين من استعمالاته:
الاستعمالِ العلمي الذي استعمله فيه ابنُ عباس ، والاستعمالِ العملي الذي
وردَ في نصوص أخرى ، سبقَ أن أوردناها .

وعلى ضوءِ هذا نفهمُ كلامَ ابنِ عباس رضي الله عنهما ، الذي أوردَه
له الإمامُ الطبري في مقدمة تفسيره: قال ابنُ عباس: التفسيرُ على أربعة
أوجه: وجهٌ تعرفه العربُ من كلامها ، وتفسيرٌ لا يُعذرُ أحدٌ بجهالته ،
وتفسيرٌ يعلمه العلماء ، وتفسيرٌ لا يعلمه إلا الله ^(١) .

(١) تفسير الطبري بتحقيق محمود شاکر: ٧٥/١ .

الفصل الرابع

الفرو بين التفسير وادلتا ويل

الفروق بين التفسير والتأويل

لُذْكَرُ بما سبق أن عرضناه ، من معنى التفسير والتأويل .
فالتفسير هو: الكشفُ والبيان والظهور .

والتأويل هو: الرُدُّ والإرجاعُ وبيان العاقبة والمآل .

ونذكَرُ بما سبق أن مررناهُ من أن التأويل له معنيان:

التأويل العملي: وهو المذكورُ في القرآن وغالبِ الأحاديث النبوية ، وهو رُدُّ النصوص والأشياء إلى غايتها المرادة منها . وتحقيقها فعلاً في عالم الواقع ، وتحديدُ عاقبتها ونهايتها ، وبيانُ ما تزولُ إليه .

والتأويل العلمي: وهو حسنُ فهمِ النصوص التي فيها غموضٌ أو إبهامٌ ، أو شبهةٌ أو إشكالٌ ، وذلك بردُّها إلى نصوصٍ أخرى واضحةٍ محددةٍ ، وحملُها عليها ، وفهمُها على ضوءها ، وإزالةُ غموضٍ أو إشكالٍ تلك النصوص . وإنفاذِ النظر المتدبر في تلك النصوص ، واستخراجُ ما فيها من لطائف ودلالات .

وكلامنا هنا ليس عن التأويل العملي ، وإنما عن التأويل العلمي ، فهو الذي يوضعُ مقابلَ التفسير ، عندما يُستعملُ المصطلحان في فهم القرآن .

تفسيرُ آيات القرآن هو: فهمُها وبيانُ معانيها وإظهارُ دلالاتها .

وتأويلُ آيات القرآن هو: إزالةُ ما فيها من غموضٍ أو إشكالٍ . وفهمُها فهماً صائباً ، وتأويلُها تأويلاً صحيحاً ، واستنباطُ لطائفها ودلالاتها ، واستخراجُ حقائقها وإشاراتها .

أشهر الأقوال في الفرق بين التفسير والتأويل:

اختلف العلماء في بيان الفرق بين التفسير والتأويل ، وتمعدت أقوالهم في ذلك وتضاربت .

وسنذكر أهم هذه الأقوال ، ثم نتبعها بما نراه واجحاً إن شاء الله .
أورد الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله في مقدمة « التفسير والمفسرون » .

سبعة أقوال في الفرق بينهما^(١) .

١ - التفسير والتأويل: مصطلحان مترادفان بمعنى واحد ، فلا فرق بينهما، ومعناهما بيان القرآن وشرح آياته وفهْمها .
وهذا قول أبي عبيدة معمر بن المثنى ومَنْ معه .

وهنا قول مرجوح لأن التفسير والتأويل مصطلحان قرآنيان ، فلا بد من ملاحظة الفرق بينهما ، فلا ترادف في كلمات القرآن، ولن نجد فيه كلمتين بمعنى واحد ، قد يكون بينهما تقارب شديد في المعنى ، بحيث تخفى الفروق بينهما على كثير من الناس ، لكن المتدبرين يقفون على فروق دقيقة خفية بينهما .

٢ - التفسير: بيان معاني القرآن من باب الجزم والقطع ، وذلك لوجود دليل لدى المفسر، يعتمد عليه في الجزم والقطع .

والتأويل: بيان معاني القرآن من باب الاحتمال وغلبة الظن والترجيح ، لعدم وجود دليل لدى المؤول يعتمد عليه في الجزم والقطع .
وهنا قول أبي منصور الماتريدي .

٣ - التفسير: بيان معاني الألفاظ القرآنية الظاهرة ، التي وضعت لها في اللغة . كتفسير الصراط بالطريق ، والصيب بالمطر .

(١) انظر التفسير والمفسرون للذهبي: ١٩/١ - ٢٢ .

والتأويل: بيان باطن الألفاظ القرآنية ، والإخبارُ عن حقيقة المراد بها .
والمثالُ على هذا الفرق قوله تعالى: ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾^(١) فهذه الآية لها تفسيرٌ وتأويلٌ .

تفسيرُها: أن المرصداً من الرصد والمراقبة . أي: إن الله مطلعٌ على كل ما يعمل الظالمون، يراها ويعلمها ويرصدُها، ويسجلها عليهم ليحاسبهم عليها .
وتأويلها: تحذُرُ الآية من التهاون بامر الله ، والغفلة عن الأهبة والاستعدادِ للعرض عليه يوم القيامة .
وهذا قولُ أبي طالب التغلبي .

٤ - التفسير هو: فهمُ الآياتِ على ظاهرها ، بدون صرفٍ لها عت .
والتأويل هو: صرفُ الآيات عن ظاهرها إلى معنى آخر ، تحتمله الآيات، ولا يخالفُ الكتابَ والسنة ، وذلك عن طريقِ الاستنباط .
وهو قولُ البغوي والكواشي .

٥ - التفسير: هو الانتصارُ على الاتباع والسمع والرواية ، والاكتفاء بما وردَ من مآثورٍ في معاني الآيات .
والتأويل: استنباط المعاني والدلالات من الآيات ، عن طريقِ الدراية والتدبر وإعمالِ الفكر والنظر .

وهذا قولُ أبي نصر الفشيري ، وهو الذي رجَّحه الدكتورُ الذهبي^(٢) .
٦ - التفسير هو: بيانُ المعاني القريبة التي تؤخذ من الآيات ، من كلماتها وجملها وتراكيبها، عن طريقِ الوضع واللغة .
والتأويلُ هو: بيانُ المعاني البعيدة التي تُلحظ من الآيات ، وتوحي بها

(١) سورة الفجر: ١٤ .

(٢) انظر التفسير والمفسرون: ٢٢/١ .

كلماتها وجملها وتراكيبها عن طريق الإشارة واللطفة والإيحاء .

ومالٌ إلى هذا القول الأکوسي في تفسيره « روح المعاني » .

أما إيرادُ الذهبي لرأي الراغب الأصفهاني في التفسير والتأويل فسناخذه من مقدمة تفسيره « جامع التفاسير » بعد قليل إن شاء الله .

ومما عرضَه الإمامُ السيوطي في « الاتقان في علوم القرآن » من الفروق بين التفسير والتأويل - إضافةً إلى ما ذكرناه سابقاً :

٧ - التفسير: أكثرُ استعماله في الألفاظ والمفردات .

والتأويل: أكثرُ استعماله في المعاني والجمل .

٨ - التفسير: بيانُ اللفاظ القرآن التي لا تحتملُ إلا معنى واحداً .

والتأويلُ: توجيهُ ألفاظ القرآن التي تحتملُ عدة معانٍ ، إلى معنى واحد ، اعتماداً على الأدلة في ذلك^(١) .

وهذه الأقوالُ متقاربة كما سنينُ بعد قليل إن شاء الله .

الفرق بينهما عند الراغب وأبي البقاء وفرحات :

يُطِيبُ لي أن أسجلَ آراءَ ثلاثة علماء: قديم ومتأخر ومعاصر ، في بيان الفرق بين التفسير والتأويل ، ثم أوردُ بعد ذلك رأبي في المسألة .

الأول: هو الإمامُ الراغب الأصفهاني ، حيث يقولُ في مقدمة تفسيره «جامع التفاسير» .

التفسيرُ أعمُّ من التأويل .

وأكثرُ ما يُستعملُ التفسير في الألفاظ. والتأويلُ في المعاني. كتأويل الرؤيا.

(١) انظر « الاتقان » للسيوطي بتحقيق الدكتور مصطفى البنا: ١١٨٩/٢ - ١١٩١

والتأويل: يُستعملُ أكثره في الكتب الإلهية. والتضيرُ يستعملُ فيها وفي غيرها .

والتضير: أكثره يستعملُ في مفردات الألفاظ. والتأويل: يستعمل أكثره في الجمل.
فالتضير:

أ - إما أن يُستعملَ في غريبِ الألفاظ نحو: « البَحيرة » و « السابّة » و « الوصيعة » .

ب - أو في وجيز يُبين ويُشرح ، كقوله تعالى: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾^(١) .

ج - وأما في كلام مضمّن بقصة ، لا يمكن تصوّره إلا بمعرفةِها نحو قوله: ﴿ إنما النسيءُ زيادة في الكفر ﴾^(٢) .

وقوله : ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾^(٣) .
وأما التأويل:

أ: فإنه يُستعملُ مرةً عاماً ، ومرةً خاصاً ، مثل « الكفر » و « الإيمان » .
فالكفرُ يُستعملُ تارةً في الجحود المطلق ، ويُستعملُ تارةً في جحود البارئ خاصة . والإيمان يُستعملُ تارةً في التصديق المطلق ، ويُستعملُ في تصديق دين الحق خاصة .

ب: ويُستعملُ في لفظٍ مشتركٍ بين معانٍ مختلفة . مثل لفظ « وَجَدَ » فإنه يُستعمل في الجِلْدَة والجَدِيد ، ويستعمل في الوَجْد ، ويستعمل في الوجود .

(١) سورة البقرة: ٤٣ .

(٢) سورة التوبة: ٣٧ .

(٣) سورة البقرة: ١٨٩ .

والتأويل نوعان: مُستكره ومُتقاد .

فالمستكره هو: ما يُستبَحُّ إذا سُيِّرَ بالحجة، ويُستفحُ بالتدليلات المزخرفة .
وهو على ضربين أربعة:

الأول: أن يكون لفظ عام ، فيخصُّصُ في بعض ما يدخل تحت ، نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) .

حملَ بعضهم « صالح المؤمنين » على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقط .

الثاني: أن يلقَى بين اثنين . نحو قول مَنْ زعمَ أن الحيوانات كلها مكلفة، محتجاً بقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا لَهَا نَذِيرٌ ﴾^(٢) . وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ مِثْلِكُمْ ﴾^(٣)

فاستدلَّ بعضهم بقوله: ﴿ إِلَّا أُمٌّ مِثْلِكُمْ ﴾ على أن الحيوانات مكلفة كما أننا مكلفون .

الثالث: ما استُعمِنَ فيه بخبر مزور ، أو كالمزور . كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكْشِفُ عَنِ السَّاقِ ﴾^(٤)

قال بعضهم: عنى بالساق: الرجلَ الجارحة ، مستدلاً بحديثٍ مروضع ،
الرابع: ما يُستعانُ به باستعاراتٍ واشتقاقاتٍ بعيدة .

كما قال بعضُ الناس: البقر: هو إنسانٌ يقرُّ عن أسرارِ العلوم .
والهلهل: هو إنسانٌ موصوفٌ بجودةِ البحثِ والتنقيرِ .

(١) سورة التحريم: ٤ .

(٢) سورة فاطر: ٣٤ .

(٣) سورة الأنعام: ٣٨ .

(٤) سورة الفلم: ٤٢ .

فالضربُ الأول: أكثرُ ما يَروِجُ على المتفقهة ، الذين لم يَتَوَرَّأ في معرفةِ
الخاص والعام .

والضرب الثاني: أكثرُ ما يَروِجُ على المتكلم ، الذي لم يَتَوَرَّأ في معرفةِ
شروط النظم .

والضرب الثالث: أكثرُ ما يَروِجُ على صاحبِ الحديث ، الذي لم يتهلَّبْ
في شرائطِ قبولِ الأخبار .

والضرب الرابع: أكثرُ ما يَروِجُ على الأديب ، الذي لم يتهلَّبْ بشروطِ
الاستعارات والاشتقاقات .

والتقادُّ من التأويل: هو ما لا يعرضُ فيه البشاعةُ للمتقدمة .

وقد يقعُ الخلافُ فيه بين الراسخين في العلم ، لإحدى جهات ثلاثة:

الأولى: الاشتراكُ في اللفظ ، نحو قوله تعالى: ﴿ لا تترك
الأبصار ﴾^(١) فهل ﴿ الأبصار ﴾ من بَصَرَ العين ، أو بصر القلب؟

الثانية: أمرٌ راجعٌ إلى النظم . نحو قوله تعالى: ﴿ وأولئك هم
الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾^(٢) .

فهل هذا الاستثناء ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ مقصورٌ على المعطوف ﴿ وأولئك
هم الفاسقون ﴾ ؟ أو مردودٌ إليه وإلى المعطوفِ عليه معاً:

﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ﴾ .

الثالثة: لغموض المعنى ، ووجازة اللفظ ، نحو قوله تعالى: ﴿ وإن
عزموا الطلاق فإن الله سميعٌ عليم ﴾^(٣) .

والوجوهُ التي يُعتَبَرُ بها تحقيقُ أمثالها ، وتقوُّدٌ إلى ترجيحِ المناسبِ من

(١) سورة الأنعام: ١٠٣ .

(٢) سورة النور: ٤ - ٥ .

(٣) سورة البقرة: ٢٢٧ .

الأقوال المختلفة في التأويل ، أن يُنظرَ في المختلفِ فيه :

١ - فإن كان المختلفُ فيه أمراً ، أو نهياً عقلياً ، فُزِعَ في كشفه إلى الأدلة العقلية ، وقد حثَّ اللهُ على ذلك في قوله: ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ، ليدبروا آياته ، وليتذكر أولوا الألباب ﴾^(١) .

٢ - وإن كان المختلفُ فيه أمراً شرعياً ، فُزِعَ في كشفه إلى آية محكمة ، أو سُنةٍ مبيّنة .

٣ - وإن كان من الأخبارِ الاعتقادية ، فُزِعَ فيه إلى الحجج العقلية .

٤ - وإن كان من الأخبارِ الاعتبارية ، فُزِعَ فيه إلى الأخبارِ الصحيحة ، المشروحةٍ في القصص^(٢) .

الثاني: هو الإمامُ أبو البقاء الكفوي .

قال في كتابه القيم « الكليات » عن التفسير والتأويل:

« التفسيرُ والتأويل: قيل هما واحد ، وهو كشفُ المراد عن المشكل .

وقيل: التأويل: بيانُ أحدِ احتمالاتِ اللفظ .

والتفسير: بيانُ مرادِ المتكلم .

وقيل: التأويل: ما يتعلقُ بالدراية .

والتفسير: ما يتعلقُ بالرواية .

وعند الراغب الأصفهاني: التفسيرُ أعمُّ من التأويل . وأكثرُ استعمالِ التفسيرِ في الألفاظِ ومفرداتها ، وأكثرُ استعمالِ التأويلِ في المعاني والجمل . وأكثرُ استعمالِ التأويلِ في الكتبِ الإلهية ، والتفسيرُ يستعملُ فيها وفي غيرها .

وقال أبو منصور الماتريدي: التفسير: القطعُ على أن المرادَ من اللفظِ

(١) سورة ص: ٢٩ . .

(٢) مقدمة « جامع التفسير » للإمامِ الراغب الأصفهاني بتحقيقِ استاذنا الدكتور أحمد فرحات: ٤٧ - ٥١ بتصرف يسير للتوضيح .

هذا، والشهادة على الله انه عنى باللفظ هذا ، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح ، وإلا فتفسير بالرأي ، وهو المنهي عنه . والتأويل ترجيح أحد الاحتمالات بدون القطع والشهادة على الله .

وكلام الصوفية في القرآن ليس بتفسير :

وفي « عقائد النسفي » : النصوص على ظاهرها ، والعدول عنها إلى معانٍ يدعيها أهل الباطن إلحاد .

وفي معنى الظهر والبطن وجوه: أشبهها بالصواب ما قاله أبو عبيد ، وهو أن القصص التي قصها الله عن الأمم الماضية وماصاتها بهم به ، ظاهرها الإخبارُ بهلاك الأولين ، وباطنها وعظ الآخرين ، وتحذير لهم ، لا يفعلوا فعلهم ، كي لا يحلَّ به مثل ما حلَّ بالأولين .

وفي تفسير أبي حيان: كتابُ الله جاء بلسانٍ عربي مبين ، لا رمزَ فيه ولا لغزَ ولا باطن ، ولا إيماةً بشيء مما يتحلّه الفلاسفة وأهل الطبائع .

وأما ما يلحِبُ إليه بعضُ المحققين من أن النصوصَ على ظواهرها ، ومع ذلك فيها إشاراتٌ خفيةٌ إلى دقائقٍ تنكشفُ على أربابِ السلوك ، يمكنُ التطبيقُ بينها وبين الظواهر المرادة، فهذا من كمالِ الإيمان، ومحضُ العرفان.

وتفسيرُ القرآن: هو المنقولُ عن الصحابة . وتأويله: ما يُستخرجُ منه بحسبِ القواعدِ العربية .

فلو قلنا في قوله تعالى: ﴿ يخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي ﴾^(١) : أريدُ به إخراجُ الطير من البيضة كان تفسيراً ، ولو قلنا: أريدُ به إخراجُ المؤمن من الكافر ، والعالم من الجاهل ، كان تأويلاً^(٢) .

الثالث: هو استاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات .

فبعدَ أن سجلَ أهمَّ الأقوال في الفرق بين التفسير والتأويل ، قال:

(١) سورة الأنعام: ٩٥ .

(٢) الكلبيات لأبي البقاء: ٢٦١ - ٢٦٢ .

والذي نميلُ إليه: أن التفسيرَ فيه معنى الكشفِ والبيانِ والتفصيلِ .

وأن التأويلَ فيه معنى الرجوعِ والردِّ والصرْفِ والسياسةِ .

وبناءً على ذلك ترى أنه لا تعارضَ بين الأقوالِ ، وأن كلاً من هذه الأقوالِ يُعبَّرُ عن نوعٍ من الأنواعِ ، التي تنطوي تحتَ التفسيرِ أو التأويلِ .

فالذي قال: إنَّ التفسيرَ هو القطعُ على أن المرادَ من اللفظِ هذا ، إنما نظرَ إلى نوعٍ من التفسيرِ ، وهو الذي يعتمدُ على دليلٍ قطعيٍّ ، من قرآنٍ أو سننٍ أو إجماعٍ ، وهذه ولا شكٍ إحدى الحالاتِ التي تواجهُ المفسرَ .

ومثله الذي قال: التفسيرُ هو بيانُ مرادِ المتكلمِ ، أو هو ما يتعلقُ بالروايةِ ، أو هو بيانُ موضوعِ اللفظِ .

يلاحظُ بأنَّ التفسيرَ في كلِّ هذه الأقوالِ فيه معنى الكشفِ والبيانِ .

والذي يقول: إنَّ التأويلَ: هو ترجيحُ أحدِ احتمالاتِ اللفظِ ، بدونِ القطعِ والشهادةِ على الله ، أو هو ما يتعلقُ بالدرايةِ ، أو هو صرفُ الآيةِ إلى معنىٍ تختمه ، أو هو للمعنى غيرِ المتبادرِ . . .

ويلاحظُ أنَّ كلَّ ما ذكَّرَ من أنواعِ وأمثلةٍ ، تدخلُ تحتَ التأويلِ ، وتحتاجُ إلى تدبيرِ الكلامِ ، وتقليبهِ على الوجوهِ المحتملةِ ، وقد تصرفه عن ظاهره لدليلٍ ، وقد تقبلُ ظاهرَ الكلامِ المتبادرِ مع القولِ بمعنى آخرٍ غيرِ متبادرٍ . إلا لا تعارضَ بينهما .

وبناءً على هذا: يرجعُ الاختلافُ بين العلماءِ في هذا إلى اختلافِ الشُّرُحِ ، لا اختلافِ التضادِّ .

حيثُ صبرَ كلُّ واحدٍ منهم عن نوعٍ من أنواعِ التفسيرِ ، أو نوعٍ من أنواعِ التأويلِ ،^(١) .

(١) التعريفُ بالقرآنِ الكريمِ - على الآلةِ الكتابيةِ - لأستاذنا الدكتور أحمد فرحات:

الراجع في الفرق بين التفسير والتأويل:

لانسى أن أساس معنى التفسير هو الكشف والبيان والظهور والوضوح .
وأن أساس معنى التأويل هو الرد والرجوع والعود والحمل ، وتحديد
العاقبة والمآل والغاية والنهاية .

ولا ننسى كلام الإمام الراغب الأصفهاني عن التأويل: « هو رد الشيء
إلى الغاية المرادة منه علماً أو عملاً » .

إننا مع أستاذنا الدكتور أحمد فرحات في أنه يمكن الجمع بين معظم
الأقوال السابقة في بيان الفرق بين التفسير والتأويل ، وأن الاختلاف في
معظمها اختلاف تنوع ، لا اختلاف تضاد .

ونتقل بعد هذه الملاحظة إلى خطوة أخرى في الفرق بين التفسير
والتأويل .

إننا نرى أن فهم القرآن وفقه معانيه واستخراج دلالاته، لا بد أن يكون
على مرحلتين متدرجتين:

المرحلة الأولى: تفسير القرآن .

المرحلة الثانية: تأويل القرآن .

كل ناظر في القرآن ، متدبر في آياته، لا بد أن يطلع على تفسير
القرآن أولاً ، ويعلم تفسيره من المصادر التفسيرية .

ثم يقوم بعد ذلك بتأويل القرآن ، وملاحظة لطائفه ، وتسجيل حقائقه،
واستخراج دلالاته .

إننا نرى أن تفسير القرآن لا بد أن يسبق تأويله ، حتى يكون التأويل
صواباً صحيحاً . إن أي تأويل للقرآن بدون تفسير له ، هو تأويل بالرأي
غير المعتمد على العلم ، وهو مذموم ومنهي عنه .

بناءً على هذا التفرقة مرحلياً بين التفسير والتأويل ، يمكننا أن نجتمع بين

أقوالٍ عديدة ، سبقَ أنْ أوردناها في التفسير والتأويل .

المرحلة الأولى تفسيرُ القرآن: نرى المفسرَ فيها يفسرُ الفاظ وكلمات القرآن، ويعتمدُ في تفسيره على الروايةِ والمأثور ، ويوردُ في تفسير الآية ما في معناها من آياتٍ أخرى ، ومن أحاديثٍ نبويةٍ صحيحة ، ومن أقوالِ صحابةٍ وتابعين ، ومن أسبابِ نزول ، وتفسير شريب ، وناسخٍ ومنسوخ ، وتوجيهٍ قراءات ، وشواهد أشعار . وهو في عمله هذا يفسرُ ظاهرَ الآية، ويوردُ المعنى القريبَ المتبادرَ منها ، ونظراً لما عنده من نصوص يوردُ تفسيرَ الآية من بابِ الجزم والقطع .

هذا كلهُ تشمله المرحلةُ الأولى ، التي هي البدايةُ لفهم القرآن ، والتي أسميناها « تفسير القرآن » .

ونلاحظُ تولُّمَ المعنى اللغويَّ الاشتقائي للتفسير في هذه المرحلة ، فالمفسرُ في عمله يبيِّنُ معنى الآية ويشرحُه ويُظهره ، ويفسره ويكشفُ عنه .

واعتمادُ المفسرِ في هذه المرحلة على المعلوماتِ التفسيريةِ العلميةِ الصحيحة، وعلى آراءٍ مَنْ سبقوه من علماء التفسير ، وجهدهُ فيها في المعرفةِ والاطلاع ، بهدفِ تكوينِ حصيلةٍ علمية ، تؤهله للانتقال للمرحلة الثانية ، وتُعيه على حسنِ تأويل القرآن .

المرحلة الثانية تأويلُ القرآن: يتقلُّ إليها المفسرُ ليكونَ مؤوِّلاً للقرآن ، وينظرُ في القرآن على ضوءِ معلوماته التفسيرية التي حصلها في المرحلة الأولى .

إنَّ المؤوِّلَ في هذه المرحلة: يعمُنُ النظرَ في الجملِ والتراكيبِ والآيات ، ويعتمدُ في نظره على تدبره وإعمالِ عقله ، وتقليبِ وجوه الرأي والنظر ، وتنقذُ نظراته إلى باطنِ الآية ، ويلتفتُ إلى لطائفها وإشاراتِها وإيحاءاتها ، ويستخرجُ حقائقها ودلالاتها ، ويلحظُ المعنى البعيدَ غيرَ المتبادرِ للذهن ، وغيرَ الظاهر من الآية ، ويسجلُ التوجيهَ والرمزَ والومضة التي تشرقُ بها

الآية ، ويقفُ على غرضها ومقصودها ، ويُزيلُ ما عليها من لبس أو اشتباه ، ويحلُّ مائتيره من غموض أو إشكال .

عملُ المؤرِّك في المرحلة الثانية عملٌ ذاتي ، وليس اعتماداً على مَنْ سبقه كما فعلَ في المرحلة الأولى ، ونتاجُه في هذه المرحلة نتاجٌ شخصي ، وتاويلاته التي يقدمُها هي ثمرةُ تدبُّره للقرآن ، ونظرة فيه ، وشخصيته في هذه المرحلة بارزةٌ واضحة ، وجهده اللدائي فيه ملحوظ ، ورأيه مسجلاً معتبر .

وكما لاحظنا توفَّرَ معنى التفسير اللغوي الاشتقائي في المرحلة الأولى ، فإننا نرى توفَّرَ معنى التأويل اللغوي الاشتقائي في هذه المرحلة .

إن التأويلَ هو الرُّدُّ والرجوع ، والمؤرِّكُ هنا يحققُ معناه ، فعندما يقدمُ تاويلاته لا بدُّ أن يردُّها إلى معلوماته التفسيرية ، ويرجعُ بها إليها ، فإن تعارضتْ تاويلاته مع النصوص التفسيرية الغاها وتخلى عنها ، لأنها تاويلاتٌ باطلَةٌ خاطئة .

إن المؤرِّكُ يصححُ لنفسه بعد ما يؤرِّك ، ويصوبُ تاويله على هدي تفسيره ، وينظرُ في تاويله على ضوءِ تفسيره ، ويعيدُ تاويله إلى تفسيره ، ويردُّه إليه ، ويرجعُ به عليه .

أي: يحاكمُ المؤرِّك المرحلة الثانية «التأويل» إلى المرحلة الأولى «التفسير»، ويردُّ التأويلَ إلى التفسير ، ويفهمُ التأويل على ضوء التفسير .

وجوب تحقيق التفسير والتأويل معاً:

يجبُ على كلِّ ناظر في القرآن متدبر له ، أن يحققَ المرحلتين في تعامله مع القرآن ، ومحاولة فهمه .

إذا عملَ رأيه في الآيات ، وحاولَ استخراجَ معانيها ، وتاويلَ حقائقها دون دراسةٍ تفسيرية في التفاسير المأمونة الموثوقة ، فإنه سيخطئُ في نظره

ورأيه وتدبره وتأويله ، وهذا هو التأويلُ بالرأي غير المستند إلى العلم ، وهو مدمومٌ وباطل .

إنه في هذه الحالة لم يسلك الطريقَ الصحيحَ لحسن فهم القرآن ، بل تخطى المرحلة الأولى ونجاوزها ولم يتوقفَ عندها ، وقفزَ قفزَةً خاطئة إلى المرحلة الثانية ، اعتداداً بعقله غير الناضج تفسيرياً ، وإعمالاً لرأيه غير المصوغ صياغةً تفسيرية علمية .

وما أكثرَ هؤلاء الذين يهجمون على تأويل القرآن بهذه الصفة ، في هذا الزمان ، اللذين يقفزون للمرحلة الثانية قفزاً واسعاً في الفراغ ايفهمون آيات القرآن فهماً خاطئاً ، قائماً على المزاجية والهوى ، ويُقرِّون هذه الآيات مالم تقله ، ويستشهدون بها على مالا تشهد عليه ، ويستخرجون منها ما لا تدلُّ عليه ، ويؤوِّكونها تأويلاً باطلاً مردوداً مستكراً !

كذلك لا نرى ان يقفَ الناظرُ في القرآن عند المرحلة الأولى ، وأن يقفَ ضمنَ دائرة تفسير القرآن - على المعنى الذي قرَّره - وأن يكتفيَ بترديد ما وقفَ عليه في تفسير الآيات من أقوالٍ مألوفة ، وأحاديثٍ صحيحة ، ورواياتٍ في النزول والنسخ والغريب ، وأن يكرِّرها وأن ينقلها من تفاسير السابقين إلى تفسيره .

لا نريدُ للمفسر أن يكون مجرد ناقل لكلام السابقين ، وراويهم لأرائهم . وإن كان هناك بعضُ المفسرين كانوا هكذا ، وكتبوا تفاسيرهم هكذا ، واكتفوا فيها بتكرار الأقوال السابقة التي أوردها السابقون .

أينَ جهدُ المفسر اللدني ؟ وأين شخصيته المستقلة ؟ وأين اختياراته وترجيحاته ؟ وأين تأويله واستنتاجاته ؟ أين تدبره هو ، ونظره هو في القرآن ؟

إن انتقالَ الناظر في القرآن من مرحلة المفسر إلى مرحلة المؤرِّك ضروري ، وإن استخراج الدلالات واللطائف والحقائق من القرآن مطلوب ، وإن بناء

التأويل على التفسير واجب .

وإننا نعلمُ أنه بعضُ الناظرين في القرآن لا يستطيعُ الانتقالَ إلى المرحلة الثانية ، فيسقى « يُرواح » مكانه في المرحلة الأولى . إنه غيرُ مؤهلٍ ليكون مؤزلاً ، ولا يملكُ من عمق النظر وإعمالِ الفكر ما يعينه ليكون مؤزلاً .

إن التأويلَ « فتوحاتٌ » من الله ، و « فيوضاتٌ » منه ، ومواهبٌ يهبها سبحانه لمن يشاء ، ونعمٌ يُنعمُ بها على مَنْ يشاء .

ويتفاوتُ المؤزّلون في تأويلاتهم ، في عمقها وجدّتها وأصالتها وفاعليتها وتأثيرها . وكانَ المؤزّلين صيادون يريدون اصطيادَ اللطائف ، واقتناصَ الإشاراتِ والومضاتِ والإيحاءاتِ

هناك صيادٌ يصطادُ الصيدَ القريب ، وهناك صيادٌ ينجحُ في اصطيادِ السريعِ الخفي البعيد ، وهناك مَنْ يصطادُ صيداً صغيراً ، وهناك مَنْ يقتنصُ الصيدَ الثمينَ الغني الوفير .

وهكذا المؤزّلون في تأويلاتهم للقرآن ، والمهمُّ هو أن يردّوا هذه التأويلات إلى التفاسير السابقة ، وأن يرجعوا بها إليها ، وأن يصحّحوها على أساسها .

وهذا يقودنا إلى التذكير بحقيقة: إذا كان التفسيرُ والتأويلُ مرحلتين متعاقبتين ، وإذا كان بعضُ المفسّرين بقي مع المرحلة الأولى ، فإن كلَّ مؤزّلٍ مفسّر ، وليس كل مفسّرٍ مؤزلاً .

فلا بد للمؤزّل من أن يكون مفسّراً أولاً ليصحّ تأويله ، ولكن المفسّر قد لا يتمكنُ من الارتقاء إلى مستوى التأويل 11 .

الدليل على هذه المرحلة :

قلنا إنهما مرحلتان في فهم القرآن: تفسيره أولاً ، ثم تاويله بعد ذلك ،
وإنه لا يجوزُ التاويلُ قبلَ التمكن من التفسير ، وأن كلُّ مؤول مفسر ،
وليس كل مفسر مؤولاً .

والدليلُ على هذه المرحلة ، هو تفاوتُ الصحابة في فهم معاني القرآن ،
فمنهم من كان يكتفي بالوقوفِ مع ظاهر الآيات ، ويقدمُ معناها القريبَ
المتبادر ، ومنهم من كان يعمقُ التدبرَ فيها ، ويدركُ إشاراتها وإحباطها ،
ويقدمُ المعنى البعيدَ اللطيفَ الرشيقَ غيرَ المتبادر .

في مقدمة هؤلاء عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما ، الذي دعا له
الرسولُ ﷺ قائلاً: « اللهم فقهُهُ في الدين ، وعلمهُ التاويل » .

وكان ابنُ عباس رضي الله عنهما من أعلم الصحابة بتفسير القرآن
وتاويله ، ولهذا حاز لقب « ترجمان القرآن » .

ما كل الصحابة كانوا مؤولين للقرآن ، وإن كانوا مفسرين له ، أما ابنُ
عباس فقد كان مفسراً مؤولاً ، رضي الله عنه .

روى الإمامُ البخاري في كتاب التفسير من صحيحه عن سعيد بن جبير ،
عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: « كان عمرُ يُدخلني مع
أشياخ بدر ، فكان بعضهم وجدَّ في نفسه ، فقال: لِمَ تُدخلُ هذا معنا ،
ولنا أبناءٌ مثله ؟

فقال عمر: إنه من علمتم .

فدعاه ذات يوم ، فأدخله معهم .

فما رُكبتُ أنه دعاني يومئذٍ إلا ليربهم .

قال: ما تقولون في قولِ الله: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟

فقال بعضهم: أمرنا نحمدُ الله ونستغفره ، إذا نصرنا وفتح علينا .

رسكتَ بعضهم ، فلم يقل شيئاً .

فقال لي: أكلذك تقولُ يا ابنَ عباس ؟

قلت: لا .

قال: فما تقول ؟

قلت: هو أَجَلُ رسولِ الله ﷺ ، أعلمه له ، فقال له: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، وذلك علامةُ أجلك ، ﴿ نسح بحمد ريك واستغفرو ، إنه كان تواباً ﴾ .

قال عمر: ما أعلمُ منها إلا ما تقول ^(١) .

لقد أجرى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه امتحاناً لابن عباس وبعض الصحابة ، في فهمهم لسورة النصر ، فالصحابه كانوا مفسرين لها ، لكن ابنَ عباس كان مؤزلاً لها .

أخبر ابنُ عباس رضي الله عنهما أن عمرَ كان يقدمه ، ويدخله مع أشياخ بدر ، مع أنه شاب ، وهؤلاء شيوخ ، وتقديمُ عمر له لما لاحظته من فطنته وذكائه ويُعَدُّ نظره ورجاحة عقله .

ولما لاحظ العباسُ اهتمامَ عمر بابه عبد الله رضي الله عنهم ، أوصاه قائلاً: يا بُني: إن عمر يُدعيك ، فلا تُفشيَنَّ له سرّاً ، ولا تفتابنْ عنده أحداً ، ولا يسمعُ منك كلباً ، ولا تبدئه بشيء حتى يسألك عنه .

ولما رأى بعضُ أشياخ بدر إشراكَ عمر لابن عباس معهم ، وجدوا ذلك في نفوسهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لعمر: لِمَ تُدخلُ هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟

فأجابهُ عمر قائلاً: إنه مَنْ قد علمتم .

(١) صحيح البخاري: ٦٥ كتاب التفسير: باب قوله ﴿ نسح بحمد ريك ﴾ . حديث رقم: ٤٩٧٠ .

وهذه إشارة من عمر إلى لطفة ابن عباس وذكائه وعلمه ومعرفته .
وفي رواية ثانية أن بعض المهاجرين قالوا لعمر: ألا تدعو أبناءنا كما
تدعو ابنَ عباس ؟

فقال لهم عمر: ذاكم فتى الكهول، وإن له لساناً شتولاً ، وقلباً عقولاً .
وأرادَ عمر أن يبينَ لهؤلاء الصحابة علمَ ابن عباس وفضلته ، فدعاهم
ودعاه يوماً .

ولهممَ ابنُ عباس قصدَ عمر من الدعوة ، ولهذا قال: فما رُكبتُ أنه
دعاني يومئذ إلا لثريهم .

وفي روايةٍ أخرى: أن عمرَ قال لهم: سأريكم اليومَ منه ، ما تعرفون
به فضله ا

ولما اجتمعوا عندَ عمر ، طلبَ منهم تفسيرَ سورة النصر: ﴿ إذا جاء
نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد
ربك واستغفره ، إنه كان تواباً ﴾ .

لقد نظروا في آياتِ السورة نظرةً ظاهريةً ، ولاحظوا المعنى القريبَ
المبادرَ منها: عندما يأتي اللهُ بنصره ، ويفتحُ البلدانَ أمامَ الاسلام ، فعلى
الرسولِ عليه الصلاة والسلام أن يسبحَ الله ، وأن يحمده ، وأن يستغفره ،
والله توابٌ يتوب على عباده .

هل كلامهم هذا خطأ أم صواب ؟

لقد كان صواباً ، فهذا هو معنى السورة ، وهذا ما تأمرُ به .
لكن هؤلاء الصحابة كانوا مفسرين للسورة ، فسروا كلماتها تفسيراً
ظاهرياً قريباً ، وكان تفسيرهم لها صحيحاً ، لكنه مجردُ تفسير .

أما ابنُ عباس فقد كان يعرفُ من السورة ما قالوه ، ويعرفُ أن هذا هو
ظاهرها ، ولكنه تجاوزَ هذا الظاهر ، وانتقل من تفسيرها القريبِ إلى

خطوة أخرى أرفع وأسمى وأبعد ، وقدمت تأويلاً للسورة تأويلاً مستتباً على موضوعها وهدفها وسياقها .

إن الله أعلم رسوله ﷺ بقرب دنو أجله ، إن النصر والفتح علامة على قرب الأجل ، فعليه الإكثار من حمد الله وتسبيحه واستغفاره ، استعداداً للارتحال عن هذه الدنيا ومغادرتها .

وقال ابن عباس في رواية أخرى: لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ عُيِّنَ إلى رسول الله ﷺ نفسه ، فأخذَ بأشد ما كان قط ، اجتهاداً في أمر الآخرة .

ولقد كان ابن عباس مولفاً في هذا التأويل للسورة ، وفي الالتفات لهذا المعنى الخفي البعيد الذي توحى به ، وقد أشادَ عمرُ بفهمه ، وواقفه عليه ، وقال له: ما أعلمُ منها إلا ما تقول .

ثم توجهَ عمرُ للصحابة الجالسين فقال لهم: كيف تلوُمونني على حُبِّ ما ترون؟

قال الإمام ابن حجر بعد شرحه للحديث: « فيه جوازُ تحديثِ المرءِ عن نفسه بمثل هذا ، لإظهارِ نعمة الله عليه ، وإعلام مَنْ لا يعرفُ قدره ليزلَّ منزلته ، وغير ذلك من المقاصد الصالحة ، لا للمفاخرة والمباهاة ، وفيه جوازُ تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات ، وإنما يتمكّن من ذلك مَنْ رسخت قدمه في العلم »^(١) .

تشيرُ سورة النصر إلى ارتباطِ حياة الرسول ﷺ على الأرض بهذا الدين ، فهو رسولُ الله ، ومهمته هي تليغُ الإسلام ونصرته وجهادُ أعدائه ، فإذا ما نصر الله دينه ، ومنح المسلمين الفتح ، فقد تحققت مهمة الرسول ﷺ بنجاح كبير ، وبذلك تنتهي حياته على الأرض ، المرتبطة بمهمته الدعوية الجهادية .

(١) انظر شرح ابن حجر للحديث في فتح الباري: ٧٣٥/٨ - ٧٣٦ .

ولذلك توحى هذه السورة للرسول ﷺ بقرب انتهاء أجله ، وعليه بعد النصر والفتح الإكثار من التسيب والتحميد والاستغفار، استعداداً للانتقال إلى الدار الآخرة .

هذا ما فهمه ابنُ عباس رضي الله عنهما من السورة ، وهذا ما وافقه عليه عمرُ بن الخطاب ، وبذلك كان ابنُ عباس مؤولاً لها وليس مجرد مفسر ، وكان تأويله مرحلة ثانية بعد التفسير الظاهري للسورة .

الم يفهم الرسول ﷺ من السورة هذه الإشارة ؟

روى الامامُ البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: « ما صلى النبيُّ صلى الله عليه وسلم صلاة ، بعد أن نزلت عليه ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلا يقولُ فيها: سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي »^(١) .

ثم كم عاشَ رسولُ الله ﷺ بعد نزول هذه السورة ؟

لقد نزلت عليه سورة النصر لما حجَّ حجة الوداع . قال ابن عمر رضي الله عنهما: « نزلت هذه السورة في أوسط أيام التشريق في حجة الوداع ، فعرفَ رسولُ الله ﷺ أنه الوداع »^(٢) ..

وكانت وفاته ﷺ بعد ثلاثة أشهر من نزول هذه السورة . حيث كانت وفاته يومَ الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة !

ولابن عباس رضي الله عنهما موقفٌ آخر مع عمره يحضون بعض الصحابة، قدّم فيه تأويلاً لأية من القرآن ، وليس مجرد تفسير لها .

روى الإمامُ البخاريُّ في كتاب التفسير من صحيحه عن عبيد بن عتبة

(١) صحيح البخاري: ٦٥ كتاب التفسير: ١١٠ باب: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ . حديث رقم: ٤٩٦٧ .

(٢) فتح الباري: ٧٣٦/٨ .

قال: قَالَ عَمْرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَوْمَماً لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: « لِمَ تَرُونَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ؟ » أَيُودِ أَحَدِكُمْ أَنْ تُكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ، وَهُوَ ذَرِيَّةٌ ضَعْفَاءُ ، فَاصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ الآيَاتُ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠١﴾ .

فقالوا: اللهُ أعلم !

فغضبَ عَمْرٌ وقال: قولوا نعلم ، أو لا نعلم !!

فقال ابنُ عباس: في نفسي منها شيءٌ يا أميرَ المؤمنين !

قال عمر: يا ابنَ أخي: قلْ ولا تحقرْ نفسك !

قال ابنُ عباس: ضُرِبْتُ مثلاً لعمل .

قال عمر: أيُّ عمل ؟

قال ابنُ عباس: لعمل .

قال عمر: لرجل غني ، يعملُ بطاعةِ الله عزوجل ، ثم بَعَثَ اللهُ له الشيطان ، فعمل بالمعاصي حتى أغرقَ عمله ^(١) .

وفي روايةٍ ثانية أوردها ابنُ حجر في فتح الباري: « أن ابنَ عباس قال لعمر: ضُرِبْتُ مثلاً لعمل .

فقال له عمر: أيُّ عمل ؟

قال ابنُ عباس: شيءٌ ألقى في روعي . عنى بها العمل: ابنُ آدم أفقرُ ما يكون إلى جنته إذا كبرَ سنُّه وكثرَ عياله ، وابنُ آدم أفقرُ ما يكون إلى عمله يومَ يُبعثُ !

(١) سورة البقرة: ٢٦٦ .

(٢) صحيح البخاري: ٦٥ كتاب التفسير: ٤٧ باب: أيود أحدكم . حديث رقم: ٤٥٣٨ .

فقال له عمر: صدقت يا ابن أخي^(١) . .

أما الإمام ابن جرير الطبري فقد أورد رواية أخرى لهذا الحديث .

فقد روى الطبري بإسناده عن عطاء قال: «سأل عمرُ الناسَ عن هذه الآية ، فما وجدَ أحداً يشفيه .

حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أميرَ المؤمنين: إني أجِدُ في نفسي منها شيئاً .

ظننتَ عمرُ إليه ، وقال له: نحوك ههنا . لِمَ تحقرُ نفسك ؟

قالَ ابن عباس: هذا مثلُ ضربه الله عزوجل . فقال: أيودُ أحدكم أن يعملَ عمره بعملِ أهلِ الخيرِ وأهلِ السعادة ، حتى إذا كان أحوجَ ما يكون إلى أن يخرجه الله بخير ، حينَ فنيَ عمره ، واقتربَ أجله ختمَ ذلك بعملِ من عملِ أهلِ الشقاء ، فافسده كله ، فأحرقه وهو أحوجُ ما يكونُ إليه^(٢) .

إن ابنَ عباس هنا كان مؤكلاً لهذه الآية ، ملتفتاً لمغزاها وهدفها .

ولهذا عطفَ الإمامُ ابن جرير على الحديث قائلًا: «وفي الحديثِ قوةُ فهمِ ابنِ عباس ، وقربُ منزلته من عمر ، وتقليدُه له من صِفَره ، وتحريضُ العالمِ لتلميحِهِ على القولِ بحضرةِ مَنْ هو أَسْرَنُ منه ، إذا عرَفَ فيه الأهلية ، لما فيه من أنتشيطِهِ وبسطِ نفسه وترغيبِهِ في العلمِ .

مع فهم الطبري للتأويل:

الإمامُ أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، المتوفى سنة ثلاثمائة وعشر للهجرة ، هو إمامُ المفسرين والمؤكِّين جميعاً .

(١) فتح الباري: ٢٠٢/٨

(٢) تفسير الطبري - طبعة دار الفكر: ٧٥/٣ .

وتفسيره هو المرجع لكل ناظر في القرآن ، أو مفسر له ، أو مؤول
لآياته .

ولالإمام الطبري فهم واضح للتفسير والتأويل ، حيث يعتبرهما مصطلحين
بمعنى واحد ، فكألهما مترادفان ، يدلان على شرح آيات القرآن ، وبيان
معانيها ، والكشف عن موضوعاتها وحقائقها .

إن الإمام الطبري يستعمل التأويل بمعنى التفسير ، ولهذا سمى تفسيره
«جامع البيان عن تأويل آي القرآن» . .

وكان عندما يفسر الآية يقول: «القول في تأويل الآية» . وعندما
يذكر أقوال العلماء في تفسير الآية يقول: «اختلف أهل التأويل في تأويل
الآية» .

فالتأويل في كلامه بمعنى التفسير . .

ولهذا قال في خطبة تفسيره: «ونحن - في شرح تأويله ، وبيان مافيه
من معانيه - مُنْشِئُونَ لِإِنْ شَاءَ اللَّهُ كِتَابًا مُسْتَوْعِبًا ، كُلُّ مَا بِالنَّاسِ الْحَاجَّةُ
إِلَيْهِ مِنْ عِلْمِهِ ، جَامِعًا ، وَمِنْ سَائِرِ الْكُتُبِ غَيْرِهِ فِي ذَلِكَ كَافِيًا .»^(١)

وقد عقد الإمام الطبري مبحثاً في مقدمة تفسيره ، جعل عنوانه: «القول
في الوجوه التي من قبيلها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن» ، وأراد من هذا
المبحث بيان الوجوه التي يستطيع العلماء تأويل القرآن بها ، وبيان أقسام
القرآن من حيث التأويل .

إن الطبري يرى أن القرآن من حيث التأويل ثلاثة أقسام ، بدأها بقوله:
«ونحن قائلون في البيان عن وجوه مطالب تأويله»^(٢) .

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري بتحقيق محمود شاكر: ٦/١ - ٧ .

(٢) المرجع السابق: ٧٣/١ .

القسم الأول: لا يمكن لعالم تأويله إلا بالاطلاع على تأويل الرسول ﷺ له .

وقد أورد ثلاث آيات ، تدلُّ على أن الله أوكلَ لرسوله ﷺ مهمة بيان القرآن وتأويله ، ثم قال : « إنَّ ما أنزلَ اللهُ على نبيه ﷺ ، ما لا يوصلُ إلى علم تأويله إلا ببيانِ الرسولِ ﷺ » .

وذلك تأويلُ جميع ما فيه: من وجوه أمره ونهيه ، ووظائفِ حقوقه وحدوده ، ومبالغ فرائضه . . وما أشبه ذلك من أحكام آياته ، التي لا يدركُ علمها إلا بالبيان الذي قدَّمه الرسولُ ﷺ لأُمَّته .

وهذا الوجهُ لا يجوزُ لأحد القولُ فيه ، إلا ببيان رسول الله ﷺ وتأويله ، وذلك بالاطلاع على بيانِ الرسول عليه الصلاة والسلام .

القسم الثاني: تأويله خاصٌّ بالله الواحدِ القهار ، ولا يعلمه أحدٌ من الناس .

وهو ما في القرآنِ من الخبرِ عن آجالِ حادثة ، وأوقاتِ آتية ، كوقت قيام الساعة ، والنفخ في الصور ، ونزولِ عيسى بن مريم ، وما أشبه ذلك .

فإن تلك أوقاتٌ لا يعلمُ أحدٌ حدودها ، ولا يعرفُ أحدٌ من تأويلها إلا الخبرَ بأشراطها . لأنَّ الله استأثرَ بالعلم بها ، ولم يُطلعْ عليها أحدًا من خلقه .

قال تعالى: ﴿ يسألونك عن الساعة ، إيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفي عنها ، قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾^(١) .

(١) سورة الأعراف: ١٨٧ .

وكان نبينا محمداً ﷺ إذا ذكرَ شيئاً من ذلك القسم ، لم يدلّ عليه إلا بأشراطه ، دون تحديده بوقته ، فلما ذكرَ عليه الصلاة والسلام الدجال ، لم يحدّد وقتَ خروجه ، لعدم علمه بذلك الوقت ، واكتفى بتحليل أصحابه قائلًا: « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجهُ دونكم ، وإن يخرج ولستُ فيكم ، فامرؤٌ حجيجُ نفسه ، واللهُ خليفتي على كل مسلم » .

فهذا يدلُّ على أن الرسولَ ﷺ لم يكن عنده علمُ أوقاتِ أشياء تحدث في المستقبل ، بمقادير السنين والأيام ، لأن هذا خاصُّ بالله .

القسم الثالث: يعلمُ تأويله كلُّ ذي علمٍ باللسان العربي الذي أنزلَ اللهُ به القرآن .

وذلك مثل: إقامةِ إصرابِ القرآن ، ومعرفةِ المسمياتِ المذكورة في القرآن بأسمائها اللازمة لها، والموصوفاتِ بصفاتِها الخاصة بها ، فإن ذلك لا يجمله أحدٌ منهم .

فلو أنّ سامعاً من العرب سمعَ قولَ الله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾^(١) . لم يجهلُ أنّ معنى الإفساد هو كلُّ ما فيه مضرة ، مما ينبغي تركه ، ومعنى الصلاح هو كلُّ ما فيه منفعة ، مما ينبغي فعله ، وإن جهلَ المعاني التي جعلها اللهُ إفساداً ، والمعاني التي جعلها اللهُ إصلاحاً .

فالذي يعلمُه ذو اللسان العربي من تأويل القرآن هو ما وصفتُ ، من معرفةِ أعيانِ المسمياتِ بأسمائها اللازمة ، والموصوفاتِ بصفاتِها الخاصة .

ولا يعلمُ الواجبُ من أحكام الآيات وصفاتها وهيئاتها التي خصَّ اللهُ نبيّه بعلمها ، فلا يُدرِكُ علمُها إلا ببيانه عليه الصلاة والسلام .

(١) سورة البقرة: ١١ - ١٢ .

كما لا يعلمُ تاويل ما استأثرَ اللهُ بعلمه دون خلقه .

ولهذا قال ابنُ عباسٍ رضي اللهُ عنهما: التفسيرُ على أربعة أوجه: وجوه تعرفه العربُ من كلامها . وتفسير لا يُعَدُّ أحدٌ بجهاته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا اللهُ .

والوجهُ الرابعُ الذي ذكره ابنُ عباسٍ ، من أن أحداً لا يُعَدُّ بجهاته ، هذا لا حاجة للبيان عن وجوهِ تاويله ، لأنه لا يجوزُ لأحدٍ الجَهْلُ بتاويله^(١) .

وخلاصةُ كلامِ ابنِ جرير الطبري أنه يقسمُ القرآنَ من حيثُ إمكانيةِ تاويله وتفسيره أقساماً ثلاثة:

القسم الأول: لا يعلمُ تاويله إلا اللهُ ، ومثَّل له بتحديدِ أوقاتٍ ومقاديرِ وسنواتٍ وكيفياتِ أحداثٍ قادمةٍ ستقعُ عند قيامِ الساعة ، وهذا هو التاويلُ العملي ، الذي يلحظُ مآلَ وعاقبةِ ونهايةِ تلك النصوص ، ويركزُ على حقيقتها المادية ، وكيفيتها الفعلية .

القسم الثاني: هو الذي أوكله وفسره رسولُ اللهِ ﷺ ، وهي آيات الأحكام ، وما فيها من أوامرٍ أو نواهٍ ، أو حدودٍ وأركانٍ وشروط ، وذلك كأوقاتِ الصلاةِ وركعاتها وأركانها وسنتها .

ويوجبُ على علماءِ التاويل الاطلاعَ على ما بيَّنه رسولُ اللهِ ﷺ والأخذُ به ، وعدمَ مخالفته .

القسم الثالث: وهو ما تُرك تاويله وتفسيره لعلماءِ التاويل ، حيثُ يقفون أمامه متدبرين ناظرين مفسرين مؤكِّين ، كأعرابِ القرآن وشرحِ بيانه وبلاغته ، وشرحِ معانيه .

ولئن مُنحَ العلماءُ من الخوضِ في تاويل القسم الأول الخاصِّ بالله ،

(١) جامع البيان للطبري: ٧٣/١ - ٧٦ بتصرف واختصار .

ولئن أُلزموا بالأخذِ بِتأويلِ الرسول ﷺ للقسم الثاني وعدم مخالفته ، فإنَّ المجالَ أمامهم واسعٌ مفتوحٌ في القسم الثالث ، فبإمكانهم أن يقفوا أمامه ، وأن يخوضوا فيه ، إذا توفرت فيهم الشروط والمؤهلات العلمية لذلك .

ثم إنَّ القسمَ الثالثَ المخصصَ لعلماء التأويل كثيرٌ في القرآن ، بل إنَّ غالبَ ومعظمَ آياتِ القرآن من القسم الثالث ، بينما آياتُ القسمين الأول والثاني قليلةٌ بالقياس إلى آياتِ القسم الثالث .

وأيضاً فإنَّ العلماءَ يعلمونَ معاني آياتِ القسم الأول والثاني ، ويمكنهم بيانها وشرحها وتفسيرها ، لكنهم لا يقدرون على تأويلها ، بمعنى تحديد حقيقتها وكيفية ووقتها وصورتها ، أو مخالفتها ما قاله الرسول ﷺ فيها .

وبهذا التفصيل من الإمام ابن جرير الطبري في فهمه للتأويل، نختمُ كلامنا عن الفروق بين التفسير والتأويل .

التأويل بمعنى الصرف والتحويل :

عرضنا فيما مضى معنيين للتأويل :

الأول: بيان ما يُؤول ويتوهم إليه الشيء ، وتحديدُ حقيقة الخبر وصورته الفعلية ، وإدائه الأمر وتحقيقه . وهذا هو معناه في القرآن ، وغالبُ أحاديثِ رسول الله ﷺ ، وغالبُ فهم الصحابة .

الثاني: الفهمُ والتوضيحُ والبيان ، وهو قريبٌ من معنى التفسير ، وهذا هو معناه في بعض أحاديثِ رسول الله ﷺ ، وبعض كلام الصحابة ، وعند معظم المفسرين ، وفي مقدمتهم الإمامُ ابنُ جرير الطبري .

وتكلمنا هنا عن معنى ثالثٍ للتأويل ، هذا المعنى طارئٌ متأخرٌ ، لم يستعمله الرسول ﷺ ولا الصحابة والتابعون ، وإنما استعمله المتأخرون .

التأويلُ عند المتأخرين من الأصوليين والفقهاء هو: الصرفُ والتحويل .

ترى هذا التعريف للتأويل في كتب أصول الفقه ، وعلم الكلام .

قال الإمام ابن تيمية في رسالة « الإكليل في التشابه والتأويل » عن هذا المعنى للتأويل: « إن التأويل في عرف المتأخرين من المتفقهة والتصوفة والتكلمة والمحدثة هو: صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح ، لنليل يقترن به » .

هذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف . فإذا قال أحدكم: هذا الحديث أو هذا النص مؤول ، أو محمول على كذا ، قال الآخر: هذا نوع تأويل ، والتأويل يحتاج إلى دليل .
والمؤول عليه وظيفتان:

الأولى: بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه .

والثانية: بيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر .

« وهذا هو التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات ، فقد بصفتهم في إبطال التأويل وذمه ، ويقول بعضهم: آيات الصفات لا تؤول . ويقول الآخر: بل يجب تأويلها . ويقول الثالث: بل التأويل جائز ، يُفعل عند المصلحة ، ويُترك عند المصلحة ، أو التأويل يصلح للعلماء دون غيرهم^(١) .

فهذا هو الذي يعنونه من معاني التأويل الثلاثة ، وهو الذي فيه التنازع والاختلاف ، أما المعنيان الأولان السابقان للتأويل فلا تنازع ولا خلاف فيهما .

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي في عقيدته يرُدُّ تأويلات فرقي المتكلمين لصفات الله ، وذلك أثناء حديثه عن نفي المعتزلة لرؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة: « ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم

(١) الإكليل: ٢٤ - ٢٥ .

يَوْمَهُمْ ، أو تأولها بقهْم . إذ كان تأويلُ الرؤية - وتأويلُ كلِّ معنى يُضافُ إلى الربوبية - تركُّ التاويل ، ولزومُ التسليم ، وعليه دينُ المسلمين .^(١)

ومعنى كلامه: أن رؤية المؤمنين لربهم في الجنة لا تقبلُ الوهم أو سوء الفهم ، فمن توهم لها تشبيهاً لله بخلقه ، فإما أن يؤكِّفها ويصرفها وينفيها ويُعطلها ، وإما أن يجسِّم الله بخلقه ، وكلا الأمرين باطل .

ومعنى قوله: « وتأويلُ كل معنى يضاف إلى الربوبية ترك التاويل ولزوم التسليم »: فهمُ آيات الصفات الصحيح لا يتحقق إلا بعدم التاويل والصرف والتحويل ، وعدم محاولة إدراك كيفية هذه الصفات ، وعدم تصوُّر حقيقة ذات الله المتصفة بهذه الصفات .

التأويلُ في المرة الأولى: « تأويلُ كلِّ معنى » يُرادُ به التاويلُ بالمعنى الثاني الذي قررناه ، وهو الفهمُ والتفسير والبيان .

والتأويلُ في المرة الثانية: « تركُّ التاويل » يُرادُ به التاويلُ بالمعنى الأول ، وهو بيانُ حقيقة الشيء وصورته الفعلية ، والله مُنزَّهٌ عن التجسيم - ومشابهة المخلوقين ، ولهذا لا يمكنُ تصوُّر كيفية ذاتِ الله ، وكيفية اتصاله بصفاته .

كما يُرادُ به المعنى الثالث للتأويل ، وهو الصرفُ والتحويل ، لأننا لو أوكلنا صفاتِ الله ، وصركناها إلى معانٍ أخرى ، فسوفَ نعطلها وننفيها .

ولما شرحَ الإمامُ عليُّ بنُ عليٍّ بن أبي العزِّ الحنفي كلامَ الطحاوي السابق قال عن المعاني الثلاثة للتأويل:

« فالتأويلُ في كتابِ الله وستةُ رسوله ﷺ هو: الحقيقة التي يؤول إليها الكلام .

فتأويلُ الخبر: هو عينُ الخبرِ به .

وتأويلُ الأمر: نفسُ الفعلِ المأمور به .

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ٢٤٩/١ .

وأما ما كان خبراً ، كالإخبار عن الله واليوم الآخر ، فهذا قد لا يُعلمُ
تأويله ، الذي هو حقيقته .

وهذا هو التأويلُ الذي لا يعلمه إلا الله .

لكن لا يلزمُ من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى ، الذي قصدَ
المخاطبُ إفهامَ المخاطبِ إياه . فما في القرآن آيةٌ إلا وقد أمرَ الله بتدبرها ،
وما أنزلَ آيةً إلا وهو يحبُّ أن يُعلمَ ما عني بها ، وإن كان تأويلها لا
يعلمه إلا الله .

هذا هو معنى التأويل في الكتابِ والسنةِ وكلامِ السلف .

والتأويلُ في كلام كثير من المفسرين كابن جرير ونحوه ، يُريدون به
تفسيرَ الكلام ، وبيانَ معناه ، سواء وافقَ ظاهره أو خالفه .

وهذا اصطلاحٌ معروف . وهذا التأويل كالتفسير ، يُحمَدُ حقُّه ، ويُردُّ
باطله .

والتأويلُ في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين هو: صرفُ اللفظِ عن
الاحتمالِ الراجحِ إلى الاحتمالِ المرجوحِ ، لدلالة توجبُ ذلك .

وهذا هو التأويلُ الذي يتنازعُ الناسُ فيه في كثير من الأمورِ الطلبيةِ
والخبريةِ .

فالتأويلُ الصحيحُ منه: الذي يوافقُ ما دلَّتْ عليه نصوصُ الكتابِ والسنةِ ،
وما خالفَ ذلك فهو التأويلُ الفاسدُ^(١) .

التأويلُ بمعناه الثالث - وهو الصرفُ والتحويلُ نوعان: منه تأويلٌ صحيحٌ
مقبول ، وهو ما يتمُّ فيه صرفُ اللفظِ عن معناه الظاهر غير المراد ، إلى
معنى آخر مُراد ، بشرطِ أن يحتملَ اللفظُ ذلك المعنى الآخر ، وبشرطِ قيام
ضرورةٍ تدعو إلى التحويلِ للمعنى الثاني ، وبشرطِ توفرِ دليلٍ من نصوص

(١) متعلقات من شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفية: ٢٥٢/١ - ٢٥٦ .

الكتاب والسنة تدلُّ على ذلك .

أما التأويلُ الملعومُ الفاسدُ ، فهو الذي يتمُّ صرفُ اللفظِ عن المعنى الأولِ ، وتحويله إلى المعنى الثاني ، الذي لا يحتمله اللفظُ ، ولا ضرورة إليه ، ولا دليلٌ عليه .

والتأويلُ الفاسدُ مرفوضٌ ، وكثيراً ما صدرَ عن بعض المتأخرين ، وبخاصة أصحاب الفرقِ وعلماءِ الكلام .

وأكثرُ ما يكونُ التأويلُ والصرفُ المرفوضُ في فهم علماءِ الكلامِ لصفاتِ الله ، وبخاصة تلك الصفاتِ التي في فهمها إشكالٌ ، ويُظنُّ منها مشابهةُ الله بخلقه .

وحولُ هذا المعنى يقولُ قائلهم في « جوهرة التوحيد » :

وَأَيُّ نَصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبِيهَا أَوْلَهُ ، أَوْ فَوْضٌ ، وَرَمَّ تَنْزِيهَا

ولا نوافقُ الناظمَ على هذا النظم ، ويجبُ أن نفهمَ نصوصَ القرآنِ التي تتحدثُ عن صفاتِ الله ، كما فهمها الصحابةُ والتابعون ، حيث أثبتوها لله كما أخبرَ الله ، وكما يليقُ بجلالِ الله ، بدونِ تشبيهٍ ولا تجسيمٍ ولا تأويلٍ ولا تعطيلٍ ولا تكيف .

ومن هذا نعلمُ تطورَ استعمالِ مصطلحِ « التأويل » في التاريخِ الإسلامي ، وكيف ابتعدَ في استعمالِ العلماءِ له عن معناه في القرآنِ والسنة ، إلى معنى اصطلاحٍ عليه فيما بعد .

وَرَدَّ التَّأْوِيلُ فِي الْقُرْآنِ وَالسَّنةِ بِمَعْنَى الْفَعْلِ وَالْأدَاءِ ، وَالرُّدُّ وَالرَّجُوعُ ، وَتَحْدِيدِ الْعَاقِبَةِ وَالْمَالِ .

ثم تطورَ فيما بعد ، فصارَ يستعملُ في معنى الفهمِ والتفسيرِ والبيانِ والكشفِ ، وهذا ما استعمله فيه ابنُ جريرِ الطبري وغيره .

ثم تطورَ فيما بعد ، وابتعدَ كثيراً عن معناه في الاستعمالِ القرآني

والحدِيثِي، لِيُتَعَمَلَ بِمَعْنَى الصَّرْفِ وَالتَّحْوِيلِ ، وَهُوَ مَا يَتَبَادَرُ إِلَى الذَّهْنِ عِنْدَ إِطْلَاقِهِ .

ونلاحظ توفر المعنى الاشتقائي اللغوي للتأويل في معانيه الثلاثة ، وفي هذا نوردُ ما قاله أستاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات :

« وَمِنْ كُلِّ مَا سَبَقَ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ الْكَلَامَ :

- إِذَا وَكِّفَ بِهِ عِنْدَ الْمَعْنَى الظَّاهِرِ ، كَانَتْ الْغَايَةُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى الظَّاهِرِ . وَيَكُونُ الْمَرَادُ بِالتَّوِيلِ هُوَ التَّضْيِيرُ .

- وَإِذَا كَانَ الْمَرَادُ بِهِ تَحْقِيقَهُ فِي عَالَمِ الْوَاقِعِ إِنْ كَانَ خَبِرًا ، أَوْ تَحْقِيقَهُ إِنْ كَانَ طَلِبًا ، كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْغَايَةُ الْمُرَادَةُ مِنْهُ ، وَهَذَا غَيْرُ التَّضْيِيرِ .

- وَإِذَا تَجَاوَزْنَا الْمَعْنَى الظَّاهِرَ إِلَى الْمَعْنَى غَيْرِ الظَّاهِرِ ، كَانَتْ الْغَايَةُ الْمُرَادَةُ مِنَ الْكَلَامِ الْمَعْنَى غَيْرِ الظَّاهِرِ ، لِذِلَالَةِ الْقَرِينَةِ عَلَى ذَلِكَ . وَكَانَ هَذَا تَأْوِيلًا - وَليْسَ تَفْسِيرًا ، بِاصْطِلَاحِ الْمُتَأَخِّرِينَ . وَيُمْكِنُ أَنْ يَدْخُلَ فِي التَّضْيِيرِ حَسَبَ اصْطِلَاحِ السَّلَفِ ،^(١) .

ونحن نُؤَكِّدُ اسْتِعْمَالَ التَّوِيلِ بِمَعْنَاهِ الْأَوَّلِ ، الَّذِي يَقْصُرُهُ عَلَى اللَّهِ ، كَمَا نَفَضَلُّ اسْتِعْمَالَ بِالْمَعْنَى الثَّانِي ، الَّذِي يَنْصَبُّ عَلَى فَهْمِ لَطَائِفِ وَخَفَايَا الْقُرْآنِ .

ولا نَرَى اسْتِعْمَالَ بِالْمَعْنَى الثَّالِثِ ، الَّذِي هُوَ الصَّرْفُ وَالتَّحْوِيلُ ، لِأَنَّ الْمَقْبُولَ الصَّحِيحَ مِنْهُ يَدْخُلُ فِي التَّوِيلِ بِالْمَعْنَى الثَّانِي . وَاللهُ أَعْلَمُ .

(١) التعريف بالقرآن الكريم لأستاذنا الدكتور أحمد فرحات: ١٠٨

الخاتمة

بهذا ينتهي كلامنا عن « التفسير والتأويل في القرآن » ، وبهذا نتوقف جوثنا مع مصطلح « التأويل » .

لقد كانت الرحلة مع « التأويل » شيقة ممتعة ، كما كانت نافعة مفيدة ، والله الحمد .

لقد عشنا مع التأويل في اللغة والاصطلاح ، وتعمقنا مع أهميات كتب اللغة والمعاجم ، باحثين عن معنى التأويل فيها .

ثم سعدنا وتمتعنا بمتابعة « التأويل » في سور القرآن الكريم ، وتأويلنا في جولتنا وسيرتنا مع سور القرآن التي أوردت هذا المصطلح . وحرصنا على الوقوف مع الآيات متدبرين ناظرين .

عشنا مع التأويل في سورة يوسف ، وفي سورة الأعراف ، وفي سورة يونس ، وفي سورة الكهف ، وفي سورة الإسراء ، وفي سورة النساء ، وأخيراً في سورة آل عمران .

وقد لاحظنا أن التأويل في كل سورة من هذه السور السبع ورد في سياق خاص . وأن التأويل في هله السور كلها ورد بمعنى واحد ، وهو: بيان العاقبة، وتعديد المال، وإيجاد المطلوب ، وفعل الأمر ، وتحقيق الخبر .

وكانت وقفنا طويلة أمام التأويل في سورة آل عمران ، لاختلاف العلماء في فهمه ، ولتعلقه بالمحكم والمنشابه ، وهل يمكن تأويل المنشابه أو لا يمكن ، وما هي ضوابط التأويل الممكن .

ثم انتقلنا الى التأويل في حديث رسول الله ﷺ وكلام أصحابه ، وبيّنا أن الحديث عن التأويل كان يُراد به معنيان من معاني التأويل: التأويل الوارد في القرآن بمعنى الرد والأداء والحقيقة والمال، والتأويل بمعنى الفهم والتفسير والبيان .

وأوردنا أحاديثَ عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورواياتِ عن أصحابه الكرام ، يتحققُ فيها هذا المعنى .

ونجدنا أخيراً عن « الفرق بين التفسير والتأويل » ، وسجلنا أهم الفروق التي أوردها العلماءُ بينهما . ثم توقفنا لتقديم ما نراه راجحاً في التفريق بينهما ، وشرّحنا وجهة نظرنا في أن الناظرَ في القرآنَ والمتدبرَ فيه ، لا بدُّ أن يمرَّ بمرحلتين متعاقبتين :

المرحلة الأولى: هي تفسيرُ القرآن، من خلالِ الاطلاعِ على ما وردَ في تفسير الآية من آياتٍ، وأحاديثٍ صحيحة، وكلام صحابةٍ وتابعين وعلماء سابقين ، ورواياتِ حول أسباب النزول والنسخ والقراءات والغريب وغير ذلك .

والمرحلة الثانية: هي تأويلُ القرآن ، بالالتفاتِ الى لطائفه وإشاراته ، واستخراجِ حقائقه ودلالاته .

وبعد ذلك عرّضنا فهمَ إمام المفسرين أبي جعفر محمد بن جرير الطبري لتأويل القرآن ، وتقسيمه آياتِ القرآن الى ثلاثة أقسام من حيث تأويلها .

وأشرنا الى ورودِ معنى ثالثٍ للتأويل، في استعمالِ المتأخرين من الفقهاء والأصوليين وعلماء الكلام، وهو استعمالهم له بمعنى الصرفِ والتحويل، وبيّنا تحقق معنى التأويل اللغوي والاشتقائي في هذا المعنى الجديد .

وسجلنا تحفظنا على استعمالِ التأويل. بمعناه الثالثِ الطاريء على المعنيين السابقين ، وأنّ التأويلَ والصرفَ المقبولَ الصحيحَ يدخلُ ضمنَ تفسير النص، أي يدخلُ في المعنى الثاني ، وآثرنا استخدامَ التأويلِ بمعنيته: المعنى الواردُ في القرآن والسنة ، والمعنى الثاني الذي استعمله فيه بعضُ العلماء من سلف الأمة .

وبهذا ينتهي ما قدره الله لنا من كلام حول « التأويل في القرآن ». والحمدُ لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات ، ونرجو أن يتقبلَ اللهُ بنا هذا العمل .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفهرس

٥ المقدمة
١١ تمهيد: التفسير الموضوعي: الوانه ، وخطوات السير فيه
١٣ تقاسير القرآن أربعة أنواع
١٤ الوان التفسير الموضوعي الثلاثة
١٦ خطوات السير في التفسير الموضوعي
١٨ البدء بالتفسير والتأويل في القرآن
٢١ الفصل الأول: التفسير والتأويل في اللغة والاصطلاح
٢٣ المبحث الأول: التفسير في اللغة والاصطلاح
٢٣ التفسير في اللغة
٢٥ بين القسر والسفر
٢٦ تعريف « تفسير القرآن »
٢٩ المبحث الثاني: التأويل في اللغة والاصطلاح
٢٩ التأويل في اللغة
٣١ بين الأول والوأل
٣٣ التأويل في الاصطلاح
٣٤ معنيان للتأويل عند السلف
٣٥ الفرق بين هذين المعنيين
٣٧ الفصل الثاني: التفسير والتأويل في الأسلوب القرآني
٣٩ المبحث الأول: التفسير في الأسلوب القرآني
٤٢ المبحث الثاني: التأويل في الأسلوب القرآني
٤٤ المطلب الأول: مع التأويل في سورة يوسف
٤٥ نص الآيات
٤٧ تأويل رؤيا يوسف

٥٠	كيف أوكت رؤيا يوسف ؟
٥٢	يوسف يزول رؤيا السجينين:
٥٥	يوسف يزول رؤيا الملك
٥٧	يوسف عالم بتأويل الأحاديث
٦٠	المطلب الثاني: مع التأويل في سورة الكهف
٦٢	نص الآيات
٦٤	معنى تأويل أعمال الخضر
٦٦	شمول أعماله للماضي والحاضر والمستقبل
٦٨	المطلب الثالث: مع التأويل في سورة الأعراف
٦٨	المعنى الإجمالي للآيتين
٧١	التأويل مجيء يوم القيامة فعلاً
٧٥	المطلب الرابع: مع التأويل في سورة يونس
٧٥	المعنى الإجمالي للآيات
٧٨	المراد بالتأويل في هذه السورة
٨١	عمر بن الخطاب يروي عن وقوع التأويل
٨٤	المطلب الخامس: مع التأويل في سورة الإسراء
٨٤	الكيل والوزن بين الإنعام والتنظيف
٨٧	معنى التأويل في السورة
٨٩	التنظيف أسوأ تأويلاً
٩١	إيفاء الكيل والميزان أحسن تأويلاً
٩٣	المطلب السادس: مع التأويل في سورة النساء
٩٣	المعنى الإجمالي للآيات
٩٥	الرد إلى الله ورسوله
٩٧	معنى التأويل في الآية
٩٨	سبب نزول الآية
١٠٢	المطلب السابع: مع التأويل في سورة آل عمران
١٠٢	المعنى الإجمالي للآيات
١٠٦	مناسبة نزول الآيات

١١١	معنيان للتأويل في الآية
١١٢	المعنى الأول: هو ما تزول إليه حقائق الآيات الغيبية
١١٣	فهم الآية على هذا المعنى للتأويل
١٢٢	عدم التأويل لا يعني عدم الفهم
١٢٥	سياق الآية على هذا المعنى للتأويل
١٢٦	الذاهبون إلى هذا المعنى للتأويل
١٣١	المعنى الثاني: التفسير والبيان
١٣٢	فهم الآية على هذا المعنى للتأويل
١٣٥	الفصل الثالث: التأويل في كلام الرسول وأصحابه
١٣٧	المبحث الأول: التأويل في الحديث النبوي
١٣٧	المطلب الأول: تأويل الرؤيا وتفسيرها
١٤٢	المطلب الثاني: التأويل بمعنى الفهم والتفسير
١٤٦	المطلب الثالث: كيف كان رسول الله يتأول القرآن ؟
١٥١	المبحث الثاني: كيف كان الصحابة يتأولون القرآن ؟
١٦١	دعاء الرسول لابن عباس بتعلم التأويل
١٦٧	الفصل الرابع: الفرق بين التفسير والتأويل
١٦٩	الفرق بين التفسير والتأويل
١٧٠	أشهر الأقوال في الفرق بين التفسير والتأويل
١٧٢	الفرق بينهما عند الراغب وأبي البقاء وفرحات
١٧٩	الراجع في الفرق بين التفسير والتأويل
١٨١	وجوب تحقق التفسير والتأويل معاً
١٨٣	الدليل على هذه المرحلة
١٩٠	مع فهم الطبري للتأويل
١٩٥	التأويل بمعنى الصرف والتحويل
٢٠١	الخاتمة
٢٠٦	المراجع

المراجع

- ١ - صحيح الإمام البخاري .
- ٢ - صحيح الإمام مسلم ، بعناية محمد فؤاد عبدالباقي .
- ٣ - معجم مقاييس اللغة لابن فارس . تحقيق عبدالسلام هارون .
- ٤ - مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان داودي . طبعة دار القلم - دمشق .
- ٥ - عمدة الحفاظ في تفسير اشرف الألفاظ للسجين الحلبي . تحقيق الدكتور محمد التونجي . طبعة عالم الكتب - بيروت .
- ٦ - الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية . لأبي البقاء أيوب ابن موسى الكفوي . تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري . مؤسسة الرسالة .
- ٧ - لسان العرب لابن منظور الألفي . طبعة دار صادر .
- ٨ - المعجم للمفهرس لألفاظ القرآن . لمحمد فؤاد عبدالباقي .
- ٩ - فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر العسقلاني .
- ١٠ - سنن أبي داود . بعناية محمد محي الدين عبدالحميد .
- ١١ - سنن الترمذي . طبعة أحمد شاکر .
- ١٢ - مسند أحمد بن حنبل ، بتحقيق شعيب الأرنؤوط وفريقه . طبعة مؤسسة الرسالة .
- ١٣ - تفسير الإمام الطبري . طبعة دار الفكر .
- ١٤ - تفسير الإمام ابن كثير . طبعة دار الخیر .
- ١٥ - الاتقان في علوم القرآن للسيوطي . تحقيق د . مصطفى البنا .
- ١٦ - التفسير والمفسرون . للدكتور محمد حسين الذهبي .
- ١٧ - تفسير التحرير والتوير . لمحمد الطاهر بن عاشور .
- ١٨ - الإكليل في التشابه والتأويل لابن تيمية . طبعة السلفية في مصر .
- ١٩ - التعريف بالقرآن الكريم للدكتور أحمد حسن فرحات . بحث على الآلة الكاتبة غير منشور .

- ٢٠ - السيرة النبوية لابن هشام . بعناية إبراهيم الأبياري ومن معه .
- ٢١ - شرح العقيدة الطحاوية . لابن أبي العز الحنفى . تحقيق شعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة .
- ٢٢ - مقدمة جامع التفسير للراغب الأصفهاني . تحقيق الدكتور أحمد فرحات . طبعة الكويت .